التحليل الروائـــي

لـ سـورة النسـاء

عبد الباقي يوسـف

مقدمـــة

سورة النساء، هي سورة للنساء بامتياز، يتعرّف فيها الرجل على المرأة بما لم يتعرف من قبل، تبث إليه معارف غاية في الأهمية عن المرأة وهي تدخله إلى عالمها، كلمة كلمة، موقفاً موقفاً، حكماً حكماً، آية آية.

هكذا هو القرآن، يقدّم لك الحقائق الكُبرى والصغرى، يجعلك تمتلئ بالحياة، وتزداد نضجاً مع كل آية تقرأها في كل يوم جديد، ومع تعدد هذه القراءات تكتشف مدى ما يحتويه القرآن من مقوّمات حياتية تخصك يوماً بيوم، ولحظة بلحظة، وأن ما يحتويه القرآن مما يعنيك، لايحتويه كتاب آخر لو قرأت كتب الأرض جميعاً جملة واحدة.

من هنا، فإن معرفتك بالمرأة تكون معرفة ناضجة واعية وأنت ترى بأن الله جل ثناؤه يقدّمها لك، أحياناً نقول بأن المرأة تستطيع أن تعرف المرأة أكثر من الرجل، وبالتالي فإن المرأة قادرة على تقييم المرأة أكثر من الرجل، وقد يثق الرجل بهذا التقييم كون المرأة أقرب إلى فهم المرأة.

في سورة النساء، فإن الله تعالى الذي خلق الرجل، وخلق المرأة هو الذي يقدّمها، وهو الأعلم بها من نفسها، هو الذي يعلم سرها وعلنها، هو الذي سوّاها، والخلق هو أقرب القرب في معرفة المخلوق، فالأب أو الأم مهما ادعيا بأنهما يعلمان ابنتهما جيداً، إنهما لايعلما عنها ما يعلم الله، ولذلك فإنهما يحتاجان إلى الله كي يعلمهما ما لايعلماه عن ابنتهما، وكذلك الأمر بالنسبة لعموم العلاقة المعرفية بين الرجال والنساء، فهذه السورة لاتكتفي بتقديم المرأة للرجل فحسب، بل تقدم المرأة أيضاً للمرأة كي تكون أكثر استطلاعاً على ذاتها، وبالتالي ترى أن التزامها بحدود الله هو من باب معرفتها بأوامره ونهاياه، واستجابتها لهذه الأوامر والنواهي بعد أن تكون قد اقتنعت بأن ذلك يقع في صالحها، وصلاح أمرها.

إننا إزاء أكثر سور القرآن نساءً، وأكثرها امتلاءً بالنساء، حيث لم تدع امرأة يمكن أن تكون للرجل علاقة بها، إلاّ وأتت إلى تفصيلها، وإلى بنية العلاقة بينه وبينها، ابتداءً بالأم، والأخت، وابنة الأخ، وابنة الأخت، والزوجة، والابنة، ثم أكثر من زوجة واحدة، و أخت الزوجة، فأم الزوجة، فابنة الزوجة، إلى زوجة الأب، وزوجة الابن، وابنة الابن، وابنة البنت، ثم العمّة، والخالة، وبناتهما، امتداداً إلى المرأة التي رضعتك، وبناتها، والمرأة اليتيمة، والجارة، والخادمة.

ثم تفصّل لك العلاقة بالمرأة في حال نشوزها، ودرجات النشوز، وتعاملك مع تلك الدرجات، ثم الخلافات الزوجية وما يمكن أن تبلغها من درجات، ثم المرأة الزانية التي تخون زوجها، ثم المرأة التي يكون لها صاحب سرّي، ثم الفتاة التي تأتي الزنا، ثم الصِداق، ثم كيفية تصرّف المرأة بأموالها، ثم كيف ترث، وكيف تورَث، وموقفك من ممتلكات زوجتك، وامرأة عقدتَ عليها ولم تدخل بها، ثم المرأة التي طلّقتها، فلا تكاد السورة تدع امرأة يمكن أن يصبح لك علاقة بها سواء من قريب، أو من بعيد، إلاّ وتعرضت لها بدقة وتفصيل، وقد جاءت كلمة النساء، دون كلمة المرأة، لأن النساء أكثر شمولية من المرأة التي تشير في بعض الاستخدامات إلى شيء من الفردية مثل قولك: هذه المرأة. بيد أنك لاتستطيع أن تقول : هذه النساء، بل تقول : هؤلاء النساء، كناية بالشمول غير المُستثنى.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" من أخذ السبع الأول، فهو حبر"[١] والحبر هو العالم[٢]

وعن واثلة بن الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" أعطيت مكان التوراة السبع"[٣]

يرشدك القرآن كيف تكون قوياً، وكيف تواجه كل أشكال الاستسلام والوهن، ومن جهة أخرى كيف تفرّق بين القوة، وبين التسامح، فتقدم على التسامح وأنت قائم على قوتك، وتلك قوة تضاف إلى قوتك، وتنثر عليها عبير الرحمة، فتكون قوياً وتكون رحوماً في الآن ذاته.

يُعنى التحليل الروائي بتحليل الكلمة القرآنية تحليلاً روائياً، بمعنى مدى ترابطها بالكلمات الواردة قبلها، والكلمات التي سترد بعدها، والكلمة القرآنية هنا هي مختلفة عن الكلمة غير القرآنية، لأن توظيفها في القرآن يُكسبها ويُغنيها بمعان واستدلالات لاتكون لها في توظيفها في غير القرآن، وهذا ما يجعلنا نكتشف أن اللغة العربية كم كانت فقيرة باكتشاف معانيها وغناها ومدلولاتها قبل أن يُشرّفها الله تعالى بحمل رسالة القرآن، ولعل هذا ما حض أهل النبوغ كي يفتحوا في هذا الحقل فتوحات جديدة ما كانت للغة العربية من قبل نزول القرآن الكريم، وهي الفتوحات اللغوية التي كمنت في المعاجم والقواميس اللغوية، ويُسجّل في ذلك للبخاري أنه أول مَن استخدم كلمة(معجم)، ثم بدأ استخدام كلمة المعجم في الكتاب المعجمي الأول المخصص

[١] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي

[٢] يُنظر النهاية ٣٢٨/١، ولسان العرب، مادة (ح ب ر)

[٣] أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب.

في علوم اللغة العربية (معجم مقاييس اللغة)[٤] ومـن القـرآن كانـت الانطلاقـة الـتي تكللـت بكـل تلك المعاجم والقواميس اللغوية، مثل: (العين)[٥] ، و(معجم ديوان الأدب)[٦] ، و(الزاهـر في معـاني كلمات الناس)[٧]، و(لسان العرب)[٨] ، و(المنتخب من غريب كلام العرب)[٩]، و (الكنـز اللغوي في اللسـان العربي)[١٠] ، و(البارع في اللغة)[١١] ، و(أساس البلاغة)[١٢]. وغير ذلـك مـن المنجـزات اللغويـة في صـميم لغة الضاد.

التحليل الروائي هنا يشتغل على خصائص البنيـة الروائيـة المتماسكة والمترابطـة مـع بعضـها البعض، سـواء في جـوهر العلاقـة بـين الكلمـة وصـنوّتها، أو بـين الآيـة وصـنوّتها، أو بـين السـورة وصـنوّتها، وعلـى هـذا النحـو يجلـو لنـا كيـف أن السـور القرآنيـة تتحـوّل إلى فصـول متناغمـة ومتداخلة مع نسيج بعضها البعض، ومسـتكملة الأركـان لبعضـها الـبعض، لتتشـكّل مـن هـذا كلـه عمارة البناء القرآني المجيد.

يُظهـر هـذا المـنهج العنصـر الروائـي في خطـاب القـرآن الـذي يتحـوّل إلى مجموعـة هائلـة مـن القصص التي يقصّها الله سبحانه وتعالى على رسوله، ويصفها بـ :﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾يوسف ٣، ولايعني ذلك أن :﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾هي قصص إيجابية فحسب، بل هي في مجملها مـزيج مـن قصص إيجابية، وقصص سلبية معاً، لكنهـا في وجهَيهـا ﴿الْقَصَصِ﴾الـ ﴿أَحْسَنَ﴾في اتخـاذ العِـبر منها، فهي الـ ﴿أَحْسَنَ﴾ صـلاحاً لاسـتنباط واسـتخراج هـذه العـبر منهـا، كـون مضـامينها هـي مضامين مفتوحة يمكن لها أن تقع في كـل زمـان ومكـان، أي أنهـا قابلـة لأن تتكـرر في مضـامينها

---

[٤] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا أبوالحسين تحقيق: عبدالسلام محمد هارون

[٥] لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ١٧٠هـ،تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. ابراهيم السامرائي،ج٨، دار ومكتبة الهلال.

[٦] لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي ٣٥٠هـ، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، ج٤، ١٤٢٤هـ، مؤسسةدار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة.

[٧] محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبوبكر الأنباري، ٣٢٨، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط١، ج٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢، بيروت

[٨] محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي ، ط٣، ج١٥ ، دار صادر، بيروت.

[٩] علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبو الحسن ٣٠٩ ه تحقيق: د. محمد بن أحمد العمري، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١ ، ١٤٠٩.

[١٠] ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، ٢٤٤ هـ تحقيق: أوغست هفنر، مكتبة المتنبي، القاهرة.

[١١] لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان، ٣٥٦هـ تحقيق: هشام الطعان، ط١، ج١ ، ١٩٧٥م، مكتبة النهضة، بغداد– دار الحضارة العربية، بيروت

[١٢] لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله ٥٣٨، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، ج٢، ٢٤١٩، دار الكتب العلمية، بيروت

وفق أشكال وألوان مختلفة لأنها تمس عمارة الحياة في كل زمان ومكان، فهي إذن أحسن العِبر الكامنة في ثنايا هذه القصص التي يمنّ الله تعالى على الإنسان بأنه يقصّها عليه.

أمام هذا الترابط التصاعدي بين هذه الكلمات، ثم هذه الآيات، ثم هذه السور، يتناول منهج التحليل الروائي مسألة العلاقة بين هذه الكلمات والآيات المتناثرة في عموم سور القرآن، ذلك أن السورة هي غير منفصلة عن الأخرى، كما الأمر بالنسبة للكلمة، والآية، فالسورة هنا هي فصل قرآني تابع، ومتبوع له.

ولعل التركيز في تناول شرح القرآن وفق منهج مركّز كهذا غير متاح، وإن كنا نجد شذرات منه في أمهات كتب التفسير، وفي بعض كتب التفسير اللاحقة.

إننا نلج عالم النساء في سورتهن المدنية، كما تقول عائشة رضي الله عنها وفق رواية البخاري:(وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده). وهي السورة الرابعة في الترتيب القرآني، وتقع في ١٧٦ آية، وقد نزلت بعد سورة الممتحنة.

نرى من خلال هذه السورة كيف أنهن ينتشرن في ثنايا آيات سور أخرى، كما أننا سنأتي إلى أحاديث نبوية، وإلى روايات للصحابة والتابعين، وإلى أسباب النزول، ونتخذ من ذلك معيناً ونحن نلج عالم النساء، لنعرف ما لانعرف عنهن، فكل ما عرفناه عن المرأة من خلال الخبرة والتجارب والثقافة العامة، سيكون في كفة ، وما سنعرفه في سورتهن، سيكون في كفة أخرى راجحة على تلك، فكل ذلك كان من منطلق خبرة بشرية، ومنظور بشري محض، بيد أننا هنا أمام خطاب الله المحض، أمام شرح الله المحض للمرأة. لذلك قيل بأن هذه السورة هي سورة النساء الكبرى ، موازاة مع سورة الطلاق التي قيل بأنها سورة النساء الصغرى.

ولعل ما يميّز هذه الإشراقات واللمعات المعرفية، أن الرجل وهو يتعرّف على المرأة، إنما يزيده ذلك معرفة بذاته وخصائصه أيضاً، كما أن المرأة ايضاً في هذه السورة تلج عالمها لتعرف عن خصائصها ما لم تكن تعرف، ومن خلال ذلك يمكنها أن تتعرف على الرجل أيضاً بما لم تكن تعرف لأن معرفة أحدهما للآخر هي معرفة لذاته، ومعرفة أحدهما لذاته هي معرفة للآخر، ويمكن قلب المعادلة أيضاً إلى أن أحدهما كلما جهل ذاته، جهل الآخر، وكلما جهل الآخر، جهل ذاته، فهنا تجد بأن السورة توطّد أواصر البنية المعرفية بينهما، ولله حكمة بأن جعل سورة تحمل اسم النساء، ولم يجعل سورة موازية تحمل اسم الرجال.

الباب الأول

لمعة اللقاء الأول بين الرجل والمرأة

﴿١﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾

مَن هي المرأة؟ وكيف تعرّف الرجل إليها، ما كان حال آدم عندما كان وحيداً، وما الذي كان يفعله عندما تم خلق المرأة منه، ثم كيف كانت نظرته الأولى إلى المرأة وهو يلقي إليها أول نظرة، هي تلقي إليه أول نظرة، وما كان شعورها وهي تتفاجأ بنفسها لأول مرة أمام الرجل، في عالم لا يوجد فيه غيرهما من الجنس البشري، كيف تلقى آدم هذه المفاجأة، ومَن الذي بادر أولاً بالكلام، وما هي أول كلمة قيلت، ثم ما هي أول كلمة قالها الطرف الآخر.

كيف بدأ كل طرف يكتشف الطرف الآخر، وكيف بدأت مشاعرهما تتفاعل لحظة لحظة حتى بلغا إلى مرحلة متطورة وقع التآلف بينهما في ذاك المكان الذي انفردا فيه وأسسا في أجوائه رائحة الجنس البشري، وهل حملت أول امرأة بشرية بأول إنسان نتيجة الجماع وهي في الجنة، وإن كان أول رجل وأول امرأة قد خلقا في الجنة، ثم أن أول عملية جماع ولقاح وقعت بينهما في الجنة، لماذا لم يدع الله نسلهما يتكاثر في الجنة، بل أنزلهما إلى الأرض حتى تحدث الولادة فيها.

تفتتح السورة بنداء الله سبحانه وتعالى للناس، و﴿يا﴾، هنا هي دعوة لليقظة والتنبيه، فعندما ترى شخصاً قد غفل، أو مال إلى خطر، تنادي به خاصة إذا كان هذا الشخص يهمك أمره، فالناس جميعاً دون استثناء هنا يحظون بعناية الله لأنهم جميعاً من خَلقه، ولذلك يوجههم بمناداته إلى صلاح أمرهم فهي علامة أولى من علامات عنايته ومحبته لخَلقه،

والإنسان يستخدم نداء الياء ابتداءً من المقرّبين إليه الذين يحبهم ويعنيه شأنهم، انظر إلى شيء من ذلك:

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ البقرة١٣٢

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾هود٤٢

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾يوسف٥

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾يوسف٨٧

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾لقمان١٣

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾لقمان١٦

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾لقمان١٧

وأحياناً ينادي الله شخصاً، أو أشخاصاً محددين مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾الأحزاب٢٨

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾الأحزاب٤٥

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾الأحزاب٥٠

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾الممتحنة١٢

﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾الأحزاب٣٠

﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾الأحزاب٣٢ .

وقد حظي الإنسان بنداء الله في هذه السورة ١٧ مرة، كل مرة تتمتع بمزايا وخصائص ليست للأخرى،

إن مبتدأ النداء هو دعوة للناس كي يتقوا ربهم، فإن اتقى الإنسان ربه، صلح شأنه، ثم أنه إن اتقى ربه، سيتلقى بقية النداءات ويتفاعل معها. فتقوى الله هي أساس للاستجابة لله في جميع أوامره، لأن نداء الله هنا هو بمثابة الأمر، وعدم الاستجابة له، وإن كان يلحق الضرر بالإنسان في دنياه، فإنه يُعرّضه لعقاب الله في الآخرة أيضاً، كون عدم الاستجابة هو المعصية بعينها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، وربكم يعني الذي يقوم بتربيتكم وإعالتكم في كل شيء، فأنتم تدينون له بتربيته لكم بعد أن خلقكم، ودون أن يربيكم الله فإنكم ستموتون جوعاً وبرداً وخوفاً، لأن لاأحد بمقدوره أن يمدّكم بمقومات الحياة إن أمسكها الله عنكم.

وقد اشتق الناس من هذه الكلمة لإطلاقها على الأب الذي يربي عياله، ليصبح ربّاً للبيت، وكل أب معيل لعياله هو رب بيته، فلم يقل: اتقوا الله. بل جاء الرب لبيان دلالات الحاجة القصوى إليه، وأنه هو مرجع الإنسان:﴿ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. فقد خلق أصلكم وهو آدم عليه السلام، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، خلق من آدم الفرد زوجاً، فبعد أن كان فرداً، حوّل الله بقدرته هذا الفرد من ذاته إلى زوج، وهي حواء التي ستصبح الأم الأولى للبشرية، كما أن آدم سيُصبح الأب الأول، فمِن هنا تبدأ رحلة البشرية، وهنا ندرك بأن كل رجل يحمل في جيناته شيئاً من نعومة الأنوثة مهما اتسم هذا الرجل بنزعة الشر والطغيان، كما أن المرأة تحمل في جيناتها شيئاً من خشونة الذكورة، مهما اتسمت بفيض النعومة. ولعل هذا يجعل من الإنسان ذكراً وأنثى قابلاً للتحوّلات الكبرى في سائر السلوكيات، وكذلك في المعتقدات، وهذا بذاته يجعله قابلاً لإشراقة التسامي بشكل مزدهر، كما يجعله قابلاً لظلمة الانحطاط بشكل مريع.

وهذا أمر بالغ الأهمية تظهره لنا هذه الآية الكريمة، وهو أن الإنسان يستطيع أن يمتلك مقدرة التحكم بأهوائه وميولاته ويوظفها توظيفاً إيجابياً، أي يجعلها تنقاد بإرادته، لأنه إن لم يفعل ذلك، سينقاد بإرادتها، فهو إما أن يقود نفسه، أو تقوده نفسه، وليس من حل وسط

بينهما، وليت الأمر يقف عند ذلك، فهذا يمتدّ إلى كينونة الشخص ذاته، فهو إن لم يقد زوجته، قادته زوجته، وإن لم يقد عائلته، قادته عائلته، لأن الشأن هنا هو تنازلي، كما أنه في الحالة الموازية، تصاعدي، والأمر هنا لايختلف كثيراً إذا أسقطنا كل ذلك على مركبة تقودها، فإن لم تقدها بمهارة، سوف تتولى هي قيادتك:﴿**وَبَثَّ**﴾الله تعالى﴿**مِنْهُمَا**﴾آدم وزوجه حواء﴿**رِجَالاً كَثِيراً**﴾على شاكلة أبيهم آدم﴿**وَنِسَاء**﴾على شاكلة أمهم حواء.

البث، هو الانتشار، وقد استخدمت الكلمة في عصرنا في بعض المنجز البشري الحديث فيُقال: البث ، بمعنى الانتشار، ويبث الخبر، أي ينشره، ويُقال: البث المباشر، أي الانتشار المباشر للحدث حال وقوعه.

هنا تضعنا الآية أمام خصائص الرجولة، وخصائص الأنوثة، فترينا أن أسبقية الخلق هي للرجل الذي خلقه الله من مادة مستقلة ليكون أصلاً لجنس بشري مستقل ومختلف عن بقية خلق الله، وهي علامة أولى من علامات قيادة الرجل للمرأة، وثم للعائلة، ثم أنها علامة أولى من علامات خشونة الرجل الذي خلقه الله من تراب، ثم خلق المرأة من ضلعه.

فقد رأى آدم نفسه وحيداً في عالم الجنة التي خلقه الله فيها، وفجأة بينما هو نائم فقد تمت عملية الاستئصال من ضلعه ليتشكل من ذلك كائن تفاجأ به أمامه عندما فتح عينيه.

فما الشعور الذي راوده حينذاك وهو يرى ما يرى، هل أحس بشيء من الأنس؟ لعل ذلك قد حدث، ولعل الرجل بصفة عامة قد ورث هذا الشعور الأولي عن أبيه وهو يرى امرأة، ولعل مرد هذا الأنس الذي دغدغ مشاعره هو أنه أحس بشيء من الألفة والمودة تجاه هذه الكائنة كونها قد استؤصِلت من لحمه ودمه، ولعله لو تفاجأ بذئب أمامه، ما كان له أن يبقى في هدوئه وطمأنينته، بيد أنه لبث في حالة هدوء وكأنه يخشى أن يغمض عينيه، فتتلاشى من أمام ناظرَيه وهو يستأنس بحضورها المباغت، وإن كان هذا للرجل فما حال هذه المرأة الأولى وهي ترى نفسها قبالة رجل؟!

لعلها في ذات اللحظات كانت تشارك الرجل ذات الشعور، وهي في دهشة من أمرها، فمَن هي، ومَن هو هذا الكائن الماثل أمامها، ورغم ذلك فإنها مطمئنة لاتبدو عليها علامة للفزع، كما لاتبدو عليه.

حينها يُبادر آدم متوددا إليها بقوله: ما أنتِ؟

تقول: امرأة

يقول: لِم خلقتِ؟

تقول: لتسكن إلي.

لتسكن إلي، لا لترتعب مني، أو لتنفر مني، وهذا السكن إلى المرأة ينتج عنه التكاثر البشري.

أخرج ابن عدي وابن عساكر عن النخعي قال :(لما خلق الله آدم وخلق له زوجه بعث إليه ملكا وأمره بالجماع ففعل ، فلما فرغ قالت له حواء : يا آدم هذا طيب زدنا منه).

تتحوّل المرأة إلى بيت للرجل ، ورجل دون زوجة لابيت له مهما ملك من مساكن عقارية، بيد أنه يشعر بأن له بيتاً عندما تكون له زوجة، حتى لو كان يعيش معها في خيمة معزولة، فهو عندما يخرج، يشعر بأنه ترك خلفه بيتاً لابدّ أن يعود إليه، ومعنى ذلك أن المرأة تقيم له بيتاً وهي تنجب، فيُنظر إليه أنه صاحب بيت حتى لو لم يكن بيتاً، في حين أن المجتمع لاينظر إلى العازب بأنه صاحب بيت حقيقي مهما ملك من بيوت.

والأمر الآخر، فإن الرجل حتى وهو لايملك بيتاً، يستمتع بنعمة السكن عندما يقعد أو ينام مع امرأته، في حين أن العازب لايستمتع بنعمة السكن مهما قعد ونام في بيوته. لذلك فإن الرجل ليس بوسعه الاستغناء عن المرأة، رغم ما ينشب بينهما من خلافات تبلغ أحياناً مراحل التصاعد، فتراه يعود إليها، لأنه دونها لايشعر بالسكن.

من الطرف الآخر، فإن المرأة سواء أكانت متزوّجة، أم عازبة فهي بذاتها تبقى سكناً، بيد أنها عندما تكون عازبة تكون سكناً غير مسكون، والسكن غير المسكون، هو سكن بارد لادفء، ولاحيوية فيه، لذا فهي تريد أن تكون سكناً مسكوناً، لاسكناً مهجوراً، وعلى هذا فترى المرأة ترتعب من شبح العنوسة، وكلما تقدّمت في العمر استبدّ بها هذا الشبح أكثر خاصة وهي تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، فإن ذلك يبث إليها إشارات قوية بالعنوسة على رأس كل سنة جديدة تلجها، وتبقى مهددة بالعنوسة حتى اليوم الذي تظفر فيه بمَن يسكنها، فهي والحال هذه تكون أكثر اضطراباً من الرجل في سنوات عزوبيتها، ذلك أن هناك سنوات ذهبية محددة بالنسبة إليها، تكون فيها مزدهرة، وقادرة على الاختيار، بيد أنها إن خطت تلك السنوات دون زواج، سينقلب الشأن عليها، فتضطر مرغمة للقبول بأي فرصة زواج كي تقي نفسها الاستسلام لشبح العنوسة،

السكن من السكينة، أي من الاستقرار، بالنسبة لكليهما، فهي تكون مستكينة، عندما تسكن به، وهي يصبح مستكيناً عندما يسكنها، إن حال المرأة هنا كحال البناء السكني الذي يبدأ

خطوة، خطوة، لبنة، لبنة، يوماً، يوماً، في التشكل حتى إذا اكتمل واستوى على كماله، حينها إن دخلتَ إليه وهو غير مسكون، ستراه بارداً فاقداً للحياة رغم كل الأبهة التي يستوي عليها، فلاتملك سوى أن تخرج منه لأنه لايحقق لك الأنس، وإن مررتَ بجانبه مرة أخرى، تتجنّب أن تدخله، لأنه غير مسكون، بل تشفق به وأنت تنظر إلى جماليته، واستوائه في تكامله، بيد أنك في ذات الوقت تشعر بخوائه، وبروده، وفقدانه لعنصر الحياة، ثم إن أردفت مسيرك، ورأيت خيمة مكتظة بالناس، ستشعر بأنها سكن ينضح بالحيوية أكثر من ذاك القصر الفارغ من رائحة الإنسان، ولذلك فإن الرجل المتزوّج هو رجل مستقرّ ومستكين عاطفياً، في حين أن الرجل الذي لازوجة له، يكون مضطرباً في عاطفته، وهذا يعكس اضطرابا على سائر ممارساته الحياتية، وهنا لعلي أذكر شيئاً مما اطلعتُ عليه في بعض أساطير الهند، يقول بأن الله تعالى: (في البدء خلق كل هذا العالم ومن ثم خلق الرجل، وبعد ذلك شاء أن يخلق كائنا بشريا غير الرجل، فأخذ من القمر مسامرته، ومن البحر عمقه، ومن الأمواج مدها وجزرها، ومن النجوم لمعانها، ومن الشمس حرارتها، ومن الندى قطراته، ومن الريح تقلباتها وثباتها، ومن النبات ارتجافه وارتعاشه، ومن الورد لونه وعطره، ومن الأزهار تجملها، ومن الأوراق خفها، ومن الأغصان تمايلها، ومن حفيف الأشجار حنينها وأنينها، ومن النسيم لطفه ورقته، ومن العسل شهده، ومن العلقم مرارته، ومن الذهب بريقه، ومن الماس قساوته، ومن الحية حكمتها، ومن الحرباء تلونها، ومن الغزال شروده، ومن المها عيونها، ومن الأرنب خجلها وحياؤها، ومن النمر شراسته، ومن الطاووس خيلاؤه وزهوه، ومن الثعلب مكره وروغانه، ومن العقرب لذعته، ومن الببغاء هذيانها وكثرة كلامها، ومن الزمان خيانته وغدره.

بعد ذلك جمع كل هذه الخواص وسكبها في بوتقة وخلق منها كائنا بشريا مختلفا عن الرجل أسماه

المرأة ومن ثم قدمه للرجل. بعد أسبوع من العلاقة بينهما جاء الرجل إلى الخالق شاكيا : يارب إن المرأة التي أعطيتني قد سممت حياتي ووجودي، إنها تتكلم بلا انقطاع، تبكي بلا سبب، إنها مستضعفة ونحيفة ومطالبة لاحد لها، إنها تستاء من أقل شيء، خذها وأرحني منها يارب.

وأخذ الله المرأة، وبعد أسبوع عاد الرجل إلى الخالق يقول: يارب إن حياتي بدون المرأة أشبه بالوحدة والانفراد، كل العالم الذي أعطيتني أشبه بمنفى لي، أنا تاعس من دون المرأة، إني

أتذكر كيف كانت تحبب لي الحياة، كيف كانت تبتسم فتجدد نشاطي، وتضحك فتبدد همومي، كيف كانت تداعبني، كيف كانت ترتمي بين ذراعي، كيف كانت تخفي آلامي وتعطي لذة لأحلامي، أرجعها إلي يارب. فأعاد الله المرأة للرجل وبعد ثلاثة أيام رجع الرجل إلى الخالق شاكيا: يارب انني لا أفهم نفسي، لكنني متأكد أن المرأة تزعجني أكثر مما تريحني وتسترني. فغضب الخالق وقال : خذ المرأة واذهب أيها الرجل ولاتعد إلي).

مهما كانت مستويات الخلاف بين الرجل والمرأة، فليس لأحدهما غنى عن الآخر، ومهما أخذ أحدهما من الآخر، فإنه يعطيه أكثر مما أخذ، ومهما اكتمل أحدهما، ونضج، فإنه لايستوي في كماله ونضجه إلا بالآخر، ولو لم تكن حاجة الرجل قصوى إلى المرأة، لما خلقها الله له، وكان يمكن أن يتسلسل ويتكاثر الجنس البشري من الرجل ذاته دون أن يتم الاستئصال لو شاء الله ذلك، ولكن لننظر إلى حجم برودة الحياة إذا خلت من تلك القوة البشرية الناعمة التي تحدث توازناً لتلك القوة البشرية الخشنة التي يمثلها الرجل، فهنا ندرك شيئاً عن مدى عظمة الله، ومدى حكمته في ذلك، ومدى محبته للإنسان، وهو يجعل له كل ألوان الغنى في حياته، في مأكله، في مشربه، في ملبسه، في مسكنه، في رفاهيته، في تعدد ألوان علاقاته الإنسانية.

وقد رُويت حول الآية روايات متعددة منها ما يروي الطبري:(حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾، قال: حواء، من قُصَيري آدم وهو نائم، فاستيقظ فقال: / أنا / بالنبطية، امرأة).

حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة:﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾، يعني حواء، خلقت من آدم، من ضِلَع من أضلاعه.

حدثني موسى بن هارون قال، أخبرنا عمرو بن حماد قال، حدثنا أسباط، عن السدي قال: أسكن آدمَ الجنة، فكان يمشي فيها وَحْشًا ليس له زوج يسكن إليها. فنام نومةً، فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ.

حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: ألقي على آدم صلى الله عليه وسلم السَّنة - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن عبدالله بن العباس وغيره- ثم أخذ ضِلَعًا من أضلاعه، من شِقّه الأيسر، ولأم مكانه، وآدم نائمٌ لم يهبَّ من نومته، حتى خلق الله تبارك وتعالى من ضِلَعه تلك زوجته حواء، فسوَّاها امرأة ليسكن إليها،

فلما كُشِفت عنه السِّنة وهبَّ من نومته، رآها إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون، والله أعلم- : لحمي ودمي وزوجتي! فسكن إليها)[١٣]

إن ذلك من شأنه أن يعرّف الرجل بخصائص المرأة، هذه الخصائص المختلفة عن خصائص الرجل، ولعل عدم مراعاة هذا الفارق هو الذي يتسبب في نشوب خلافات بين الرجل والمرأة، ذلك أن الرجل أحياناً يتعامل مع المرأة كما لو أنه يتعامل مع رجل، بل يطلب منها أموراً تفوق طاقتها، ولاتتوافق مع خصوصيتها، وهي أن تكون مثله، ناسياً بأنها لو استجابت له - وهي لاتستطيع أن تستجيب لأن طبيعتها لاتؤهلها لذلك - وأصبحت مثله، لن يكون بوسعها أن تكون امرأة، لأن ذلك سيُسقط عنها كل تلك المزايا التي تتمتع بها حتى تكتمل معالم أنوثتها، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء"

من هذا المنطلق أيضاً تستطيع أن تستوعب معنى أنها ناقصة عقل ودين، ونقص عقلها لايكون تقليلاً من شأنها، بل هو كما ل لمعالم أنوثتها، لأن كثير من التصرفات التي تبدر من المرأة، يعجب الرجل لها، لأنه يُقارنها بعقله الذي يتقدم عقل المرأة، ولذلك فإنه يرى بأن هذه التصرفات تنفعه، وهي تقبلها وتنسجم معها وفق بنيتها التي بُنيَت عليها، ولولا ذلك لما استمرت سكناً له، ولما صبرت على كثير من المواقف التي تبدر منه، ولما نهضت في ساعات الليل لترضع وليدها، فهي ناقصة عقل مقارنة بعقل الرجل، كما أنها ناقصة قوة مقارنة بقوة الرجل، كما أنها ناقصة دين مقارنة بكون الرجل، لايُعفى مما تعفى به المرأة من بعض الفرائض في أوقات محددة تخص الولادة، ونقصة قوامة بمقارنة مع قوامة الرجل عليها.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخُدْري قال:(خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عيد أضحى أو فِطْر إلى المُصلَّى، فمرَّ على النساء فقال: " يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تصَدَّقْنَ، فإنِّي أُرِيتكُن أكثرَ أهْلِ النَّار " فقلن : وبمَ يا رسول الله ؟ قال " تكْثِرْنَ اللَّعْن وتكْفُرْنَ العشير، ما رأيت من ناقصاتٍ عقلٍ ودينٍ أذْهبَ للُبِّ الرجل الحازم مِن إحداكن " قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال " أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل " ؟ قلن: بلى يا رسول الله، قال

[١٣] جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١ ، ١٤٢٠ هـ

" فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصُمْ " ؟ قلن: بلى يا رسـول الله، قـال " فذلك نقصان دينها"

إن هذه الآية تعلّمك كيف تكتشف المرأة على قاعدة حُسن الظـن، لأن التسـرّع في ردود الأفعـال تجاهها يُفاقم الخلاف بينكما، في حـين أن الصبر يـأتي بنتائجه الإيجابيـة، حيـث سيجلو لـك في الغـد مـا كـان خافيـاً عنـك بشـأنها، ولـذلك جعـل الله رجعـة للرجـل في حـال غَضَـبه وتسَـرّعه بالطلاق، وهذا بذاته من شأنه أن يجعلـك مـترددأ في أخـذ ذاك الموقـف السالب مـن امرأتـك، وأن تؤجّل ذلك ما أمكنك، لأن ما تعتقده قد لايكون لـه أصـل سـوى في وسوسـة الشـيطان لـك، مهمـا كانت درجات هذا الاعتقاد، ومهما بلغت حـدوده، فـانظر كيـف يعـزز رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم حُسن الظن تجاه المرأة عندما جاءه رجل أخبره بأنه بات على شك في امرأتـه وهـو يقـول: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود. فقال رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم: "هـل لـك مـن إبل" ؟ قال: نعم. قال:" مـا ألوانهـا "؟ قـال: حمـر. قـال: "هـل فيهـا مـن أورق" ؟ قـال : نعـم. قال:" فمن أين ذلك"؟ قال: لعـل عرقـاً نزعـه. فقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم:" وهـذا الغلام لعل عرقاً نزعه".

ثم أن المرأة لولا ما حباها الله تعالى مـن هـذه الخصـائص، أكـان بوسـعها أن تحتمـل وتصـطبر على مراحل الحمل، والحيض، وأن تتولى القيام بكل تلك الأعمال المنزلية، ومسـتلزمات الأطفـال، التي أحيانـاً يـرى الرجـل حرجـاً في القيـام بهـا، فهـو رغـم كـل ذلـك يريـد أن يُسقط عنهـا هـذه الخصائص، حتى تكون رجلاً مثله في بعض تصرفاتها، فيقع الصِدام بينهما، ولـذلك فـإن غالبيـة الخلافـات الزوجيـة يكـون أساسـها سـوء ظـن الرجـل، وأن الرجـل هـو الـذي يكـون مسـؤولاً عنهـا عندما يتدخّل في بعض ما حباها الله من هذه المزايا.

وإن كنا نرى هذا الجانب، فترينا الآية بالمقابل أن مرجع ذلك كله يعود إلى الأصـل، حيـث يبقـى الرجـل ينظـر إلى المـرأة بأنهـا جـزءاً منـه، واعتمـاداً علـى ذلـك يكـون دائـم الرغبـة في امتلاكهـا، والهيمنة الكاملة عليها، والتحكم بكل تصرّفاتها، حتى بطريقة ارتدائها للثياب، وبانتقاء الألفـاظ التي عليها أن تقولها، أو لاتقولها، وهذه محاولات لاسقاط شخصيتها عنهـا، فـترى المـرأة في بعـض المجتمعات المتشددة المائلة شطر الغلو، تعـيش حالـة مـن الفِصـام والإزدواجيـة، وكـل هـذا مبعثـه الرجل الذي يتعامل معها وفق بنية غير قرآنيـة، وغـير معرفيـة، وأحيانـاً غـير إنسـانية، كونهـا

تكون خارجة عن القِيَم والأعراف الإنسانية، فهو يضع تكهنات، واستناداً إلى هذه التكهنات المَرَضية يكون تعامله معها، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾البقرة ٢٣١

إن المرأة هي مفتاح البركة على الرجل، ومفتاح النور، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" النساء مصابيح البيوت". فكثير من الرجال، يذهب به الاعتقاد بأن هذه المرأة ما تزال جزءاً منه، ولذلك لايكتفي بمواقفه مع امرأته، أو أخواته، أو بناته، بل يريد أن يفرض مواقفه على كل امرأة، دون أن يُدرك بأن هذا الجزء قد انفصل عنه تماماً، كما أن ابنته التي هي من صلبه، قد انفصلت عنه تماماً وذهبت بحال سبيلها، وباتت ربة بيت، وزوجة وأماً، كما أن ابنه الذي أتى من صلبه قد انفصل عنه.

هذه الآية تعلّم الرجل كيف يَقتنع بضرورة أن تكون للمرأة شخصيتها المستقلة، فتخطئ وتتحمّل أعباء أخطائها، تخطئ وتتعلم من أخطائها، ولايذهب به الاعتقاد بأنه يحل له أن يخطئ ويتعلم من أخطائه، يُخطئ ويتحمّل نتيجة أخطائه، و يكون ذلك حكراً عليه فقط، دون أن يكون للمرأة من ذلك شيء.

إثر ذلك يعود نداء الله إلى الناس في خاتمة الآية لتذكر بأن رأس صلاح الإنسان هو تقوى الله، فيقول جل ثناؤه:﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وقد نابت الواو هنا عن الياء المحذوفة كونها ذُكرت في مستهل الآية، فيكون المعنى :﴿وَ﴾- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾- ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾، أي تستعينون به للحصول على حوائجكم كأن تقول لشخص: أسألك بالله في ذلك، ثم تذكّره برحمة الله عليه في أرحامه، فيستجيب لك لأنك سألته بالله، وبفضل الله عليه، كذلك فإن الأرحام تأتي للرجل من خلال المرأة، فهي التي تربّي الجنين في رحمها، وتقول العامة(بيت الرحم) ذلك أن الذي سيخرج من بيت رحم أمه، سيكون رحماً لأقربائه، كما أنهم سيكونون أرحاماً له، فهو سيكون الابن، وابن الابن، والأخ وابن الأخ، والعم وابن العم، والخال وابن الخال، وكذا ابن الأخت، وابن الخالة، وابن العمة، وكما أنه يُغني حياة كل أولئك بذلك وما يتفرع عنه، وما يتفرّع عن فروعه، فإنهم سيبادلونه هذا الغنى، وصلة الرحم عبادة يتقرّب بها الإنسان من ربه زلفى، كما أنها مدعاة للتحاب والتعاضد، فقال عزّ اسمه:﴿وَالأَرْحَامَ﴾وهذا تذكير من الله لعباده بنعمة ﴿الأَرْحَامَ﴾ التي تنبثق منها مشاعر الحميمية الاجتماعية، فيشعر الإنسان من خلال صلة الرحم بدفء قرابة الإنسان من بعضه البعض، وهو يتمتع بروح القرابة التي تجمعه بالآخرين، فهي عملية تكاملية متداخلة تتجاوز الفردية، فإن حرمت نفسك من التواصل مع أبويك، فلا

يكون لك الحق في حرمانهما من صلة رحمهما معك، وإن حرمت نفسك من رؤية أبنائك، فليس لك أن تحرمهم من رؤيتهم وزيارتهم لك، وكذا الأمر بالنسبة لسائر ذوي صلات الرحم منك.

على هذا النحو يشاء الله للإنسان أن يعيش حالة إنسانية اجتماعية حميمية مهذّبة في دفئها وتماسكها، وكل ذلك لم يكن ليحدث لولا أن فتح آدم عليه السلام عينيه بغتة، ورأى تلك الكائنة البديعة نصب عينيه.

فقد دعا الله الإنسان إلى تقواه في مستهل الآية لأنه قد خلقه ويقوم بتربيته، ثم في نهاية الآية لأنه يحقق له حوائجه في عاجل آمره، فيكون الله سبباً في استجابات الناس لبعضهم البعض عندما يتساءلون فيما بينهم به:﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾فلا يحسبن أحدُ أنه خارج عن رقابة الله، فإن الله معكم، ينظركم وأنتم تمارسون حياتكم، وهي رقابة إيجابية، لأن الله من خلالها يصلح لكم شأنكم، ويمدّكم بما تسألوه، يستجيب لدعواتكم ، فالرقابة هي قرب الله من الإنسان، وهذا في الوقت عينه دعوة للإنسان كي يخجل من الله في معاصيه، وفي ذلك يوصيك النبي في صحيح الحديث أن:" اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك".

الباب الثانــي
منزلة اليتيم

﴿٢﴾

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾

نتيجة كل تلك العلاقات التي تم ذكرها في الآية الأولى، تنفرز حالات مختلفة ومنها حالة اليتم، فهذا اليتيم الذي لا ولي له، فمَن الذي سيتولى رعايته، وبالتالي مَن الذي يحفظ له حقوقه، فكما تبيَّن بأننا في واقع إنساني اجتماعي يَتسم بالقِيَم والمبادئ الإنسانية، وحقوق الإنسان فيه محفوظة، سواء أكان صغيراً، أو كبيراً، سواء أكان رجلاً، أم امرأة، والله يرقب الناس في سلوكياتهم، وممارساتهم اليومية.

يأمر الله تعالى في الآية الثانية بأن يحفظ الناس لليتامى حقوقهم، وفي هذا حفاظ على تماسك البنية الاجتماعية، وجعل الناس يشعرون بالمسؤولية تجاه بعضهم البعض. قال مقاتل والكلبي: (نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع إليه ماله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإنه يحل داره" يعني جنته فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ثبت الأجر وبقي الوزر" فقالوا: يا رسول الله قد عرفنا أنه ثبت الأجر فكيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله فقال: "ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده"). ولعل الوزر بقي على الأب لأنه كان مشركاً.

وفي ذلك عبرة إصلاحية، فاليتيم عندما يكبر، ويرى أن أمواله محفوظة، سينبهه ذلك إلى أهمية الأمانة، فهو إن أؤتمن بعد ذلك، أوفى، لأنه قد أُوفي إليه ماله، بَيدَ أنه إن رأى الاستيلاء

على هذه الأمانة التي أودعها والده المتوفي عند مَن شاء مِن النـاس، أو أنها أصبحَت لديـه بحكـم علاقة القربى كما وقع في سبب نزول الآية، فـإن ذلـك مـن شـأنه أن يعطـي صـورة أوّليّـة سـلبيّة عن البُنية الاجتماعية التي يَعيش فيها، فهو يشعر في لحظة بأنه يَعـيش في غابـةٍ يسـتولي فيهـا القوي على الضعيف، وأن الناس ينهشون بعضهم بعضاً، فقـد دعـا الله إلى الأمانـة، وإعطـاء الحـق لأصحابه، وليس هذا فحسب بل: ﴿**وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**﴾. فإن تـرَك أرضاً طَيِّبة، لايجوز لك أن تستبدلها بأرضٍ دونها، وكذلك في بيـتٍ، كـأن تبيـع البيـت، ثـم بعـد سـنوات عنـدما يكـبر اليتيم ويُصبح مؤهّلاً لاستلام حقه، تشـتري لـه بيتـاً دون ذلـك، ومثلـه في سـائر الممتلكـات الـتي تركها له أبوه المتوفي، وجعلك الله أميناً على هذا الحق.

ويمكن للرجل أن يتحايل على اليتيم بطرق متعددة مثل أن يقوم الرجل ببيع ذهب ترَكه ولي اليتيم، فيبيع هذا الذهب بمبلغ من المال، ثم يجعـل هـذا المبلـغ في تجارتـه، أو في شـأنه، وعنـدما يكبر اليتيم بعد سنوات، يعطيه المبلغ الذي باع به الـذهب قبـل كـل تلـك السـنوات، وهـذا عمـل خبيث نظير الطيِّب الذي ترَكه لنفسه، لأن هذا المبلغ قـد لايسـاوي جـزءاً يسـيراً مـن حجـم ذاك الذهب، فالحق أن يعطيه ذات الحجم من الذهب، أوما يساويه بعملـة اليـوم الحاضـر، وهـذا أيضـاً يأتي على أنواع العقار، وسائر الممتلكات. فالخبيث هو الحرام الذي لايحل لك أكله عنوة وهو مـن حق غيرك، والطَيِّب هو الحلال الذي يحل لك أكله لأنه حقـك، فينهـاك الله أن تأكـل مـال اليتـيم الذي يُصبح بالنسبة لك خبيثـاً، وتـدع الطَيِّـب الـذي رزقـك بـه الله: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾البقـرة٦١ ،﴿**وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ**﴾البقرة١٠٨ .

فالخبث لايَكمن في المادّة، بل يكمن في طريقة الخبث في استخدامها، فهي ذاتها طَيِّبة لصاحبها، وبالمقابل، فإن الطَيِّب الذي هو حقك، فإنـه يَتحَوَّل إلى خبيـثٍ بالنسـبة لغـيرك، إذا سـطا عليـه، وهذا شبيه بعَمليَّة الجماع بين الرجل والمرأة، فللرجل أن يأتي امرأته، بَيدَ أن ذلك سـيتحوَّل إلى زنـا إن قـام بـذات الفعـل، وتكـون المـرأة فقـط هـي غـير زوجتـه. فالفاحِشـة لم تكمـن في عمليَّـة الجماع، بل في ممارستها بغير ما أحلّ الله، وحلال الله لايغيِّر شيئاً في العملية، بل تبقى هي ذاتها، وفي ذات الفراش، وفي ذات المكان، وبذات الطريقة، بَيدَ أنها هناك كانـت زنـا، واسـتوجبَت العِقـاب الذي قد يبلغ حدَّ التصفية في الدنيا، وغَضَب الله وعِقابه في الدنيا والآخرة، لكنها في العَين ذاتـه لاتكون مباحة لك فقط، بل أنك وأنت تجامعها، تكون لك عبادة، إذا أتيتها بكلمـة الله تعـالى، وفي

ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" وفي بضع أحدكم صدقة". قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال:"أرأيتم إن وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال، كان له بها أجر".

إنه اليتيم الذي لاحول له ولا قوة، ولا رشد، فينهى الله التجاوز على حقوقه، بل يدعو للإحسان إليه، فالعناية باليتيم حالة إنسانية من شأنها أن تسهم في تقوية أواصر بنية المجتمع الإنساني، لأن هذا اليتيم عندما يكبر، ويرى كل هذه الرعاية التي لقيها من قبل الآخرين، فإن ذلك يكون مدعاة له كي يكون نافعاً في الحياة ويرد على الإحسان بالإحسان:﴿**هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ**﴾الرحمن٦٠ .

قال السُدّي:(كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غَنم اليتيم، ويجعل فيها مكانها الشاة المهزولة، ويقول شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيِّد ويطرح مكانه الزّيْف، ويقول: درهم بدرهم).

ينبّه الله بعدم التجاوز على حق هذا اليتيم المغلوب على أمره، حتى يكبر ويشتدّ عوده، فيقول في نهاية الآية: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ وقد جاء الأكل ليكون أكثر قرباً للمعنى، ويجعل الذي تكون لديه نية الاستيلاء على مال اليتيم، يتردد، فقد امتزجت كلمة الأكل بالخبيث، أي مالهم الذي سيخبث عليكم إذا جعلتموه في ﴿**أَمْوَالِكُمْ**﴾، وهنا سيدخل الخبيث إلى مالكم الحلال أيضاً ويُخبثه، حيث سيختلط الطيب بالخبيث، ويتداخل الحلال في الحرام، ويُصبح بعضه من بعض، فينقلب جميعه عليكم﴿**إِنَّهُ**﴾هذا المال الذي تقتصر أحليته على مستحقه اليتيم الذي هو دون الرشد، ودون المقدرة والأهلية لاستلامه والتكيّف به، فهو أمانته عند الله، وقد أودع الله هذه الأمانة في عهدتكم، فلا تخونوا أمانة الله قبل أن تخونوا أمانة اليتيم، لأنها كانت له في عهدة الله، والله تبارك وتعالى قد وضعها في أياديكم للأمانة فحسب، ولاريب أن الذي يؤدّي الأمانة يؤجره الله ويثيبه عليها، كما أن الذي يسيء إليها، يلقى جزاء ذلك سوء العقاب، فذلك من فضل الله عليكم لأن هذه الأمانة تسببت في جلب رضى الله عليكم وأنتم تؤدّونها إلى الله الذي استلمتموها منه.

أمّا لو مالت نفسك بك إلى الطمع، وأنكرت الأمانة على الله، وامتنعت عن إعطائها لمستحقها وقد كبر وبات يطالبك بأمانته التي عهدها الله إليك، فإن الله يُنذرك بأن ذلك عند الله: ﴿**كَانَ حُوباً كَبِيراً**﴾وزراً عظيماً. يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " رَبِّ تقبَّلْ تَوْبَتي واغْسِلْ

حَوْبَتِي"[١٤] قال أبو عبيد: (حَوْبَتِي يَعْنِي الـمَأْثمَ، وتفْتح الحاء وتضَم، وهو من قوله عـز وجـل: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾. قال: وكل مَأْثمٍ حُوبٌ وحَوْبٌ، والواحدة حَوْبةٌ).

يُروى أن رجُلاً أتى النبيَّ، صلى اللّه عليه وسلم، فقال: إِني أتيتك لأُجاهِدَ مَعَكَ؛ فقـال: "أَلَكَ حَوْبةٌ"؟ قال: نعم. قال: "فَفِيها فجاهِدْ". قال أبو عبيد: يعني ما يَأْثمُ به إِنْ ضَيَّعه من حُرْمةٍ. وفي حديث أبي هريرة، رضي اللّه عنه، أنّ النبي، صلى اللّه عليـه وسـلم، قـال: "الرِّبـا سَبْعُونَ حَوباً، أيْسَرُها مِثلُ وُقُوعِ الرجُلِ على أُمِّهِ، وأرْبَى الرِّبا عِرْض الـمُسْلِمِ". قال شمر: قولـه سَبْعون حَوْباً، كأَنَّـه سبعون ضرباً من الإِثمِ.

وقيل: (فلان يَتحوَّب من كذا أي يتأَثَّم).

ويُروى أنه صلى اللّه عليه وسلم إِذا دَخَلَ إِلى أهْلِه قال: "توْباً توْباً، لا يُغادِرُ علَيْنا حَوْباً".

يقول ابن الفارس في معجم مقاييس اللغة: (الحاء والواو والباء أصلٌ واحـد يتشعّب إلى إثـم، أو حاجة أو مَسكَنة، وكلها متقاربة. فالحُوبُ والحَوْب: الإثم. قـال الله تعـالى:﴿إِنَّـهُ كَانَ حُوبـاً كَبِيراً﴾. والحَوْبة: ما يَأثم الإنسانُ في عقوقه، كالأمّ ونحوها.وفلان يتحوّب من كذا، أي يتأثم).

[١٤] من دعاء النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:" ربِّ أَعِنِي ولا تُعِنْ عليَّ وانصُرني ولا تنصُرْ عليَّ وامكُرْ لي ولا تمكُرْ عليَّ واهدِني ويَسِّرِ لي الهُدى وانصُـرني على من بغا عليَّ ربِّ اجعلْني لك شَكَّارًا لك ذَكَّارًا لك رهَّابًا لك مِطواعًا لك مُخبِتًا إليك أَوَّاهًا مُنيبًا ربِّ تقبَّلْ تَوْبتي واغسِلْ حَوبَتي وأَجِـبْ دَعْـوتي وثَبِّتْ حُجَّتي وسَدِّدْ لساني واهدِ قلبي واسلُلْ سَخيمةَ صدْري الراوي". سنن الترمذي٣٥٥١

الباب الثالث

طيّبات النســاء

﴿٣﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾

لايكتفي الله بضمان هذا الحق المالي لليتامى ذكوراً وإناثاً فحسب، بل تمتدّ عنايته تبارك وتعالى إلى مسألة الزواج أيضاً بالنسبة لليتامى الإناث، لتصبح اليتيمة أيضاً في عهدة الله، ويتولّى الله ولاية أمرها بموت والدها فيضمن لها حق الزواج مادياً ومعنوياً مثل غير اليتيم، وكما أن الله قد تعهّد بالمال، فإنه يتعهّد أيضاً بالفتاة اليتيمة حتى يزوّجها، وفي غياب الأب الذي عادة يوصي خطيب ابنته بها، فإن الله يتولى أمر تزويجها، وقد حدث ذلك عندما كان الرجل يريد أن يتزوَّج بيتيمةً، فلا يعطيها حقها من المهر الموازي لمهر غير اليتيمة مستغلاً موت الأب، والتصرّف بحقوقها وفق مشيئته، فأراد الله أن يوقف هؤلاء عن هذا التجاوز بحقهن، وأخبرهم بأنهن وإن كنَّ يتيمات الأب، فإنهن لسن يتيمات الرب، وأمَرَ الرجل أن يساويها بغيرها من حيث هذا الحق في الصِداق، كما لو أنها ليست يتيمة، وألاّ يتخذ من يتمها مطيّة للاعتداء على حقوقها المالية والمعنوية:﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا معشر الرجال وتسرّب إليكم شك بـ﴿**أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى**﴾وأنكم ستعاملونهن معاملة دونية، فلا تقدموا على الزواج منهن، فهذه اليتيمة قد يتسرَّب إليها ذات الشعور بأنها دون غيرها، وقد حال اليتم بينها وبين أن تكون كغيرها من نساء المسلمين، فقد وقاها الله حتى من هذا الشعور، وما ذلك إلاّ لأن الله تعالى قد جعلها يتيمة، وهو يكفل لها بحقوقها كسائر النساء، ثم أنه سوف تتجلى حكمة الله في هذا اليتم. من جهة موازية، فإن ذلك يجعل جميع الآباء والأمهات في طمأنينة إذا تيتم أبناؤهم، فتلك هي ضمانة الله لهم،

ومهما حَرصَ الأبوان على أبنائهما، فإن حِرصَ الله أعظم؛ ذلك لأن المخلوق هو أكثر قرباً لخالقه من أبوَيه، والخالق أكثر قرباً للمخلوق من أبوَيه، لأنه خالقه وخالقهما معاً، فهما سيدعان أطفالهما في عناية الله، وليس في عناية أحد دونه، فهذا يبيّن لنا أن وجود الله تعالى هو للإنسان، وليس عليه، وعدم وجوده هو عليه، وليس له، فمَن الذي يحرص على كل هذه الحقوق الإنسانية كما يحرص الله، ومَن يكون مؤهلاً للاتكال عليه في كل تلك الشؤون الكبيرة والصغيرة إن لم يكن الاتكال على الله، وها نحن نرى بأن الله يحذّر الإنسان من الإنسان ذاته، وليس من مخلوق آخر.

فـ ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ**﴾، يُظهر مدى عناية الله بالإنسان وعدم سماحه للإنسان أن يتجاوز على حق الإنسان، حتى في مسألة جرح الشعور بالنسبة لفتاة يتيمة تقبل على الحياة للتو، فيكفل لها شخصيتها الاعتبارية، وهو جل شأنه يتدخل بين الزوج وزوجته ليوقف الزوج عند حدّه إن هو تجاوز على هذه المرأة، وما ذلك لأنه استحل فرجها فقط بكلمة الله، هذه الكلمة التي بموجبها بات يتولى أمرها، ويفرض عليها ما قد لا يفرضه عليها أبوها، وهي ترضخ له استجابة لكلمة الله، وبها تمضي معه إلى بيته على ملأ من أهلها ومن الناس، بعز وشموخ، هذه الكلمة التي لاتعلوها كلمة أخرى، فبها يكون الرجل قوياً، وبها تكون المرأة قوية، وبها يتم إشادة عمارة بيتهما الجديد.

ولذلك يوجه النبي صلى الله عليه وسلم كلامه إلى عموم الرجال مذكراً إياهم:" أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً".

فإن كان بكم شكٌ في المقدرة على القسط والاعتدال بين اليتيمة وبين غيرها، أي تتعاملوا معها كما لو أنها غير يتيمة، فإن كان الغائب هو الأب، فإن الحاضر هو الرب الذي هو أهم من الأب، فلو بدر إليكم ريب ، دعوهن وشأنهن، ثم:﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**﴾وهذا لايعني أن أمر الله اقتصر على اليتيمات فحسب، ويجوز لكم مع غير اليتيمات ما لم يجز لكم معهن، فلو كان ذلك، لقلن: ما ذنبنا يارب. فقال الله:﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**﴾هناك كان:﴿**وَإِنْ**﴾ لأن الأمر كان في الابتداء، وهنا جاء: ﴿**فَإِنْ**﴾لتعتدل الجملة في استئنافها، ثم عادت ذات الكلمة لتحمل ذات المعنى: ﴿**خِفْتُمْ**﴾ويمكنك أن تفهمها: ظننتم، أو لم تكونوا واثقين من أنفسكم . لماذا؟ لأن الأمر لم يقع بعد، ووقوعه يقترن بمدى استعدادكم له، أو دون ذلك، فلو أراد شخص أن يدع ابنته أمانة في

بيتك، قد تقول له: أخاف بأنني لا أقدر على حمايتها. وكلمة أخاف، تحمل التردد وعدم الثقة بصون الأمانة، فإن كنتم مستعدين وواثقين:﴿**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**﴾فانظر هنا إلى:﴿**مَا طَابَ لَكُم**﴾إلى توجّه رباني يحذرك من عدم الزواج من امرأة لا تطيب لك، وكأنه يقول: لا تنكحوا ما لم تطب لكم من النساء، فإن قلت بأنك نكحت امرأة غير طيبة، لأنك لم تجد امرأة طيبة، لقال لك المعنى: بل أنك تسرّعت في شأنك، لأنه كلام يعني بالوجود، وليس بعدمه، فإن قال لك: ﴿**كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾البقرة٥٧ فهذا يعني وفرة الطيب من الطعام، إلى جانب وفرة نقيضه، فقال:﴿**مِّنَ النِّسَاء**﴾وهذا يعني أن الطيبات كثيرات، وأنت تختار منهن. ولعل ذلك هو السبب الأساس في عدم التوافق بين الزوجين، حيث يعقد الرجل على امرأة لا تطيب له وهو ينظر إليها، أو حتى يسمع عنها، فيغيض الطرف، ويمكنك أن تفهم الطيب في هذا المقام أحد أبواب المحبة، فكما يُقال في لغة أهل العشق بأنه أحبها منذ أول نظرة وقعت منه عليها، ولذلك أذن النبي صلى الله عليه وسلم للرجل أن ينظر إلى المرأة تلك النظرة الأولى قبل أن يعقد على زواجها، ثم أذن بالمقابل للمرأة، وبعد ذلك يسأل كل واحد نفسه عمّا فعّلته تلك النظرة الأولى، هل خفق قلبه، واستراحت نفسه للذي سيكون شريك رحلة الحياة، أم أن ذلك لم يُحرّك فيه ساكناً، فإن كان ذلك من الرجل، فهو يُخادع هذه المرأة، ويخرج عن أمر الله، لأنه تزوّج ممن لم تطب له، وممن لم يخفق قلبه لحبها، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب عائشة، ويعلن حبه الشديد لها، فكيف لرجل يمكنه أن يتناول طعاماً غير طيب، وإن احتمل وجبة، أو وجبتين، أو يوماً، أو يومين، فهل له أن يحتمل طعاماً غير طيب طوال حياته، وفي سائر الوجبات، ولذلك نهاه الله أن يتناول ما لم يطب من الطعام، حتى يستمتع بلذة نكهة ما رزقه الله به من ألوان أطايب الطعام، ولذائذ الشراب، فكيف له أن يعيش مع امرأة عمراً بطوله وعرضه، وقد قرر هذه المعصية الكبرى في الزواج ممن لم تطب له، لأن ذلك سيتدرّج في درجات اللا طيب حتى يبلغ ذروة مراحل القرف من مجرّد نظرة إليها، أو مجرّد سماع نبرة من صوتها، أو يستفزه مجرد سماع اسمها حتى لو كان الاسم لامرأة أخرى، ثم تكمن الطامة الكبرى عندما تنجب له أطفالاً، حينها يبدأ بدفع ثمن معصيته في عدم الاستجابة لأمر وتوجيه الله، وحينها سيكتشف عظمة الله الذي لم يكن يرد له أن يودي بنفسه إلى ما آلت إليه حاله، وقد يتسبب له ذلك مع الكِبر في بعض الأمراض كونه شخص غير مرتاح في بيته، وقد أفسدت المرأة عليه كل أركان حياته، فإن طلّقها، تشرد الأطفال، وإن أبقاها ما كان في سكينة

معها، حتى أنه يبدأ يهرب من البيت فقط كي لا يسمع لها نبرة صوت، فهذا الرجل قد أعرض عن أمر ربه أول الأمر حينما أمره أن ينكح امرأة تطيب له.

وعن بعض مرويات أسباب نزول هذه الآية، قال الحسن: (كان الرجل من أهل المدينة يكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجل مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يدخله غريبٌ فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص بها أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنـزل الله هذه الآية).

وقال عكرمة: (كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر فإذا صار معدما من مُؤنِ نسائه مالَ إلى مالِ يتيمه الذي في حجره فأنفقه، فقيل لهم: لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى، وهذه رواية طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما).

ويُروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله تعالى ﴿**وَإِن خِفتم ألّا تقسِطوا**﴾الآية. قالت: أنزلت هذه في الرجل يكون له اليتيمة وهو وليها ولها مال قال وليس لها أحد يخاصم دونها فلا ينكحها حباً لمالها ويضربها ويسيء صحبتها فقال الله تعالى﴿ **وَإِن خِفتم ألّا تقسِطوا في اليَتامى فانكِحوا ما طابَ لَكُم مِّنَ النِساءِ**﴾ يقول: ما أحللت لك ودع هذه). رواه مسلم عن أبي كريب عن أبي أسامة عن هشام.

وروى الأئمة واللفظ لمسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة في قول الله تعالى: ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾ قالت: (يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن).

وعلى كل حال، فإن الله يتجاوز، فقد أباح لك أن تتزوّج امرأة ثانية، وهي فرصة ثانية حتى لاتقع في ذات المصيدة، وهي مصيدة الشيطان، ثم أن الله الغني وحتى يجتبك من اليأس، وهبك فرصة ثالثة كي تجدد حياتك، وإن شئت فرصة رابعة دون أن يُلزمك بطلاق إحداهن حتى تبقى عائلتك متماسكة، وحتى يبقى الأولاد مع أمهم، وإن يسر لك الله، تجعل لهم بيتاً مستقلاً بهم، ولامرأتك الجديدة التي طابت لك بيتاً مستقلاً بعد كل تلك السنوات المريرة، ذلك أن حياة الإنسان ثمينة، والله يحرص أن تكون حياتك سوية، وطيبة، أكثر مما تحرص أنت، وهو أقرب منك إليك، فإن كنت ترى بأنك حريص على مصلحة فلذة كبدك وتريد له الخير أكثر مما

يريد هو لنفسه، وأنك تمنحه ما يمكن أن يُصلح له شأنه، فإن ذلك ليس إلاّ أقل من جزء من درجة، من درجات ما يكون الإنسان بالنسبة لله، كما لو أنك تقارن نطفة بمياه يم، فالله لايريد أن تصاب باليأس، أو أنك تقدم على الانتحار يأساً من واقع مرير جلبته أنت على نفسك، وعدم قراءتك للقرآن بشكل جيد يجعل وسوسة الشيطان هي الغالبة لتعزز لديك حالة القنوط واليأس فتقدم على الانتحار الذي ينهى عنه الله مهما تفاقمت عليك الشدائد، ولذلك لاتجد نبياً انتحر رغم كل ألوان الشدائد التي بلغت بهم، ولعل أحداً لم تبلغ بهم الشدائد كما بلغت بالأنبياء والرسل، ثم لم تجد أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتحر، ولم تجد أحداً من التابعين، من الراسخين في العلم، من أعمدة الفقه، من أهل الذكر، بل لم يبلغوا درجة القنوط التي تسبق مرحلة الانتحار، فكلما تراكمت عليهم الشدائد، زادتهم إيماناً، وعزماً، ومقربة من الله، وحكمة في الأمر، ونضجاً في الحياة.

فقد أباح لك الله تعالى أن تجدد حياتك بما أذن لك به، لكن ذلك لايكون على حساب ظلمك للمرأة، فإن راعى الله وضعك هذا، فعليك أن تتقيه في زوجاتك، وتراعيهن في رخصة الله هذه لك، وقد جعل الله في المرأة برحمته ما يجعلها تقبل منك ذلك وتتعايش وتنسجم معه، وأيضاً استجابة لأمر الله، لأن سلاحك الذي سوف تدافع به عن نفسك وحقك في هذه الزوجة الجديدة هو رخصة الله، فلا يحل لك أن تستغل هذه الرخصة التي تبرزها بثقة كي تستفز بها زوجتك السابقة، أو تأخذ من ذلك انتقاماً لها، بل عليك أن تحمد ربك، وتصلح من شأنك، وتحسن إلى الزوجة السابقة، بل وتسعى إلى إقناعها كي تكون راضية، فتحسن إليها وتهدي إليها، فقد رهن الله رخصته لك بالعدل، وتعهّد لها بالعدل منك، فإن لم تقدم على ذلك، فإنك تنكث بعهد الله، فأنت عندما تتزوج الثانية، تعاهد الله بأنك تعدل :﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾فقد عاهدت الله بأن لاخوف بك من اللاعدل، وأنك ستعدل، وعلى ذلك، منحك الله رخصته. فـ﴿**ذَلِكَ**﴾الزوجة الواحدة﴿**أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**﴾ كلمة ﴿**تَعُولُوا**﴾تحتمل أكثر من اتجاه في المعنى، فهي في مبناها ومعناها تشير إلى شيء من الإعالة، أي عندما يتزوّج الرجل أكثر من امرأة، فيكثر عليه العيال، ولايوجد لهم معيل سواه، فقد يشق ذلك عليه، ولايكون قادراً على الاعتدال سواء مع زوجاته، أو مع عياله منهن، فحذره الله مما يمكن أن يؤول إليه في إعالته لهم، فالواحدة مع ما تنجب لكم من أولاد، خير لكم من وضع

تعجيزي تقحمون أنفسكم فيه، وأنتم لستم بأهل له. وهذا ما قال به الإمام الشافعي بقوله: ﴿ألاَّ تعُولوا﴾ بمعنى: (ألا يكثر عيالكم)

يقول ابن القيم الجوزية: قال الشافعي: أن لا يكثر عيالكم. فدل على أن قلة العيال. أدنى. قيل: قد قال الشافعي ذلك، وخالف جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقالوا: معنى الآية: ذلك أدنى أن لا تجوروا ولا تميلوا. فإنه يقال: عال الرجل يعول عولا إذا مال وجار. ومنه: عول الفرائض. لأن سهامها زادت. ويقال: عال يعيل عيلة إذا احتاج.

ورأى الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة: العرب تقول عال يعول وأعال يعيل أي كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا، ولعله لغة.

والمفهوم الثاني الذي تشير إليه الكلمة في مبناها ومعناها، هو الجور، بمعنى فإن الاقتصار على الزوجة الواحدة وقاية لكم من الجور، وقد رأى ذلك العديد من أئمة الفقه والتفسير،

ويرى ابن العربي أن (عال تأتي لسبعة معان: الأوّل عال: مال. الثاني زاد. الثالث جار. الرابع افتقر الخامس أثقل، السادس قام بمؤونة العيال، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «وابدأ بمن تعول»، السابع عال: غلب، ومنه عيل صبري).

كما أن الجوهري يرى المعنى في:(تفاقمَ واشتدَّ) ويرى الأحمر: (عال، إذا أعجز). فيما يرى الهروي: (عال الرجل في الأرض، إذا ضرب فيها).

بيد أن الكلمة هنا قد تحتمل المعنيين معاً، فإن خفتم هذه، أو خفتم تلك، وليس بالضرورة أن يصطدم الرأيان مع بعضهما البعض، لأن الكلمة تحتمل هذه، وتحتمل تلك، وتحتمل غيرهما، مما يتجاوز التعريفات السبعة التي وضعها ابن العربي، والتعريفات الأخرى، لأن معناها يبقى مفتوحاً ومتاحاً لتغتني بما هو أكثر ضمن مفهوم سياق الآية بالنهي عن إلحاق الظلم بنفس الرجل المعيل، أو بما ينتج عن تلك الزيجات.

﴿٤﴾

﴿وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾

ثم ترى بأن الله جمع وساوى بين جميع النساء من مختلف المستويات، بين اليتيمة، وغير اليتيمة، بين ابنة ولي الأمر، وبين ابنة العائل ، فهن جميعاً يشتركن بأنهن نساء، فأمر جل جلاله الرجال أن يعطوا للنساء مهورهن، وهذا يشمل الخاطب الذي عليه أن يقدم لها مهرها، ثم يشمل ولي أمرها بألاّ يحكر هذا المهر لنفسه، لأن العادة تقضي أن يستلم ولي الأمر هذا المهر، وهو يكون أمانة في عهدته، كي يعطيه كاملاً إلى العروس دون أن يكون له حق أخذ شيء منه، ولا يكتفي الأمر هنا فحسب، بل أن الله تعالى كفل لها حقها المالي في المرحلة اللاحقة أيضاً حينما تزف إلى بيت زوجها، ومعها هذا المهر الذي دفعه لها زوجها، وقد أعادته معها سواء نقداً، أو عيناً، بمعنى لايحق للزوج أن يتصرّف حتى بقطعة قماش، أو بإبرة مما أتت، وإن فعل ذلك، فهو اعتداء على ممتلكات الغير، أي هو سرقة، أو نهب، أو أخذ بالقوة سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لأن الرجل يستطيع أن يسيء معاملته لها إن امتنعت عن إعطائه، فهو يخيّرها بين أن تعطيه مالها مكرهة، أو تحتمل منه سوء المعاملة حتى ترضخ في النهاية لمطلبه وتتقي سوء هذه المعاملة التي قد تتطور وتودي بها إلى خراب بيتها نتيجة المشاحنات بينها وبين زوجها بسبب هذا المال الذي يكون قد وضعه نصب عينيه بغية الاستيلاء عليه بتلك الطريقة من التحايل، فقد يكون هذا الرجل هو الزوج، وقد يكون هو الأب، أو الأخ، أو ما إلى ذلك. فإن كان هذا الرجل يجد هذه الطريقة للاستقواء على المرأة التي لاحول لها ولا قوة إلاّ بربها، فإن ربها ورب العالمين يحذر هذا الرجل من مغبة هذا الابتزاز للمرأة مستغلاً ضعفها، وكما أنها ضعيفة أمامه، فهو مهما بلغ من جبروت، ضعيف أمام قوة الله، فيقول الله للرجال جميعاً: ﴿**وَآتُوا النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾ويمكنك أن تفهم: ﴿**نِحْلَةً**﴾بمعنى سواء شئت أم أبيت، أي سواء أعطيتها حقها دون أن ترغب بأخذ شيء منه، أوكان بك شيء من الطمع فيه، فعلى الوجهين، اعطها حقها، لأن ذلك من الحدود التي وضعها الله ولايحق لك أن تتجاوزه.

رأى ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد بأن النحلة هي : (فريضةً من الله تعالى)، فيما يقول الكلبي: (نحلةً أي هِبةً وعطيةً من الله وتفضّلاً منه عليهن) ويقول أبو عبيدة: (ولا تكون النحلة إلا مسماة معلومة) ، و يرى الزجاج بأنها: (تديُناً) .

ورأى البعض أن ذلك يدخل في باب الشغار، وهو أن يعطي رجل أخته لرجل، ويعطيه ذاك أيضاً أخته، في عملية تبادلية دون أن يكون للمرأة مهرها التام نتيجة ذلك، وقد نهى النبي صلى

الله عليه وسلم عن الشغار، وروي عنه أنه قال:" أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج " .

يقول ابن منظور في لسان العرب : (ونَحْل المرأةِ: مَهْرُها، والاسم النِّحْلة، تقول: أعطيتها مهرَها نِحْلة، بالكسر، إِذا لم ترِد منها عِوَضاً،وقيل: نِحْلةً أي دِيناً وتدَيُّناً، وقيل: أَراد هِبةً، وقال بعضهم: هي نِحْلة من الله لهنَّ أَن جعل على الرجل الصَّداق ولم يجعل على المرأة شيئاً من الغُرْم، فتلك نِحْلة من الله للنِّساء)

ثم أن الله تعالى ترك حرية التصرف من حق المرأة، فتكون حرة بما تملك، دون أن يقيّدها بطرق محددة في التصرف بما تملك، وقد ساواها في ذلك بالرجل، حيث يمكن لها أن تهدي، أو تهب مَن تشاء مما تملك دون أن يكون لأحد حق الاعتراض على ذلك: ﴿ **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً**﴾عندما تطيب المرأة برغبة منها، فيدخل ذلك في باب الفضل منها، فهي تتنازل عن حقها هذا للرجل فضلاً منها عليه، كأن تقوم بتأثيث البيت، أو شراء بعض الحاجات المنزلية من مهرها، لأن ذلك كله لايقع على عاتقها، بل على عاتق الرجل الذي جعله الله قواماً على المرأة ومنفقاً عليها، ومقدماً احتياجاتها الحياتية اليومية مادام قد تزوجها وعاهدها على الاعالة، فذلك ليس حق الرجل، بل هو فضل من المرأة، وقد جاءت كلمة بالغة التعبير عن ذلك وهي الطيب، فلم يقل: رغبن، أو تنازلن، بل: ﴿**طِبْنَ**﴾وللكلمة إيقاعها ووقعها على الرجل أكثر مما للكلمتين التاليتين، ثم أن فضلها هذا من شأنه أن تطيّب العلاقة أكثر بينها وبين الرجل، سواء أكان الزوج، أم الأب، أم الأخ، أم ما دون ذلك، ولكي لاتنحصر في الذكورة فحسب، ويجعل ذلك حصراً على الرجال، بل تشمل الأنوثة أيضاً، فيمكنها أن تعطي أمها، أو أختها، أو حماتها، أو ما تشاء فـ﴿**لَكُمْ**﴾نساء ورجالاً وسواء أكان ذلك من أصل المهر، أو من استثماره، أو مما يصلها بحكم الوراثة، أو العمل ، فإن الله ينهى الرجل من التدخل التعسفي في شؤونها المالية، فإذن، عندما تستولي على مال هذه المرأة سواء سراً أو علناً، فإنك لاتأكله ولا تنفقه هنيئاً مريئاً، لأنه إما سرقة، وإما استيلاء بالقوة، فالطيب هنا ينقلب خبيثاً كما الحال في الآية الثانية: ﴿**وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**﴾فطيبها هنا يضفي طيباً على عطائها عن طيب لك، فيقول لك الله: ﴿**فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً**﴾فكما هو طيب بالنسبة لها لأنه حلالها، فهو أيضاً يمسي طيباً لك لأنها قدّمته إليك عن طيب، فقد أصبح هذا المال حلالاً لك، وليس هذا فحسب، بل باركه الله لك بأن جعله ﴿**هَنِيئاً مَّرِيئاً**﴾،وهذا يعني بأنك ستستمتع بإنفاقه، وتجد

فيه الخير والبركة، فإن ابتعتَ لبساً ، فرحتَ بارتدائه، وإن ابتعتَ طعاماً، أكلته بطيب، وإن اشتريت حاجة، لقيتَ منها الخير لأن أصل المال هو مبارك من الله تعالى، فالمريء هو العاقبة التي تمتد من الدنيا إلى الآخرة، وقد نزلت الآية رداً على الذين كرهوا ذلك، ولعلهم انتقدوا الذين قَبلوا ذلك، وهذا الموقف بذاته انتقاص من شأن المرأة، وكأن هؤلاء يجدون نقيصة عندما يتلقون فضلاً من المرأة، فرفع الله من شأنها، وأضفى إلى ذلك بركة وخصوصية، فلم يكن ذلك بالنسبة للابن وهو يعطي لأبيه، أو لأخيه، أو أمه، لأنه ليس فضلاً، بل حقاً وواجباً، في حين أن المرأة عندما تعطي، لأي شخص مهما كان قريباً أو بعيداً عنها، فهي تتفضل وتتبرع بذلك عن طَوع، والقبول منها يعني نزع هذا الاستكبار والاستعلاء عليها من قِبل الرجل، فهي إذن حالة من المسؤولية جعلها الله للمرأة في شراكة بناء عمارة العائلة . وهذا عكس المال الحرام الذي يُصبح خبيثاً عليك، فإن اشتريت به لبساً، لاتهنأ بارتدائه، لأنك ستكتشف فيه عيباً، وإن تناولت به طعاماً، لن يكون طيباً لأن الخبث يُفقده نكهته بالنسبة إليك، وعلى هذا النحو سوف تتعسر كل شؤونك وأنت تعيش بهذا المال المنزوع منه البركة، كونك سلبته من صاحبه دون وجه حق، فكل درهم فيه يحمل ناراً في بيتك، وفي عملك، وفي جيبك، ثم أنه في نهاية الأمر سيودي بك إلى الحريق، لأن الحلال قد يضيع، بيد أن الحرام لايكتفي بذلك، بل يضيّع معه حامله أيضاً، فكما أنك تجد التوفيق في ذاك، فإن اللا توفيق يكون لك بالمرصاد في هذا. وقيل في الهنيء والمريء، أن الهنيء :(يلذه الآكِلُ، والمريءُ ما يُحمد عاقبته، وقيل: ما ينساغ في مجراه هو المريء، وهو ما بين الحلقوم إلى فم المعدة، سُمِّي بذلك لمروء الطعام فيه، أي انسياغه).

الباب الرابـع
تدبّر المال

﴿٥﴾

﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾

تستمر السورة في بَيان جوهر العلاقة بين الإنسان والمال، وهي تدخل الإنسان إلى تفرّعات ما يمكن له أن ينجم عن هذه العلاقة، والله هنا يهذّب للإنسان هذه العلاقة بينه وبين المال، ويقيه ما يمكن له أن ينزلق إليه نتيجة الطمَع، والآية هنا مفتوحة، لأن كلمة ﴿السُّفَهَاء﴾لم تحدّد أشخاصاً بعينهم من السفهاء، ولذلك فهي تحتمل أن تكون قاصدة السفهاء - جمع سفيه - بصورة عامة دون استثناء، ويدخل في ذلك أيضاً السفهاء من المقرَّبين، ثم تأتي الكلمة إلى حقوق الغير المودعة لديك لأننا نبقى ضمن سياق السورة في إعطاء اليتيم حقه عندما يكبر، وكذلك إعطاء المرأة صِداقها، بَيدَ أن الإنسان هنا قد يواجه مشكلة أن هذا اليتيم عندما كبر تبيَّن بأنه مجنون، أو سفيه، فما العمل؟ لذلك فإن السورة تغطّي كل هذه التفرّعات الناجمة سواء أكانت كبيرة، أم صغيرة.

يرى ابن عباس أن المقصد:(لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في رزقهم ومؤنتهم). في حين يرى الكلبي:(إذا علم الرجل أنّ امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد فلا ينبغي أن يسلط واحدًا منهما على ماله فيفسده).

يقول الطبري: (حدثنا محمد بن المثنى قال، حدثنا محمد بن جعفر قال، حدثنا شعبة، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري أنه قال: ثلاثة يدعون الله فلا

يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلّقها، ورجل أعطى ماله سفيهًا وقد قال الله: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه)[١٥] .

تشير الآية إلى المسؤولية بين القائم بالمال وبين مَن له حق في هذا المال، وهذا يدل أول ما يدل على الولد والزوجة، لأن الرجل هو رب البيت، وتقع على عاتقه مسؤولية الإنفاق على مَن يعول، فهنا يتبيَّن الإرشاد بأهمية بقاء المال في يد الرجل، لأن ذلك يضمن له قوامته المادية والمعنوية، والولد عندما يكبر، يتزوّج وتكون له حياته الاقتصادية المستقلة، ولاينبغي له أن يتكل على أبيه، لأن ذلك يُفقده قوامته في عين زوجته، وأولاده، وأقربائه، فهو معيل وبذات الوقت عالة، كذلك الأمر بالنسبة للابنة التي ستتزوّج ويكون لها معاشها الاقتصادي المستقل، وقد بَيَّنَت السورة أن الخطوة الأولى في هذه الاستقلالية تبدأ بملكيتها الخاصة في المهر، ثم ملكيتها الخاصة في الوراثة دون أن تلتزم بالإنفاق على زوجها أو أبنائها، لأن ذلك من مسؤولية الأب، فإن أعطَت عن طِيب، فذلك من باب الفضل ، بينما ذلك لا يكون للرجل، لأنه يتوجّب عليه أن ينفق على مَن يعول .

يقول القرطبي: (اختلف العلماء في أفعال السفيه قبل الحجر عليه، فقال مالك وجميع أصحابه غير ابن القاسم: إن فعل السفيه وأمره كله جائز حتى يضرب الإمام على يده. وهو قول الشافعي وأبي يوسف. وقال ابن القاسم: أفعال غير جائزة وإن لم يضرب عليه الإمام. وقال أصبغ: إن كان ظاهر السفه فأفعاله مردودة، وإن كان غير ظاهر السفه فلا ترد أفعاله حتى يحجر عليه الإمام. واحتج سحنون لقول مالك بأن قال: لو كانت أفعال السفيه مردودة قبل الحجر ما أحتاج السلطان أن يحجر على أحد. وحجة ابن القاسم ما رواه البخاري من حديث جابر أن رجلا أعتق عبدا ليس له مال غيره فرده النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن حجر عليه قبل ذلك.

واختلفوا في الحجر على الكبير؛ فقال مالك وجمهور الفقهاء: يحجر عليه. وقال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ عاقلا إلا أن يكون مفسدا لماله؛ فإذا كان كذلك منع من تسليم المال إليه حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة، فإذا بلغها سلم إليه بكل حال، سواء كان مفسدا أو غير مفسد؛ لأنه يحبل منه لاثنتي عشرة سنة، ثم يولد له لستة أشهر فيصير جدا وأبا، وأنا أستحي أن

[١٥] جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤٢٠ هـ

أحجر على من يصلح أن يكون جدا. وقد روى الدارقطني: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الصواف أخبرنا حامد بن شعيب أخبرنا شريح بن يونس أخبرنا يعقوب بن إبراهيم - هو أبو يوسف القاضي - أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه أن عبدالله بن جعفر أتى الزبير فقال: إني اشتريت بيع كذا وكذا، وإن عليا يريد أن يأتي أمير المؤمنين فيسأله أن يحجر علي فيه. فقال الزبير: أنا شريكك في البيع. فأتى علي عثمان فقال: إن ابن جعفر اشترى بيع كذا وكذا فاحجر عليه. فقال الزبير: فأنا شريكه في البيع. فقال عثمان: كيف أحجر على رجل في بيع شريكه فيه الزبير؟ قال يعقوب: أنا آخذ بالحجر وأراه، وأحجر وأبطل بيع المحجور عليه وشراءه، وإذا اشترى أو باع قبل الحجر أجزت بيعه)[١٦] .

نرى في الآية التوجه نحو الحرص على المال، ليس الحرص على مالك الشخصي فحسب، بل الحرص أيضاً على مال الآخر الذي هو وديعة لديك، فلا تعطيه هذا المال جملة واحدة إذا تبيَّن بأنه سَفيه، لأنه قد يلحق به الضرر بنفسه، وبالآخرين، فتنفق عليه من ماله وفق متطلبات حاجته، وهذا يشمل حتى مهر المرأة إن كانت سَفيهة، أو مَجنونة، أو غير مدركة لِما تفعل، فلا يُعطى لها مهرُها جملة واحدة، لأنها لاتحسن استخدامه، وفي ذلك كله لا تتمتَّن، لأنك مؤتمَن، والمنّة لله بأن أكرمك بهذا الفضل ليجزيك به خيراً، ولا تفه بقول قد يحمل جرحاً لهؤلاء، أو قد يسيء إليهم في نظر الآخرين، فعليك أن ترفع من شأنهم وأنت تسمع قول ربك:﴿**وَقُولُواْ لَهُمْ**﴾للسُفَهاء ﴿ **قَوْلاً مَّعْرُوفاً**﴾قولاً طيباً ولياً دون أن يتم توبيخهم أو الحط من شأنهم، فإذا طلب السَفيه ماله، يمكن أن تمتنع عن ذلك بشيء من اللطف وتطييب النفس، وألا تزجره بكلام فض، سواء في حضوره، أو في غيابه، فلا تحدّث الآخرين عنه سوى بمعروف القول.

﴿٦﴾

﴿**وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً**﴾

[١٦] الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لمؤلفه: محمد بن أحمد بن أبي بكر، بن فرج الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي، المالكي أبو عبد الله، ٦٧١هـ

﴿وَابْتَلُواْ﴾أيها الأوصياء ﴿ الْيَتَامَى﴾أي اختبروهم لتتحققوا من أهليتهم في التصرف بما آل إليهم وراثة، مثل أن يعطيه شيئاً من المال، ويرى كيف يتصرف به، وكذا الأمر بالنسبة للفتاة اليتيمة، ثم يرى الوصي فيما يرى بعد إجراء هذا الاختبار الذي يكون: ﴿حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ﴾وبلوغ النكاح علامة من علامات الاستقلالية والمسؤولية، لأن النكاح هو خطوة لِما هو أبعد، وهذا يكون مع الحلم بقوله عز وجل: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ النور٥٩ . وهذه إشارة بأن وقت إعادة المال لمستحقه قد حان. يقول مالك، وأبو حنيفة: (لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضي سبع عشرة سنة، وهذه العلامات تعم الذكر، والأنثى، وتختص الأنثى بالحبل، والحيض). بعد هذا الاختبار يشترط الله عليكم أيها الأوصياء بقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً﴾تحققتم من رشدهم بعد إجراء الاختبار تلو الاختبار، يقول ابن الفارس في معجم مقاييس اللغة، باب أنس: (الهمزة والنون والسين أصلٌ واحد، وهو ظهورُ الشيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقة التوحُّش. قالوا: الإنْس خلاف الجنّ، وسُمُّوا لظهورهم. يقال آنسْتُ الشيء إذا رأيته. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً﴾ويقال: آنَسْتُ الشيءَ إذا سمعته).

ويقول الحسن بن محمد الصغاني في كتابه العباب الزاخرواللباب الفاخر: (وآنَسْته: أبصَرته، والإيناس: الرؤية، والعِلم، والإحساس بالشيء.

وآنَسْتُ الصوت: سمعته)[١٧]

عند تحققكم من رشدهم:﴿فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾اعطوا هذه الوصية التي جعلها الله أمانة في حوزتكم إلى أصحابها، لأنه الآن قد آن الأوان، فلا تتأخروا، ولا تؤجّلوا، ذلك أن البعض كان يتعمّد الاطالة في إبقاء مال اليتيم عنده أطول فترة ممكنة رغم بلوغ الأجل، حتى ينتفع به، فجاء أمر الله حازماً:﴿فَادْفَعُواْ﴾.

يقول أبو حنيفة:(لا يحجر على الحرّ البالغ، وإن كان أفسق الناس، وأشدهم تبذيراً).

وعن سعيد بن جبير، والشعبي: (إنه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده، وإن كان شيخاً). وعن الضحاك: (وإن بلغ مائة سنة).

﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا﴾لاتعتدوا على هذه الوديعة التي أودعها الله لديكم﴿ إِسْرَافاً ﴾ تجاوزاً على حدّ الله، فالمسرف هو الذي يتجاوز من حاجته إلى الزيادة والإفراط ، فهو هنا لايكتفي بماله الحلال،

[١٧] العباب الزاخر واللباب الفاخر، الحسن بن محمد الصغاني

بل يمدّ يده إلى مال اليتيم، وذلك اعتداء وتجاوز وإفراط، والإسراف في تناول الطعام يكون لشخص عينه جائعة، وبطنه ممتلئ :﴿**كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾الأنعام١٤١ كذلك: ﴿**وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾الأعراف٣١

فلا تأكلوا مال اليتيم بطراً: ﴿**وَبِدَاراً**﴾تعجلاً قبل﴿**أَن يَكْبَرُواْ**﴾ لأنهم عندما يكبروا سوف يمنعونكم من أكل أموالهم، أمّا وهم صغار، فلايجسرون على ذلك، وأنتم تستغلون ضعفهم هذا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الله في الضعيفين، اليتيم والمرأة "

يقول ابن منظور في باب بدر: (وبادَرَ الشيءَ مبادَرَةً وبداراً وابْتَدَرَهُ وبَدَرَ غيرَه إِليه يَبْدُرُه: عاجَلَهُ؛ وقول أَبي المُثلَّم: فيَبْدُرُها شَرائِعَها فيَرْمي مَقاتِلَها، فيَسْقِيها الرُّؤامَا أَراد إِلى شرائعها فحذف وأوصل.وبادَرَهُ إِليه: كَبَدَرَهُ.وبَدَرَني الأَمرُ وبَدَرَ إِليَّ: عَجِلَ إِليَّ واستبق.

واسْتَبَقْنا البَدَرَى أَي مُبادِرِينَ.وأَبْدَرَ الوصيُّ في مال اليتيم: بمعنى بادَرَ وبَدَرَ).

﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾

أمام ذلك، قد تحدث استثناءات، وعلى الأغلب نرى بأن الله في أوامره يدع فسحة للاستثناء الطارئ الذي قد يقع، وهذا الإستثناء الطارئ يُجيز للإنسان ألاّ يؤدي الأمر، بل يؤدي نقيضه، وفي ذلك يُقال : (الضرورات تبيح المحظورات)، فيمكن لك أن تأكل ما حرّم الله من طعام وشراب إذا اضطررتَ إليه، إذا كانت هذه اللقمة، أو هذه الشربة ستنقذ حياتك من الموت، لأن النهي بذاته قد جاء حفاظاً على سلامتك، فإن كانت السلامة في تجاوز أمر الله، فإن الله قد وجد لك مخرجاً، فتقوم بذلك بشكل استثنائي، ليس مخالفاً أمر الله، بل مستجيباً لأمره في هذه الرخصة المستثناة. في التنزيل : ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾البقرة١٧٣ كذلك: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾المائدة٣ كذلك ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾الأنعام١٤٥

ففي هذه الرخصة إنقاذ للحياة، لأنك دون هذه الرخصة ستودي بنفسك إلى التهلكة، فجاءت الرخصة في مال اليتيم أيضاً، فلنفرض أنك تعرضت لمرض، أو أحد عيالك، ولاتملك قيمة دواء، وذهبت لتستقرض، ولم يعطك أحد، ولديك مال اليتيم، فهل ستستعين به للدواء، أو تهلك دون

أن تستعين بـه، وكـذا الأمـر بالنسبة لضرورات طارئـة أخـرى، فـترى اليسـر في الـدين، ولاتـرى العسر، فقال لك الله:

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾الغني هو الذي يكون في غنى عن طلب الحاجـة، فقـد أغنـاه الله عن السؤال، بـل أنعـم عليـه بـأن يُسأل فيعطي، وكمـا قيـل:(من نِعـم الله عليـك، حاجـة النـاس إليك). ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾الغني بما أغناه الله، لأنه إن مـدّ يـده إلى مـال اليتـيم، أصـبح مسـرفاً، لأنـه أخذ شيئاً لايحتاجه، وهذا الشيء زيادة عمّا كفاه الله، وفي الوجـه المـوازي، تـرى الرخصـة بقولـه: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾تلك هي الرخصة المستثناة المقترنة بالحاجة القصوى الـتي كمنت في الفقر، والفقـر هـو العـدم، أن تكـون فقـيراً، أي أن تكـون معـدوماً، فيسّـر لـك الشـارع أن تأكل بالمعروف.

أخرج البخاري، وغيره، عن عائشة قالت:(أنزلت هذه الآية في وليّ اليتـيم: ﴿وَمَـن كَـانَ غَنِيّـاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف﴾ بقدر قيامه عليه).

وأخرج عبد بن حميد، والبيهقي، عن ابن عبـاس قـال:(إن كـان فقـيراً أخـذ مـن فضـل اللـبن، وأخذ من فضل القوت، ولا يجاوزه، وما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاه، وإن أعسر، فهـو في حــــــــــــــــــــــــــــــــــــــل).

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وسـعيد بـن منصـور، وابـن أبـي شـيبة، وعبـد بـن حميـد، وابـن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه من طرق عن عمر بن الخطاب قـال:(إنـي أنزلـت نفسـي من مال الله منزلة وليّ اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت أخـذت منـه بـالمعروف، فـإذا أيسرت قضيت).

وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابـن أبـي حـاتم، عـن ابـن عمـرو:(أن رجـلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ليس لي مال، ولي يتيم فقال: "كل من مـال يتيمـك غير مسرف، ولا مبذر، ولا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك بماله").

وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن وليَّ يتيمٍ قال له: أفأشرب مـن لـبن إبلِـه؟ قـال: "إن كنـت تبغي ضالّتها وتلوطُ حوضَها وتهنأ جَرْباها وتسقيها يـوم ورودِهـا فاشـرَبْ غـير مُضِـرٍ بنسل ولا ناهكٍ في الحلب" وعن محمد بن كعب :(يتقرَّمُ كما تتقـرّم البهيمـة ويُنـزِل نفسَـه منزلـة الأجـيرِ فيما لا بد منه). وعن الشعبي: (يأكلُ من ماله بقدر ما يُعين فيه). وعنه: (كالميتة يتناول عند الضرورة). وعن مجاهد: (يستسلف فإذا أيسرَ أدى). وعن سعيد بـن جـبير:(إن شـاء شـرِب فضـلَ

اللبن وركِبَ الظهرَ ولبس ما يستره من الثياب وأخذَ القوتَ ولا يجاوزه فإن أيسر قضاه وإن أعسر فهو في حل).

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾

فإن استعففتم وأعطيتم اليتامى حقوقهم التي كانت مودعة لديكم، اجعلوا على ذلك شهوداً، ففي ذلك تبرئة لذممكم تجاههم: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾هذا شيء من التحذير من التجاوز، فيحذر الله بأنه هو الذي يتولى الحساب بينكم ، قال ﴿وَكَفَى﴾ بمعنى شهادتكم هي فيما بينكم ، والشاهد الأكبر على ذلك هو الله الذي يتولى بينكم الحساب يوم الحساب و كفى به عدلاً وحقاً وهو لايحتاج إلى شهاداتكم، لأنها ليست له، بل لكم في دنياكم. أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري، قال:(حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال: "نظرت فإذا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار، فيقذف في فيّ أحدهم حتى يخرج من أسافلهم، ولهم جؤار، وصراخ، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء: ﴿الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾".

فأنت لاتقدّم الشهود لله يوم الحساب، لأنه هو الشاهد الأكبر، بل هو الذي يُشهّد عليك حتى أعضاءك، لكن الشهادة هنا هي للدنيا، فيمكن لليتيم أن ينكر بأنك أعطيته تمام حقه، وما إلى ذلك، فتأتي بالشهود الذين يشهدون بالحق على ما جرى تحت أعينهم .

﴿٧﴾

﴿لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾

يبقى المال بمثابة عصب للحياة، ويبقى محور العلاقات الإنسانية، لأنه يحرّك مقومات الحياة، فترى الناس يخرجون من بيوتهم إلى أعمالهم، ترى الأبنية تقام، ترى الأرض تحرث، ترى الأسواق مكتظة بالناس، والمال هو الذي يُحرّك كل هؤلاء، لأنه دون المال لما دبّت كل هذه الحركة في الناس، فمن خلال المال تقوم عمارة الحياة، فترى الله جل شأنه ينظّم للناس لب علاقتهم بالمال، لأن الإنسان قد يمسه الطمع فيستولي على أموال غيره، وفي هذه السورة نرى هذا الحضور الواسع للمال، وكيف أن الله تبارك وتعالى يوجه الناس إلى حسن التعامل مع المال وإدارته، ونرى

تركيـزاً علـى الحـق المـالي والاسـتقلالية الماليـة بالنسـبة للنسـاء في سـورتهن، ممّـا يُشـكّل للنـاس مفهومـاً ناضـجاً وإنسـانياً ومسـتنيراً لهـذه السـيولة :﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ**﴾حق الأبنـاء في أمـوال أبـويهم، وهـم الأولى بهـذه التركـة، كـونهم سيسـتأنفون مسـيرة أبويهم في الحيـاة، والأبنـاء هـم روائـح الأبـوين الباقيـة مِـن بعـدهم، وهـم أشـباههم، وهـو الـذين سينجبون لهم الحفدة، فترى الأب يحسب حساباً لأبنائـه، وكـذلك الأم، وهمـا يُفضّـلان أن يعطيـا لأبنائهمـا أكثـر مـن أي شـخص آخـر، ودومـاً فـإن الأولويـة هـي للأبنـاء، ثـم تبقـى هـذه الصـلة متماسكة حتى بالنسبة للأقرباء، يقول البغوي :(نزلت في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وتـرك امرأة يقال لها أم كُجّة وثلاث بنـات لـه منهـا. فقـام رجـلان همـا ابنـا عـم الميـت ووَصِـيّاه سـويدٌ وعَرْفجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئا، وكانوا في الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصغار، وإن كان الصغير ذكرًا وإنما كانوا يورِّثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلا من قاتـل وحـاز الغنيمة، فجاءت أم كُجّة فقالت: يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ بنات وأنا امرأته، وليس عنـدي مـا أنفـق عليهن، وقـد تـرك أبـوهن مـالا حسـنا، وهـو عنـد سـويد وعرفجـة، ولم يعطياني ولا بناتي شيئا وهنَّ في حِجْري، لا يطعمـن ولا يسـقين، فـدعاهما رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله ولدها لا يركب فرسًا ولا يحمل كلا ولا يَنْكَأ عدوًا، فأنـزل الله عـز وجل، ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾نصب على القطع، وقيـل: جعـل ذلـك نصـيبًا فأثبـت لهـنّ الميراث، ولم يبين كم هو، فأرسل رسول الله صلى الله عليـه وسـلم إلى سُـويد وعرفجـة "لا تفرقـا من مال أوس بن ثابت شيئًا، فإن الله تعالى جعل لبناته نصيبا مما ترك، ولم يبين كم هو حتـى أنظر ما ينـزل فيهن "، فأنـزل الله تعالى ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ**﴾ فلما نـزلت، أرسل رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم إلى سـويد وعرفجـة "أن ادفـع إلى أم كُجّـة الـثمن ممـا تـرك وإلى بناتـه الثلثين، ولكما باقي المال ".)[١٨]

نـرى هنا حفظ الحقوق المالية للرجال والنساء معاً، كذلك نرى حريـة تصـرّف المـرأة بمالها، إذ لايحق للرجل مهما كانت منزلته بالنسبة إليها، أن يحجر على مالها، أو يأخذ منها شيئاً عنوة.

[١٨] معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، ٥١٠ هـ ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠ هـ ، بيروت

إن مثل هذه التشريعات، من شأنها أن تعرّف الرجل بالمرأة بشكل جيّد وهذا من شأنه أن يزيل سوء فهم الرجل لخصوصية المرأة، وعلى الأغلب فإن سوء الفهم هذا يكون عقبة أمام ازدهار العلاقة الزوجية، فيمسي الرجل كما لو أنه أمام كتلة بشرية من الغموض، لايعرف شيئاً عن المرأة التي تشاركه حياته، وجراء هذه اللا معرفة، يلحق الضرر بنفسه أولاً، ثم بزوجته ثانياً، ثم بالأولاد.

يبيّن القرآن أمام الرجل خصوصية المرأة واستقلاليتها، حتى لايتعامل معها كما لو أنه يتعامل مع طفل قاصر، وهي ليست كذلك، فينشب التصاعد في الخلاف على أساس أنها طفل قاصر وهو وصي عليها، ودفاعها عن نفسها بأنها ليست هذا الطفل القاصر حتى أنها في بعض مراحل التصعيد تتعمّد أن تستفزّه حتى يرتدع ويعاملها كإنسانة لها استقلاليتها، وكينونتها، وهي قادرة على تحمّل مسؤوليتها تجاه نفسها، وتجاه البيت الذي تتولى إدارته والقيام عليه، فالقرآن هو مرجعه في هذا التعرف على عالم المرأة، وسورتهن المباركة هذه هي مرجع أساس لنهل المعرفة عن شخصيتهن، فانظر إلى نضج الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يجمع بين كل هذه النساء بالمودة والرحمة، وقد لبث على علاقة سوية بهن، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الصحابة والتابعين والراسخين في العلم، وهذا مستمر إلى يوم الناس هذا، ويبقى مستمراً إلى ما شاء الله، لأن القرآن يكفل سلمية هذه العلاقة وسويتها وجماليتها بين الرجل والمرأة إن مضيا بهدي القرآن.

﴿٨﴾

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾

إذا أتيتم بهذه الأموال وبدأتم بتوزيعها على الورثة حسب حصصهم التي حصصهم بها الله، وإذا صدف أن حضر على هذا التوزيع من أولي﴿**الْقُرْبَى**﴾ غير الوارثين،﴿**وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ**﴾، اعطوهم شيئاً من هذا المال، لأن عينهم تبقى على المال وهو يوزّع على المستحقين، وذلك حتى لايخرجوا بحسرة، فقد رأف الله بحال هؤلاء وجعل لهم حصة غير محددة من هذه القسمة وهي تقسّم، وذلك مرهون بالحضور لأن النفس المحتاجة يبقى بها شيء عندما ترى الأموال الكثيرة

ولا يصيبها شيء، كالجائع الذي يحضر وليمة بشكل مباغت، ينظر إلى موائد الطعام الطيب، ولايدعوه أحد للطعام، حتى ينصرف وبطنه يقرقر جوعاً، فهذه حالة إنسانية يعزّزها الله في الإنسان حتى تستوي وتصلح علاقته ببعضه البعض، فإن لم يكن هذا المحتاج حاضراً، فلا يشمله شيء من هذا كونه اقترن بحضوره ورؤيته قسمة المال، لننظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يراعي حتى أدق التفاصيل التي قد لايلتفت إليها أحد من الناس، لكن الله يلفت أنظارهم إليها، وفي هذا تنمية للأحاسيس الإنسانية. أخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في الآية قال: (هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم) . ثم انظر إلى مراعاة الحفاظ على المشاعر الإنسانية، فلا يسمح لك الله أن تعطي وأنت جهم المحيا، وتدفع المحتاج عنك دفعاً، وكأنك تعطيه تحت الحرج، أو لتصرفه، بل عليك أن تعطيه بوجه بشوش، وكذلك تقول له قولاً جميلاً وأنت تعطيه، فقد أكرمك الله بأن جعلك في هذه السلوك الإنساني رزّاقاً، وهو من أسماء الله الحسنى، فقال لك: ﴿**فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً**﴾ومن جهة أخرى، فإنك إن لم تعطهم شيئاً، لاتضمن حسدهم، أو عينهم التي وقعت على المال.

﴿٩﴾

﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً**﴾

عن ابن عباس قوله: (﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ**﴾، يعني بذلك الرجلَ يموت وله أولاد صغارٌ ضعاف، يخاف عليهم العَيْلة والضيعة، ويخاف بعده أن لا يحسن إليه من يليهم، يقول: فإن ولي مثل ذريته ضعافًا يتامى، فليحسن إليهم، ولا يأكل أموالهم إسرافًا وبدارًا خشية أن يكبروا، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدًا).

وعن الشيباني أنه قال: (كنا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبدالملك، فجلسنا يوما في جماعة من أهل العلم فيهم ابن الديلمي، فتذاكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان. فقلت له: يا أبا بشر، ودي ألا يكون لي ولد. فقال لي: ما عليك ! ما من نسمة قضى الله بخروجها من

رجل إلا خرجت، أحب أو كره، ولكن إذا أردت أن تأمن عليهم فاتق الله في غيرهم؛ ثم تلا الآية).

وفي رواية: ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه، وإن تركت ولدا من بعدك حفظهم الله فيك؟ فقلت: بلى ! فتلا هذه الآية (﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾إلى آخرها).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: (إذا حضر الرجل الوصية فلا ينبغي أن يقول أوص بمالك فإن الله تعالى رازق ولدك، ولكن يقول قدم لنفسك واترك لولدك)، فذلك قوله تعالى:﴿فليتقوا الله﴾).

وقال الكلبي: (هذا الخطاب لولاة اليتامى يقول: من كان في حجره يتيم فليحسنْ إليه وليأت إليه في حقه ما يجب أن يفعل بذريته من بعده).

فقبل أن تقول قولاً لغيرك، قله لنفسك أولاً، ثم قبل أن يعمل غيرك بقولك، اعمل أنت بما تقول، فلا تقل شيئاً لغيرك وأنت غير مؤمن بجدواه، فإن كنت تخاف على ذريتك الضعيفة، عليك أن تخاف بذات المستوى على ذريات الآخرين، وتتقي الله، وتقول :﴿قَوْلاً سَدِيداً﴾ نافعاً في تنفيذه، سدّد، أي حقق .

عن ابن عباس: (هذا في الرجل يحضره الموت فيسمعه يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله سبحانه الذي سمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يُصنع لورثته إذا خشي عليهم الضيَّعة).

﴿١٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾

لقد شبّه الله تعالى أكل مال اليتيم بالنار، فكيف ينعم بالراحة مَن كانت النار موقّدة في بطنه، هنا نرى مدى تماسك الآيات مع نسيج بعضها البعض، وتكاملها مع بعضها البعض ضمن بنيةِ روائيةِ السورة التي تتولى رواية كل هذه التفاصيل اليومية التي يعيشها الناس يوماً بيوم، وساعة بساعة، وهي تتناول حتى أدق هذه التفاصيل اليومية، وترصد حتى اللحظات السريعة من المشاعر التي قد تنتاب البعض في نظرة ما، أو في موقف ما، أو عند سماع كلمة ما، فقد مرّ معنا: ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾ ثم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى﴾

ثم ﴿ وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ﴾. والآن نحن مع النتيجة القوية لهذا التجاوز بعد كل هذه التحذيرات المتدرّجة للذين يتجاوزون على حق اليتيم.

يقول ابن القيم :(﴿إِنَّ الذين يَأكُلُونَ أموال اليتـامى ظُلماً﴾ أي على وجه الظلم أو ظالمين، استئنافٌ جيء به لتقرير مضمونِ ما فُصِّل من الأوامر والنواهي ﴿إِنَّمَا يَـأكُلُونَ فِى بُطُـونِهِمْ﴾ أي ملءَ بطونِهم ﴿نَارًا﴾ أي ما يُجرُّ إلى النار ويؤدّي إليها، وعن أبي برزة أنه صلى الله عليه وسلم قال: "يبعث الله تعالى قوماً من قبورهم تتأجّج أفواهُهم ناراً" فقيل: من هم؟ فقال عليه الصلاة و السلام:" ألم تر أن الله يقول: ﴿إِنَّ الذين يَأكُلُونَ أموال اليتامى ظُلماً إِنَّمَا يَـأكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصلَوْنَ سَعِيراً﴾" أي سيدخُلون ناراً هائلةً مبْهمةَ الوصفِ وقرئ بضم الياء مخففاً ومشدداً من الإصلاء والتصلية، يقال: صلِيَ النار قاسي حرَّها وصلَيته وشويته وأصليته وصلّيته ألقيته فيها. والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعَرتُ النارَ إذا ألهبتها. روي أن آكلَ مالِ اليتيم يبعث يوم القيامةِ والدخانُ يخرج من قبره ومِنْ فيه وأنفِه وأُذنيه وعينيه فيعرف الناسُ أنه كان يأكلُ مالَ اليتيمِ في الدنيا. وروي أنه لما نزلت هذه الآيةُ ثقُل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الأمرُ على اليتامى فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾البقرة ٢٢٠).

هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، وظنوا أن لاأحد سيلاحقهم، يُخبر الله تعالى بأنهم: ﴿يَأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾والنار هنا ليست النار الحارقة المعروفة، بل هي نار مال الحرام التي تبقى تحرق بطونهم وفق الطرق التي شاء الله بها أن تحرق، ثم أنها مقدّمة للنار الكبرى التي سينتهون إليها في الآخرة بقوله في استئناف الآية:﴿وَسَيَصلَوْنَ﴾في الآخرة ﴿سَعِيراً﴾سَينتهي بهم ذلك إلى نار سَعيرة، شديدة في لهبها:﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ التكوير ١٢ .

الباب الخامـس
حقوق النساء الماليـة

﴿١١﴾

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً﴾

مانزال هنا في دائرة المال، ولكننا هنا سننتقل إلى الوجه الآخر له، وهو الوجه الذي يرينا حجم المسؤولية التي يتحمّلها صاحب المال تجاه ماله، فيمكن أن يؤول هذا المال بصاحبه إلى جنات تجري من تحتها الأنهار، كذلك يمكن له أن يؤول بصاحبه إلى نار وعذاب مهين.

نستفتح الكلمة الأولى من آيات هذا الباب الرابع بكلمة الله الافتتاحية للآية الأولى:

﴿يُوصِيكُمُ﴾. جاءت كلمة بالغة الدلالة ومكتنزة المعنى، فلم يقل: يأمركم، بل ﴿يُوصِيكُمُ﴾ لأن الأب يتحمّل مسؤولية أولاده، فجاءت الكلمة معزّزَة هذه المسؤولية ، وبذات الوقت داعيَة إياهم للعدل بين الأبناء، فإن عَكَسنا الأمر إلى المستوى البشري وقلنا بأنك جدّ، وأنك تريد لابنك أن يعدل بين أولاده الذين هم أحفادك، فإنك تقول لابنك: أوصيك بأولادك، لأنك إن قلت له بأنك تأمره، فإنك تقلل من مسؤوليته الأبوية تجاه أبنائه. فهو إذن يقبل منك الوصية من منطلق أنه ابنك، ثم من منطلق أنهم أبناء ابنك، دون أن يشعر بأنه مقصّر تجاههم، فبذلك قد يزيد عنايته بأولاده استجابة لوصيَّتك بهم، فهنا تذكير لك بأن الله ربك وربهم، وهو الذي يعيلك ويعيلهم، كون الخَلق كلهم عيال الله، وهو الذي يقوم بإدارة شؤونهم ومعاشاتهم ، فجاءت الوصيَّة ليِّنة ومعبِّرة دون أي تقليل من المشاعر بالمسؤولية تجاه الأبناء، فيا أيها الآباء:

﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ﴾، ثم بيّن الله شرعه العادل في وصيته بقوله:﴿فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾. لأن الذكر سوف يأخذ حصَّته وحصَّة زوجته التي يعيلها، في حين أن المرأة تأخذ حصَّة واحدة لأن الله عفا مالها من الإنفاق على الزوج أو الأولاد أو البيت، فهذه الحصَّة الواحدة كي تستمتع بها في نفقاتها الشخصية، فلو كان الزوج شريكاً في مال زوجته، كما أنها شريكة في ماله، وأخذت مثله النصف، لما كان ذلك لصالحها، لأن الرجل عندذاك كان سيأخذ منها هذا المال ويضمه إلى ماله لأنه يتولى الإنفاق، فجعل الله هذه الحصَّة خاصة لنفقاتها الشخصية، وحذّر الزوج من مغبة الاستيلاء على هذا المال تحت أي ذريعة كانت، سواء بطريقة مباشرة أوغير مباشرة، فهذا المال جعله الله في قسمتها كي تستمتع في إنفاقه على نفسها فقط، وفي هذه المعادلة سنرى كيف أن الله وقى المرأة حتى من كلمة جارحة قد يوجهها إليها الزوج، فهو قد قبض حصَّتين، حصَّته ونصف حصَّتها، وبذلك فهي أيضاً تشاركه في الإنفاق من خلال نصف الحصَّة المقبوضة تلك، ثم في وجه آخر، سنرى كيفية تكاتف المرأة مع المرأة، فهذه هي أخت الرجل التي ذهب نصف حصَّتها لأخيها الذي سينفقه على زوجته، وتلك أيضاً قد أتى زوجها بنصف حصَّة هذه لينفقه عليها، فيكون نصف هذه قد ذهب إلى تلك، ونصف تلك قد عاد إلى هذه، وكل هذا حتى تتفرّد المرأة بحصَّتها المخصَّصة لها، وهي المُستفيدة في هذا الشرع الذي أكَرَمها وحباها الله تعالى به. لكن الأمر لايتوقف عند هذا الحدّ فهناك تفرّعات، ثم يمكن لهذه الأولوية في الميراث ألاّ تكون موجودة بالأصل، نرى هنا كيف يبيّن الله تعالى حتى تلك التفاصيل الدقيقة للناس حتى يكونوا في بَيِّنة من أمرهم، وفق توجيه الحق الذي يكفل لهم سويّة علاقاتهم الإنسانية ببعضهم البعض دون أن يكون المال حائلاً في ذلك، فيقول: ﴿فَإِن كُنَّ﴾، اللاتي مات أبوهن: ﴿نِسَاء فَوْقَ﴾أكثر من ﴿اثْنَتَيْنِ﴾، لأن شرع الاثنتين قد تبيَّن:﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾أبوهن، ولعل المتروكة تكون ابنة واحدة فمَا هو الحكم؟ يقول الله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾،والباقي أين سيذهب؟ يقول:﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ابنهما الميت﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾، فإن لم يكن له ولد كيف يكون التصرّف بماله؟ يقول: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ثم أمر آخر قد يواجه الحال فقال الله:﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (لا يحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلاّ أن يكونوا ثلاثة، لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ ولا يقال للاثنين إخوة)، ويقول

البغوي: (اسم الجمع قد يقع على التثنية لأن الجمع ضم شيء إلى شيء وهو موجود في الاثنين كما قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾التحريم٤ . ذكر القلب بلفظ الجمع، وأضافه إلى الاثنين قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾. قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿يُوصِي﴾بفتح الصاد على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، وكذلك الثانية، ووافق حفص في الثانية، وقرأ الآخرون بكسر الصاد لأنه جرى ذكْرُ الميت من قبل، بدليل قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا﴾و﴿ توصُونَ﴾، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدَّين قبل الوصية). وهذا إجماع أن الدَين مُقدّم على الوصية. ومعنى الآية الجمع لا الترتيب، وبيان أن الميراث مؤخر عن الدين والوصية جميعًا، معناه: من بعد وصية إن كانت، أو دَين إن كان، فالإرث مؤخر عن كل واحد منهما، ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾يعني: الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم، ﴿لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم من يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع له، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالم بمن هو أنفع لكم، وقد دبَّرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أطوعكم لله عز وجل من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشَفِّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رفع إليه ولده وإن كان الولد أرفع درجة رفع إليه والده لتقر بذلك أعينهم، ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾أي: ما قدر من المواريث، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأمور العباد، ﴿حَكِيمًا﴾ بنصب الأحكام).

وقد بَيَّن الله تعالى ذلك لأن الوراثة في الجاهلية كانت مقتصرة على الرجال. يقول البغوي:(كانوا يُورِّثون الرجال دون النساء والصبيان، فأبطل الله ذلك بقوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ الآية، وكانت أيضًا في الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ثم صارت الوراثة بالهجرة، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ الأنفال ٧٢ ، فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة بالنسب أو النكاح أو الولاء، فالمعنيُّ بالنسب أن القرابة يرث بعضهم من بعض، لقوله تعالى ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾الأحزاب ٦ ، والمعنيُّ بالنكاح: أن أحد الزوجين يرث صاحبه، وبالولاء: أن المُعْتِقَ وعصباته يرثون المُعْتَقَ.

إذا مات ميت وله مال فيبدأ بتجهيزه ثم بقضاء ديونه ثم بإنفاذ وصاياه فما فضل يقسم بين الورثة. (ثم الورثة) على ثلاثة أقسام: منهم من يرث بالفرض ومنهم من يرث بالتعصيب، ومنهم من يرث بهما جميعا، فمن يرث بالنكاح لا يرث إلا بالفرض، ومن يرث بالولاء لا يرث إلا بالتعصيب، أما من يرث بالقرابة فمنهم من يرث بالفرض كالبنات والأخوات والأمهات والجدات، وأولاد الأم، ومنهم من يرث بالتعصيب كالبنين والأخوة وبني الأخوة والأعمام وبنيهم، ومنهم من يرث بهما كالأب يرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد، فإن كان للميت ابن: يرث الأب بالفرض السدس، وإن كان للميت بنت فيرث الأب السدس بالفرض ويأخذ الباقي بعد نصيب البنت بالتعصيب، وكذلك الجد، وصاحب التعصيب من يأخذ جميع المال عند الانفراد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض.

وجملة الورثة سبعة عشر: عشرة من الرجال وسبع من النساء، فمن الرجال: الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجد أبو الأب وإن علا والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم، وابن الأخ للأب والأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وأبناؤهما وإن سفلوا، والزوج ومولى العتاق، ومن النساء البنت وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدة أم الأم وأم الأب، والأخت سواء كانت لأب وأم أو لأب أو لأم، والزوجة ومولاة العتاق.

وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير : الأبوان والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة)[١٩] .

يرفع الله تعالى عن الناس الحَرَج، ويبيّن لهم حقوق بعضهم على بعض، حتى لاتختلط الأمور ببعضها، ويعمل كلٌ وفق صالحه على حساب صالح الآخر، ففي شرع الله يكون العدل هو السائد، ولاتمييز لأحد على أحد لأنهم جميعاً سواء في تنفيذ هذا الشرع والانتفاع به.

روي عن عبدالله بن مسعود قال:(قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعلّموا القرآن وعلّموه الناس وتعلّموا الفرائض وعلّموها الناس وتعلّموا العلم وعلّموه الناس فإني امرؤ مقبوض وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان مَن يفصل بينهما ") .

[١٩] معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي.

وروى أبو داود والدارقطني عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة ". قال الخطابي أبو سليمان: (الآية المحكمة هي كتاب الله تعالى: واشترط فيها الإحكام؛ لأن من الآي ما هو منسوخ لا يعمل به، وإنما يعمل بناسخه. والسنة القائمة هي الثابتة مما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من السنن الثابتة).

﴿١٢﴾

﴿وَلَكُمْ نِصفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَمْ يَكُن لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ توصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

لذلك ترى السورة مستأنفة استيعاب كل الحالات التي يمكن لها أن تقع دون أن تخرج حالة عن الحكم، فالمال الذي تتركه الزوجة، لِمَن سيؤول، هل إلى البيت المصدر الذي أتت منه بهذا المال، أم إلى بيتها الزوجي الجديد؟ نرى هنا أن الله سبحانه وتعالى يُبقي هذه العلاقة الزوجية موصولة بكل قوتها رغم موت الزوجة، فيقول: ﴿وَلَكُمْ﴾أيها الأزواج: ﴿نِصفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْإِن لَمْ يَكُن لَهُنَّ وَلَدٌ﴾تستحقون نصف ما تترك زوجاتكم إن لم يكن لهن ولد أو بنت: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ في هذه الحالة يصيبكم الربع بعد أن يتم تنفيذ وصيتهن ، ووفاء دَينهن في حال وجوده، وإن كان الأمر معاكساً يُشرّع الله: ﴿وَلَهُنَّ ﴾لزوجاتكم﴿ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ﴾ يصيبهن الربع عند عدم وجود ولد أو بنت لكم سواء منهن، أو من غيرهن ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ

وَصِيَّةٍ توصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾،وإن لم يكن الأمر هذا وذاك، فيبيّن الله في شأنه: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ﴾، فإن لم يكن للرجل أب، أو أم، أو زوجة، أو ولد، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾يبيّن الله في هذه الحالة: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ من أخ وأخت الميت: ﴿ السُدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُلُثِ﴾.

روى أبو حاتم، والأثرم، عن أبي عبيدة أنه قال:(الكلالة كل من لم يرثه أب، أو ابن، أو أخ، فهو عند العرب كلالة).

قال أبو عمر بن عبد البر: (ذكر أبي عبيدة الأخ هنا مع الأب، والابن في شرط الكلالة غلط لا وجه له، ولم يذكره في شرط الكلالة غيره، وما يروى عن أبي بكر، وعمر من أن الكلالة من لا ولد له خاصة، فقد رجعا عنه).

وقال ابن زيد: (الكلالة: الحي، والميت جميعاً، وإنما سموا القرابة كلالة؛ لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه، وليسوا منه، ولا هو منهم، بخلاف الابن، والأب، فإنهما طرفان له، فإذا ذهبا تكلله النسب). وقيل:(إن الكلالة مأخوذة من الكلال، وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد، وإعياء)وقال ابن الأعرابي:(إن الكلالة بنو العم الأباعد. وبالجملة فمن قرأ: ﴿**يُورَثُ كلالة**﴾ بكسر الراء مشددة، وهو بعض الكوفيين، أو مخففة، وهو الحسن، وأيوب جعل الكلالة القرابة. ومن قرأ: ﴿**يُورِثُ**﴾ بفتح الراء، وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلالة الميت، واحتمل أن يكون القرابةوقد روي عن علي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والشعبي أن الكلالة ما كان سوى الولد، والوالد من الورثة).

يقول ابن منظور في باب كلل: (روى المنذري بسنده عن أبي عبيدة أنه قال: الكَلالة كل مَنْ لم يرِثه ولد أو أب أو أخ ونحو ذلك؛ قال الأخفش: وقال الفراء الكَلالة من القرابة ما خلا الوالد والولد، سموا كَلالة لاستدارتهم بنسب الميت الأقرب، فالأقرب من تكَلله النسب إِذا استدار به، قال: وسمعته مرة يقول الكَلالة من سقط عنه طَرَفاه، وهما أبوه وولده، فصار كَلاً وكَلالة أي عِيالاً على الأصل، يقول: سقط من الطَّرَفين فصار عِيالاً عليهم؛ قال: كتبته حفظا عنه؛ قال الأَزهري: وحديث جابر يفسر لك الكَلالة وأنه الوارِث لأنه يقول مَرِضْت مرضاً أشفيت منه على الموت فأَتيت النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت: إِني رجل ليس يرثني إِلا كَلالةٌ؛ أَراد أنه لا والد له ولا ولد، فذكر الله عز وجل الكَلالة في سورة النساء في موضعين، أَحدهما قوله: وإِن كان رجل يُورَث كَلالةً أَو امرأَةٌ وله أَخٌ أَو أُخت فلكل واحد منهما السدس؛ فقوله يُورَث من وُرِث يُورَث لا من أُورِث يُورَث، ونصب كَلالة على الحال، المعنى أَن من مات رجلاً أَو امرأَة في حال تكَلُّلِه نسب ورثِته أَي لا والد له ولا ولد وله أَخ أَو أُخت من أُم فلكل واحد منهما السدس، فجعل

الميت ههنا كَلالة وهو المورِّث، وهو في حديث جابر الوارث: فكل مَن مات ولا والد له ولا ولد فهو كلالةُ ورثِته، وكلُ وارث ليس بوالد للميت ولا ولدٍ له فهو كلالةُ مَوْرُوثِه)[٢٠]

فلا يُجاز لأحد أن يعارض هذه الأحكام سواء بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة للنيل من سويتها، وفي ذلك يبيّن جل ثناؤه:﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ والوصية عليها أن تكون معقولة، ومقبولة، ومعتدلة، فانظر هنا إلى حديث ورد في الصحيحين ، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم: أتاه يعوده في مرضه، فقال: إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بالثلثين؟ فقال: "لا"، قال فالشطر؟ قال: "لا"، قال فالثلث؟ قال: "الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر، ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس".

هذا من شأنه أن يجعل الناس يكونوا أكثر قرباً من بعضهم البعض، وأكثر صلة لأرحام بعضهم البعض، لذلك يُستحسن أن يصيب معروف الإنسان ابتداءً من المقرّبين إليه، ثم بعد ذلك وفق درجات ، ومن جهة أخرى، فإن الإنسان الذي يبذر في أمواله ويترك عائلته محتاجة، فإنها تفتقد محبتها له لأنه كالغريب بالنسبة لها، ولايشعر بالمسؤولية تجاهها، فترى الرجل عندما يكبر ولده، يسعى لتأمين شيء من المال له سواء في زواجه، أو في تحصيله الدراسي، أو في إعطائه شيئاً يسنده في بدء حياته الجديدة.

أخرج ابن أبي شيبة، عن معاذ بن جبل قال:(إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم: يعني: الوصية)وفي الصحيحين، عن ابن عباس قال:(وددت أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الثلث كثير")وأخرج ابن أبي شيبة، عن ابن عمر قال: ذكر عند عمر الثلث في الوصية، فقال:(الثلث وسط لا بخس ولا شطط)وأخرج ابن أبي شيبة، عن علي قال: (لأن أوصي بالخمس أحبّ إليّ من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحبّ إليّ من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك فائدة).

هذا يُفيد بأن يُرجح الإنسان مصلحة المقرّبين إليه أولاً، وألاّ يترك ديناً قد يلحق الضرر بورثته، كأن يتقصد ديناً لعله غير موجود بالأصل، أو حوله شبهة مما يلحق الضرر بالورثة، فـ "لاضررولاضرار" كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم، والثبوتيات هنا هي سيدة الأدلة تجنباً

---

[٢٠] لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي، ط٣، ج١٥ ، دار صادر، بيروت.

للأذى. أخرج ابن ماجه، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة".

يقول الطبري: (حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿غير مضار﴾، قال: في ميراث أهله.

حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿غير مضار وصية من الله﴾ ، وإن الله تبارك وتعالى كره الضرار في الحياة وعند الموت، ونهى عنه، وقدَّم فيه، فلا تصلح مضارَّة في حياة ولا موت.

حدثني يعقوب بن إبراهيم قال، حدثنا هشيم قال، أخبرنا أبو عمرو التيمي، عن أبي الضحى قال: دخلت مع مسروق على مريض، فإذا هو يوصي قال: فقال له مسروق: أعدل لا تضل)[٢١]

ثم انتهت الآية بـ: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾وهذه خاتمة لِما بدأت به الآية ١١ بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾فقد ركّزت الآيتان معاً على الحقوق المالية، وسبل إيصالها إلى مستحقيها على أكمل وجه بتشريع من الله العليم بمصالحكم، والحليم بكم.

﴿١٣﴾

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

بعد هذا التشريع الشديد التفصيل، والشامل لكل الحالات، ورغم أنك هنا تعمل بموجبه لصالحك، فإن الله يجازيك على تنفيذه، فقد أعطاك حقك، ومنحك حرية الاستمتاع بهذا الحق، ثم جازاك لأنك تركت ما كان يلحق بك وبغيرك الظلم، وأنست إلى ما يحقق لك ولغيرك العدل، فـ :﴿تِلْكَ﴾البَيِّنات هي ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾. الحدود هي الحدّ الفاصل بين أن يلتبس الحق بالباطل، لذلك ترى الناس يجعلون لأراضيهم حدوداً منعاً للتجاوز عليها، وهذه الحدود هي بيان للحقوق،

[٢١] جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤٢٠ هـ -

وتجاوزها يكون اعتداءً على حقوق الغير بالباطل، فيبيّن لك الله في حدوده أن هذا لك، وهذا ليس لك.

حدود الله هي حدود تحدد للإنسان مسار حياته، أي هي ليست حدود تفصلك عن أذى الله، بل هي حدود تفصلك عن أذى نفسك أولا، ومن ثم أذى الناس، فأنت شخص متزوج، وليس من مانع في أن تأتي زوجك أنّى شئت، بيد أنك ترى حدّ الله عندما تحيض زوجك: هل إذا تجاوزت حدّ الله، وأتيت زوجك، ستؤذي ذات الله، أم أنك تؤذي ذاتك، وتلحق الأذى بزوجك؟!

عندما ترى ميتة على الطريق، و ترى حد الله من تناول لحم هذه الميتة، بيد أنك تتجاوز حد الله، وتأكل من هذا اللحم: هل ستلحق أذى بالله، أم يلحق أذى بك؟!

عندما يودع شخص أمانة لديك، فيقضي حدّ الله أن تؤدي الأمانة إلى صاحبها، بيد أنك تجاوزت هذا الحد، وأنكرت على المؤتمن أمانته: هل تؤذي الله، أم تؤذي نفسك، وتلحق الأذى بمن ائتمنك؟!

يمكن لك أن تأخذ مقاسا في ذلك على سائر حدود ربك، فعندما ترى حدّ الله في الفاحشة، فإنك تجد الإذن في عقد القران، عندما ترى حدّ الله في الميتة، فإنك تجد الإذن في لحم طيب، عندما ترى حدّ الله في السرقة، فإنك تجد الإذن في العمل للحصول على مال.

هذه أمور يمكن لك أن تلمسها وتراها بشكل مباشر، لكن هناك أمور تكمن في الحدود، لا تلمسها إلاّ بعد ردح من زمن، وهكذا كلما يلتزم المرء حدود ربه، فإنه يكتشف بشكل تدريجي أن كل ما نهى الله الإنسان عنه، له فيه مصلحة، وله في ممارسته مفسدة، في ماله وبدنه وجاهه.

ثم يقول لك: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ فأنت عندما تعمل بما يُخبرك به الرسول، إنما تعمل بما أخبره الله ما يخبرك به، وأطعت الله، ورسوله الذي حمّله الله إيصال هذه الحدود لك، فقال:﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ولم يقل:﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ**﴾ ومحمداً، فـ ﴿**رَسُولَهُ**﴾ أي رسولي الذي حمّلته رسالتي إليكم، فمن يُطع الله ورسالته:﴿**يُدْخِلْهُ**﴾ وليس يُدخلانه لأن المصدر هو الله﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾وذلك مجازاة لك من الله كونك راعيت حدوده، وليس بوسع أحد أن يُخرجك من جنتك التي وعدك الله بها، لأن :﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾أي أبدية وخالصة لك، ﴿**وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ لأن الفوز بأي شيء في الدنيا مهما بلغت قيمته، يمكن له أن يذهب منك، ومهما سكنتَ في قصور ثمينة، فيمكن أن يأتي يوم ويُخرجك شخص آخر منها بالقوة، فذلك إذن فوز غير عظيم، يفتقد العظمة لأنك غير مستقر، وغير آمن به،

في حين أن فوزك الذي تبيّنه خاتمة الآية﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ تكمن عظمته أن لاأحد بمقدوره أن يُخرجك مما فوّزك الله به، فما بلغته هو خالص لك، وأنت خالدٌ وآمنٌ فيه.

﴿١٤﴾

﴿وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

ونظير ذلك، فإن اعترضتَ على شرع الله، وضربتَ بحدوده عرض الحائط، تلقى نقيض ما يلقاه المطيع: ﴿وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾يعصي من العصيان، أي أن تجعل من نفسك مادة مستعصية أمام الحدود، فتستعصي، وترفض أمر الله الذي حمله إليك الرسول من عند الله، ولاتعمل إلاّ بعكسه متعمداً الاعتداء على حدود الله استكبارا وتعالياً، فجاءت ذات الكلمة: ﴿يُدْخِلْهُ﴾لكن هناك:﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾جاءت جمعاً ، وهنا: ﴿نَاراً﴾جاءت فرداً، كذلك هناك:﴿خَالِدِينَ فِيهَا ﴾جمعاً لأن أهل الجنة في درجات، يمكن لهم أن يلتقوا بذرياتهم ويتزاوروا فيما بينهم وهنا: ﴿خَالِداً فِيهَا ﴾بمعنى خالداً منعزلاً فيها ، لأن الموضع غير قابل لتبادل الزيارات، والمنتهى هناك:﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾، في حين المنتهى هنا: ﴿ وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾. عندما يرتكب المرء وموبقة، ويتم ضبطه بها، ويُشهّر به، ثم يُدخل سجناً انفراديا، يتلقى كل يوم فيه ألوان العذاب، فهو هنا يلقى عذابين، العذاب البدني، والعذاب النفسي، كونه ترك سوء السمعة في الناس، وهو يدرك أن الناس الآن يتمتعون بنعيم الحرية، والمأكل، والمشرب، والملبس، والسمعة الطيبة، فيشعر مع ذلك بالخزي، فالعذاب المهين، هو العذاب النفسي، إلى جانب العذاب البدني، فهو يعلم أن الذين هم في الجنة يتمتعون الآن بنعيمها: ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ★ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ★ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ★ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ★ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ★ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ★ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ★ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴾الطور ٢٥- ١٨ فيشعر بحجم ما ألحق بنفسه من خزي، وحرمان، وظلم، وإهانة، عندما عصى الله، وتجاوز على حدوده، واستهزأ بالحق، معتدياً على هذا، ومؤذياً ذاك، وهو ينشر الفساد والضغينة في الناس، حتى أنه عندما مات، استراح الناس من شره لأنه كان كتلة من الشر تمشي على الأرض، فكم من أناس أفسد

بينهم، كم من أناس أنشب بينهم العداوة، كم من أناس اعتدى على أعراضهم وأموالهم، كم ألحق الهول بأناس، إنه يقف على تاريخ من الجور والفساد، وها هو الآن يحصد ما قد زرعه، كما أن أهل الخير، والحق، والحياء، والطاعة، والخشية من الله، الذين يقفون على كل ذاك التاريخ المشرّف، يحصدون نتيجة ما قد زرعوا يوم الحصاد الأكبر ، فقد أوفى الله بوعده مع هؤلاء، ومع هؤلاء.

أخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، واللفظ له، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشرّ عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشرّ سبعين سنة، فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة".

وقفنا في هذا الباب مع أربع آيات متدرّجات في إعطاء الناس مفهوماً إنسانياً تنظيمياً معتدلاً عن المال بصفة عامة، وعن كيفية إدارة هذا المال الذي هو في الواقع سيولة يتسايل من خلالها الناس شؤونهم المعاشية يوماً بيوم، وهذا يُخفف عن الناس الكثير من أعباء الفهم الخاطئ، أو المبالَغ فيه بالنسبة لهذا المال الذي يتداولونه فيما بينهم، ويذهبون ليبقى المال مستمرّاً وشاهداً، ومؤرّخاً مواقف الناس سلبية كانت، أم إيجابية.

في الآيتين الأوليتين، كنا مع حضور المال وكيفية استخدامه، وقد شرحنا السبل المشروعة في انتقال هذا المال ببركة الله من يد إلى يد، وهي السبل الكفيلة في بنية علاقات إنسانية حميمية مزدهرة في المجتمع الإنساني لأنها تؤسس لروح حالة من المحبة والألفة والأمانة والنقاء الإنساني بين الناس، فيستشعرون مع تنفيذها بقوة تماسكهم وتعاضدهم مع بعضهم بعضاً، فالإنسان هنا يصبح على ثقة بالإنسان، والأمر هنا إن دار حول المال، إلاّ أنه يتجاوز هذه المنظومة الاقتصادية المادية، إلى منظومة بنية علاقة روحية، حيث سيمسي الإنسان على ثقة بالإنسان، فيأتمنه على ماله، وعرضه، وولده، وسرّه، ذلك أن العلاقات الإنسانية السليمة هي علاقات متكاملة ومتداخلة مع نسيج بعضها البعض، فاللص الذي جاء يعتدي على مال شخص، يمكن له أن يعتدي على عرضه أيضاً، والذي يستبيح أعراض الناس، يمكن له أن يكذب أيضاً، وقد حضرت المرأة بكل قوتها الناعمة في هذا الباب أيضاً، حيث رأيناها زوجة، وأماً، وابنة، وأختاً، وأرملة، وجدّة، وابنة ابن، وابنة بنت، ووارثة، وموّرثة، بما يجعلها شريكة حقيقية مع الرجل في عمارة الحياة، وبناء الحياة الاجتماعية.

الباب السادس
عفيفات النساء وفاحشاتهـن

﴿١٥﴾

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾

فها هي المرأة مُعزّزة، مكرَّمة، ظافرة بحقوقها، وحرَّة التصرّف بأموالها، تقوم كما لو أنها مَلِكة على بيتها، وزوجها، وذرّيتها، تتنعَّم بدفء العلاقات الاجتماعية، إنها سَيِّدة بامتياز، تمارس سلطات سيادتها فيما شرّع لها الله، ولا تخاف في الله لومة لائم. وهكذا على هذا النحو من السمو الذي تقعد عليه المرأة، يمكن لها أن تميل إلى البطر، لتقلّب كل ذاك النعيم الذي هو لها، فيمسي عليها، وبدل أن تدخل بيتها بشموخ وعز، تدخل بيتاً آخر بخوف وذل خلسة كما لو أنها لصّة، فتخرج نفسها من مملكتها، التي هي ملكة فيها، لتلج إلى هوّة وكر مظلم تكون فيه ذليلة. لقد اختارت أن تنحرف من الصلاح إلى الفساد، من الوضوح إلى الغموض، من المعزّة إلى المذلة، من السيادة إلى العبودية، من القصر، إلى الوكر، فهي إذن قد بَطَرت، وطَغَت، وتبتغي الفساد في الأرض، لأنها ليست في صحراء، بل تعيش في قلب مجتمع، وانحرافها هذا هو ليس انحرافاً فردياً ليقتصر عليها، بل تسعى إلى شريك لها في هذا الانحراف، وإن تركها هذا الشريك المنحرف، سَعَت إلى غيره، ثم يسعى منحرف آخر إليها، وهذا من شأنه أن يلحق الأذى بسمعة أخواتها، أوأمها، أوبناتها، أو سائر مقرّبات الأرحام منها، فأمر الله تعالى بالحجر على كل تلك المزايا التي تنعم بها وحجزها في البيت بغية منعها من التوسع في نشر رقعة الفساد، وأول تلك المزايا، هي الحرية فأنزل الله أمره: ﴿وَاللَّاتِي﴾ النساء اللاتي:﴿يَأْتِينَ﴾ يفتعلن﴿الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾الزنا، الذي بموجبه تصبح المرأة زانية، كما أنها بموجب النكاح، تصبح زوجة، رغم أن الفعل على الوجهين هو واحد، تحقيق الجماع بين رجل وامرأة، فأسمى الله جل جلاله هذا الفعل الذي تتعمّد المرأة ممارسته دون كَتبِ كتاب وفق شرع الله بـ ﴿الْفَاحِشَةَ﴾لأن المرأة تفحش بممارسته،

وتمرد على أمر ربها، وتتمادى عليه بأن توقع على عورتها رجلاً ضاربة بشرع الله عرض الحائط، وغير آبهة به، وهنا يتبيّن لنا بأن الأصل في المرأة هو العفاف، أمّا الانحراف عن هذا العفاف، فهو أمر طارئ فقال عز شأنه: ﴿**وَاللاَّتِييَأْتِينَالْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ** ﴾وكلمة اللاتي ، جمع التي: تنحرف عن أصل نسائكم العفيفات، فالأصل هو أن نساؤكم عفيفات ، ولكن منهن قد ينحرفن عن هذا العفاف، ولذلك فإن نسبة المنحرفات من النساء هي قليلة، لأن فجور المرأة يؤدي بها إلى شبه دمار كامل، وهو خط شديد الاحمرار، إضافة إلى ما تخلّفه من تداعيات فعلها الفاحش على سائر أهلها من إناث وذكور، بل أن بعض المجتمعات الاسلامية الشديدة التحفّظ تذهب إلى توجيه العقاب لها بما هو أبعد من عقاب الله المنصوص عليه بشأن فعلها المارد عن المنظومة الإنسانية، والأخلاقية، فيقوم البعض بالتنكيل بالمرأة الزانية، لأن وصمة اجتماعية تدخل الأمر، وهو الاعتداء على شرف وسمعة العائلة مِن قِبل هذه المرأة التي تركت وصمة عار تاريخية في تاريخ هذه العائلة، فبالإضافة إلى حدود الله، تحدّ العائلة أيضاً عليها حدوداً لم يحدّها الله، لأن تصرّف الإنسان عند الله هو تصرّف شخصي فردي لايتحمّل مسؤوليته غيره، فنص البعض هذا اللون من العقاب القاسي واللاإنساني بحق المرأة من منطلق عائلي بحت، غير ديني، وغير قانوني تحت ذريعة المساس بشرف العائلة ككل؛ فهي نسبة نادرة، مقارنتها بالنسبة العامة العفيفة التي هي الأصل، والكثرة الغالبة، ولكن لماذا تفحش به؟ لأن الله قد عففها بكل تلك المزايا، فأصبحت امرأة عفيفة بمزايا ربها، وحتى النهي عن الفاحشة، هو بمثابة الدعوة كي تبقى مستمتعة ومنتفعة بهذه المنزلة الرفيعة التي حباها الله بها فلم يقل﴿**وَاللاَّتِي**﴾ أتين، لأن ذلك لم يقع ومن المفترض بشكل طبيعي ألاّ يقع لأن لاشيء يدعو إلى وقوعه سوى تعمّد التمادي على حكم الله ، فقال ﴿**وَاللاَّتِييَأْتِينَ**﴾بمعنى بعد كل هذا العفاف الذي عففهن به الله، سيقررن و﴿ **يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ**﴾والفحش من القبح، والمرأة تقبح بالقبيحة، وبذات الوقت تمسي فاجرة بما تقدم عليه من فجور. فإن أتينها، قبل أن تحكموا بشيء، عليكم أن تتحققوا تجنّباً للظلم، والتحقق يكون موثقاً برأي العين:﴿**فَاسْتَشْهِدُواْ** ﴾الأمرموجه لأهل الولاية والقضاء الذين أوكلهم الله إصدار الأحكام الشرعية على الناس:﴿**عَلَيْهِنَّ**﴾اللواتي أتين الزنا ﴿**أَرْبَعةً مِّنكُمْ** ﴾من المسلمين، فعليهم أن يأتوا بأناس شهدوا الواقعة، فيستشهدوهم، يحلفونهم يمين الله، ويتأكدون من روايتهم واحداً تلو الآخر، وأنهم بكامل أهليتهم الشرعية والقانونية المعتبرة، وأنهم أهل وثقة للشهادة، وقد جعل الله شهوداً أربعة في ذلك، فيكون كل

واحد منهما أمام شاهدين عليه، ثم يشهد الأربعة معاً عليهما معاً :﴿**فَإِن شَهِدُوا** ﴾ بوقوع الزنا، عندئذ: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ**﴾أوقفوا نشاطهن، واحجروا على حريتهن بالحركة، بمعنى افرضوا عليهن الإقامة الجبرية في البيوت، ومنعهن الخروج منها ﴿**حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ**﴾ حتى يقبضهن ملك الموت بأمر الله، وهذا ما يمكن تسميته في زماننا بالسجن المؤبّد، فهي تبقى حبيسة في البيت مدى الحياة، ولاتخرج منه إلاّ ميتة﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾وهذا يعني أن هذا الحكم مؤقت، لأن ﴿**أَوْ**﴾ حرّك الحكم من ثباته وجعله قابلاً للتغيير ، وقد حدث ذلك في سورة النور عندما أنزل الله:﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾النور٢، وهذا الحكم لغير المحصنين، أمّا بالنسبة للمحصنين فلم يرد أمر الجلد في القرآن، بل يؤخذ به من خلال السنّة.

قال الإمام أحمد: (حدثنا محمد بن جعفر حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت. قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه. فأنزل الله عليه عز وجل ذات يوم فلما سري عنه قال: "خذوا عني.. قد جعل الله لهن سبيلاً.. الثيب بالثيب والبكر بالبكر. الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة. والبكر جلد مائة ثم نفي سنة". وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطان عن عبادة بن الصامت. عن النبي صلى الله عليه وسلم ولفظه: "خذوا عني. خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام. والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة". فبذلك تم تنفيذ الـ ﴿**أَوْ**﴾ليحل مكان السجن المؤبّد في البيت، فهذا هو السبيل الذي جعله الله لهذه المعصية الكبيرة، لكن بقيت الشروط المحكمة ذاتها، وهي شروط ليس من السهولة تحقيقها، حتى أن ذلك قد يعني أن يرى هؤلاء الأربعة رأي العين عملية تنفيذ الجماع بحذافيرها، لأن الرجل قد يكون مستلقياً على المرأة وعليهما غطاء، وقد رآه الأربعة من النافذة، بيد أن كل واحد منهما لم يكن قد خلع عن جسده ثيابه، ويكون الأمر عبارة عن تبادل للقبلات، أو لعله أبعد من ذلك، فيتعريا تحت الغطاء، لكن الجماع المتكامل الذي ورد تحت مسمى الفاحشة هنا، لم يقع بينهما، وفي زماننا، فقد أتيح للفتاة الخروج من البيت للوظيفة، أو لواجبات أخرى، وقد يحدث أن تنشب علاقة استلطاف بينها وبين شاب، وقد يحدث أن يختليا في حجرة سواء في الدائرة، أو في مكان آخر، ويكونان في وضع مريب، لكن لم

يصل الأمر بينهما حدّ تحقيق الجماع الذي بموجبه يتم فض بكارة المفعول بها، لأن العاقبة ليست سهلة، وهي وخيمة على الاثنين معاً، وعلى عائلتيهما معاً، ولذلك عندما يقع المرء في الزنا، لايتوجب عليه أن يفضح نفسه، وقد ستره الله، بل يتوجب عليه أن يتوب بينه وبين ربه، وحتى إن حامت حوله الشبهة، وجرى معه تحقيق، فعليه أن ينكر ذلك جملة وتفصيلاً، والدين هنا يُبيح له أن يكذب،

لأنه يكذب كذب الستر، والقاعدة إذا أتى الإنسان معصية، عليه أن يستتر، لا أن يُشهّر بنفسه، لأن ذلك قد يكون أمراً عارضاً، والإنسان يمكن له أن يتوب، والتائب عن الذنب، كمن لاذنب له، والحسنات يُذهبن السيئات، وليس كل مَن في الجنة لم يرتكب خطيئة، بل أن كل مَن في الجنة من الناس، قد ارتكب خطيئة، وتاب عنها، فغفر الله خطيئته، وسيّد الناس هو أصلهم آدم، وسيدة الناس، هي أصلهم حوّاء. يقول أبو هريرة :"سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :" كل أمتي معافى إلاّ المجاهرين . وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول :يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر ربه "

﴿١٦﴾

﴿وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

وليس بالضرورة، أن تقع الفاحشة بين رجل وامرأة، بل قد تقع بين رجل ورجل، بما يصطلح عليه في زماننا بالمثلية الجنسية ، ويُقال عنها في بعض دوائر القضاء في بعض بلادنا بـ الفعل المنافي للحشمة ، وفي لغة الطب توصف بالشذوذ الجنسي، وهي التي كانت عند قوم لوط، فقال الله في شأن هذا الفعل الفاحش: ﴿وَاللَّذَانَ﴾تثنية الشاذ الذي﴿يَأْتِيَانِهَا﴾الشاذان اللذان يفعلا المثلية ﴿مِنكُمْ﴾وهذا إثبات آخر بأنالقاعدة العامة للرجال أيضاً هي قاعدة صالحة، والبنية العامة لهم هي بنية سليمة، وقد تم بيان ذلك بالنسبة للنساء من قبل، فقد تم استخراج فردين شاذين ﴿مِنكُمْ﴾من مجموعكم السوي الغير شاذ، متساوياً ذلك مع إخراج الفاحشة﴿مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾من مجموع نسائكم الغير فاحشات، والحكم هنا بالنسبة للرجلين

الشاذين يكون مختلفاً بالنسبة لعملية الزنا المتكاملة التي تقع بين رجل وامرأة، وينجم عنها كل ما قد ذكرناه، فيكتفى عِقابهما بالأذى وفق شرع الله ﴿فَآذُوهُمَا﴾أن تلحقوا بهما الأذى،

بالعودة إلى ﴿وَاللَّذَانَ﴾نرى بأنه تم حذف الياء، لأن القياس هو اللذيان، وفي ذلك يقول سيبويه: (حذفت الياء ليفرق بين الأسماء المكنة، وبين الأسماء المبهمة). ويقول أبو علي: (حذفت الياء تخفيفاً) .

ويبدوا أن الأذى هنا يمس شيئاً من الأذى النفسي، وليس البدني كالجلد، وإن دخل شيء خفيف من الأذى البدني مثل شيء من الضرب بالكف على بدنه، أو الضرب بالنعال، أو لعل توجيه التوبيخ والتقريع له، أو الهجر، أو أخذ الحذر منه بشيء من العزل، حيث لايؤتمَن أن يبقى مع صبي خشية من محاولة اغتصابه كونه رجل شاذ وله سوابق في شذوذه.

قال السدي، وقتادة، وغيرهما:(الآية الأولى في النساء المحصنات، ويدخل معهنّ الرجال المحصنون، والآية الثانية في الرجل والمرأة البكرين)، ورجحه الطبري.

وقيل: (كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل، فخصت المرأة بالذكر في الإمساك، ثم جمعاً في الإيذاء) ورأى قتادة: (كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعاً).

وقد يكون الأمر عارضاً، أو لعله نزوة، وأنهما ندما على ذلك، يقول الله: ﴿فَإِن﴾ استئناف الكلام، وتغيير الحكم ﴿تَابَا﴾ندما على فاحشتهما، وأقلعا عنها، إضافة إلى ذلك﴿وَأَصْلَحَا﴾أصبحا رجلّين صالحَين نافعيَن في المجتمع، فهل يقبلهما المجتمع بعد هذا الانقلاب الذي حصل معهما، أم يرفضهما؟ تأتي حكمة الله هنا ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ كفوا عن كل ما تفعلونه بحقهما سواء يدوياً، أو لفظياً، وموقفكم أيضاً عليه أن يتغيّر بالنسبة إليهما، فقد﴿تَابَا وَأَصْلَحَا﴾فيذكّركم الله:﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً﴾على عباده التائبين ﴿رَّحِيماً﴾بهم.

الباب السابــع
التوبة المقبولة والتوبة المُردّة

﴿١٧﴾

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماًحَكِيماً﴾.

فهؤلاء قد تابوا إلى الله، وليس إليكم، والله الذي كتب على نفسه قبول التوبة، هو الذي يغفر لهم، ولستم أنتم: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ فقد أصبحت توبتهم في عهدة الله بالنسبة :﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ﴾و﴿لِلَّذِينَ﴾بخصاصة وليس بشمول، لأنها ﴿لِلَّذِينَ﴾البعض، وليس الكل، وهذا البعض هم الذين﴿يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ﴾فهذه آيتهم، وآية مَن لاتشملهم هذه التوبة، ستلي هذه الآية﴿بِجَهَالَةٍ﴾ والحقيقة، فإن كل مَن يرتكب ذنباً، إنما يرتكبه ﴿بِجَهَالَةٍ﴾، بمعنى جهالة ما يمكن له أن يترتب على هذا الذنب، فانظر على سبيل المثل عاقبة الزنا كوننا في محور الزنا، ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً، وهو خلقك".

قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟

قال: "أن تقتل ولدك، مخافة أن يطعم معك".

قلت: ثم أي؟

قال: "أن تزاني حليلة جارك".

وجاء في صحيح البخاري، وغيره، عن سمرة رضي الله عنه، في حديث طويل، في خبر منام النبيصلىاللهعليهوسلم،أن جبريل وميكائيل جاءاه، قال: "فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور أعلاه ضيق، وأسفله واسع، فيه لغط وأصوات. قال: فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة،

فإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب صاحوا من شدة الحر، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة، فهذا عذابهم إلى يوم القيامة".

وعن الإمام أحمد والحاكم، وصححه، عن أنس رضي الله عنه قال: "من مات مدمناً الخمر، سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهم".

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

وعن أبي هريرة، مرفوعاً: "إذا زنى الرجل أُخرج من الإيمان، وكان عليه كالظلة، فإذا أقلع، رجع إليه الإيمان".

وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن ريح فروج الزناة والزواني يؤذي أهل النار شدة نتنها ".

"ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله، من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له". "لا يزني الزاني حين يزني، وهو مؤمن".

وفي ذلك يقول الإمام الشافعي:

إن الزنا دَيْنٌ إذا أقرضْتَهُ	كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
مَنْ يَزْنِ في قومٍ بألفي درهم	في أهله يُزنى بربع الدرهم
من يزنِ يُزنَ به، ولو بجداره،	إن كنت يا هذا لبيباً فافهم
ياهاتكا حُرَمَ الرجال، وتابعا	طرق الفساد، عِشْتَ غيرَ مكرم
لو كنت حُراً من سلالة ماجدٍ	ما كنت هتّاكاً لحرمة مسلمِ

فقد خاف هذا المذنب مقام ربه، بعد أن ارتكب الذنب، فتاب من قريب ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ**﴾، وعلى الأرجح أن﴿**مِن قَرِيبٍ**﴾، بمعنى قبل الموت، فكل ما هو قبل الموت، هو فرصة متاحة للإنسان كي يتوب فيها، فالقرب هو كل تلك المسافة الزمنية التي تسبق الموت، فإن

اغتنمها الإنسان، وتاب فيها، سيكون ممن شملهم قول الله تعـالى:﴿ثـمَّ يَتوبُـونَ مِـن قَرِيـبٍ﴾والله أعلم .

عن ابن عُمَر: قال أبو بكر بن مردويه: (حدثنا محمد بن معمـر حـدثنا عبـد الله بـن الحسن الخراساني، حدثنا يحيى بن عبد الله البابلتي حدثنا أيوب بن نَهِيك الحلبي قال: سمعت عطاء بن أبي رباح قال: سمعت عبد الله بن عُمَر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما مِنْ عَبْدٍ مُـؤْمِنٍ يَتـوبُ قَبْـلَ المـوتِ بشهر إلا قَبِـلَ الله منـه، وأدْنـى مـن ذلـك، وقَبْـل موتـه بيـوم وساعة، يعلم الله منه التوبة والإخلاصَ إليه إلا قَبل منه ").

وقال الإمام أحمد: (حدثنا حُسين بن محمد، حدثنا محمد بن مطَرِّف، عن زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن البَيْلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهم: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يَقْبَلُ توْبَـة العبـدِ قبـل أن يمـوتَ بيومٍ " . فقال الآخر: أنتَ سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعـم. قـال: وأنـا سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يقبـل توبـة العبـد قبـل أن يمـوت بِنِصْفِ يوم " فقال الثالث: أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليـه وسـلم؟ قـال: نعـم. قـال: وأنـا سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: " إن الله يقبـل توبـة العبـد قبـل أن يمـوت بضَحْوٍ " . قال الرابع: أنتَ سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم. قـال وأنـا سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله تعالى يقبـل توبـة العبـد مـا لم يُغَرغـر بنفسـه ").

﴿فأُولَـئِكَ يَتوبُ اللّهُ عَلَيهِمْ﴾، فهذا وعد من الله تعالى بأنه يقبل منهم التوبـة، يـروي الإمـام أحمد في مسنده من طريق عمرو بن أبي عمرو وأبـي الهيـثم العُتـوارِي كلاهمـا عـن أبـي سـعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال إبليس: وعِزَّتِك لا أزَالُ أُغْوِيهم مـا دامـت أرْوَاحهُـمْ في أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أزال أغْفِرُ لهم ما استَغْفَرُوني ".

﴿وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾. فالله عليم بما يقدم عليـه الإنسـان، ومغفـرة الله للإنسـان ذنوبـه عنـد التوبـة، فيهـا حكمـة للإنسـان، حيـث لايـرى أبـواب المغفـرة مسـدودة أمامـه، وهـذا يجنّبـه القنوط من رحمة الله، والاستمرار في المعصية كون باب التوبة قد سُد.

﴿وَلَيسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ إِنِّي تُبتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـئِكَ أَعتَدنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾

توبة الله ﴿لَيسَتِ﴾ واجبة ﴿لِلَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ إِنِّي تُبتُ الآنَ﴾ ولكن لماذا ﴿وَلَيسَتِ التَّوبَةُ﴾ لهؤلاء رغم أنهم مازالوا أحياء، فهو يتحدّث ويقول:﴿إِنِّي تُبتُ الآنَ﴾، وقد سبق أن أوردنا أن الله قال لإبليس في الحديث:" وعزتي وجلالي، لا أزال أغْفِرُ لهم ما استَغْفَرُوني"، ثم قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغر بنفسه ". فاعلم أن التوبة في الحالة الأولى هي للذي يُقبل على التوبة دون أن يرى بأنه على وشك الموت نتيجة حادث، أو وقوع عدو عليه فجأة لثأر ما، أو غير ذلك مما يؤدي إلى قتله، أو غرق سفينة فيه، أو حادث مركبة بشكل فجائي، وتحدث التوبة في هذه اللحظات المروعة الأخيرة، فهو يقبل على التوبة باختياره وهو في حالة أمن، دون أي تهديد من أحد، أو من وضع صحي طارئ ،فيكون على سبيل المثال في سربه آمناً، فيندم على ذنبه، وهو بكامل قوته، وحريته، ويقظته، فيتضرّع إلى الله خاشعاً بين يدَيه سائلاً إياه المغفرة، ومتوسلاً إليه قبول التوبة. في حين أن الثاني، قد دهمه الموت لامحالة نتيجة ذاك الطارئ، و﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوتُ﴾ بمعنى رأوا قدومه إليهم، وقدوم الموت هذا هو الذي يجعلهم يقدمون على التوبة، فإن تاب ، فما الذي سيفعله بتوبته، وهو ميّت بعد لحظات وهو يقف على تاريخ من المعاصي دون أن يردعه رادع، فالتائب عليه أن يتوب، وهو يرى بأنه سيعيش بعد توبته، كي يعمل صالحاً ويصلح مما قد فسد، و:﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئَاتِ﴾هود١١٤ بل الأبعد من ذلك:﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾الفرقان٧٠ وحتى لو حدث بشكل مفاجئ وأنه بعد توبته بسنة، أو بيوم، أو بساعة، أو بلحظة قد مات نتيجة حادث، أو ما شاء الله، فهذا تقبل منه التوبة لأنه لم يكن يعلم شيئاً عمّا قد وقع له بغتة، بيد أن الأول يتوب وهو مدرك بأنه لن يعيش، فلم يختر التوبة، بل رأى نفسه مُجبراً عليها، وهو كان ناوياً الاستمرار في المعاصي حتى قبل وقوع هذا الطارئ بلحظة واحدة، أو لعل الطارئ قد وقع له وهو في قلب فعل المعصية، فـ :﴿قَالَ﴾على عجل وهو في ذروة الذعر﴿إِنِّي تُبتُ الآنَ ﴾ وقد وصف الحق حالته بـ ﴿الآنَ ﴾ فاقترنت التوبة بالراهن الذي وقع بغتة و﴿الآنَ﴾ يعني الوقت الذي لم يعد فيه قادراً على مقاومة الموت المحتم عليه في غضون لحظات، ولذلك يتوب لأن الموت لم يعد يتيح له الاستمرار

في المعاصي، ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ★ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾المؤمنون ٩٩، ١٠٠ فهو يتوب عن المعاصي لأنه لم يعد قادراً على ارتكابها، وهذا يُذكّرنا بفرعون الذي قال فيه الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾يونس ٩٠

فيقول الله: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾يونس٩١

في حين أن الثاني، يتوب وهو قادر على ارتكاب المعاصي ، ويرى أمامه متسعاً من الوقت لارتكابها، فهو يتوب ليعيش، لا ليموت، نقيض الذي يتوب ليموت، لا ليعيش.

﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾فقد جعلهم الله في زمرة ﴿ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾فقال تعالى﴿وَلاَ ﴾وقد ساوت الواو بينهما، وكذلك اللام لنفي الخضوع للتوبة معاً، وبالترابط مع مستهل الآية:﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾للزمرتيَن معاً. ﴿أُوْلَـئِكَ﴾أهل الزمرتين معاً ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾وقد جاء العذاب مفرداً مع ألمه كونه سيكون لهما معاً.

ولكن لعل أمراً آخر يقع ، وهو أن هذا الشخص الذي حضره الموت، ولم يقبل الله منه توبته، وبقدرة قادر فقد نجا بأعجوبة من الموت، فهو عندما يعود إلى وضعه الطبيعي، ويختار التوبة من تلقاء نفسه، وهو قادر على ارتكاب المعصية، ويمتلك حرية في ارتكابها، بيد أن توبته تمنعه، فيكون حاله كحال الذي يقبل الله منه التوبة، لأن سبب حضور الموت قد أُزيل، وقد اغتنم هذا الشخص هذا النجاة، ولجأ إلى الله بتوبة نصوح وقلب صادق، ويكون مثله مثل الكافر الذي يتوب إلى الله متخلياً عن كفره، والله أعلم.

الباب الثامــن
ميثاق العلاقة بين الرجال والنساء

﴿١٩﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾

﴿**يَا**﴾ نداء الله إلى ﴿**أَيُّهَا**﴾كافة ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾أصبحوا مؤمنين ، وبناء على ذلك، تترتب عليهم موجبات ما آمنوا به. يخصهم الله: ﴿**لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً**﴾ كما كُنتم تفعلون قبل أن تدخلوا الإيمان، ولذلك فهذا الخطاب خاص بكم وقد أصبحتم مؤمنين، وليس للذين لم يؤمنوا، فهذه السلوكيات الإيمانية الجديدة، سوف تميّزكم عنهم. فلو كان الخطاب لكما معاً، لما تميّز أحدكما عن الآخر، فأولئك يرثون ﴿**النِّسَاء كَرْهاً**﴾، وكنتم معهم تفعلون ذلك، لكن الآن انفصلتم عنهم، فعليكم أن ترتقوا بسلوكياتكم، وتعاملاتكم اليومية عنهم، فإن كان كفرهم أباح لهم هذا التجاوز على حقوق النساء، فإن إيمانكم ينهاكم عن هذا التجاوز. وقد كان يحدث أن المرأة عندما يموت زوجها، كانوا يرثونها، كما لو أنها عقار، أو مال، فيأتي أحدهم، ويرمي بثوبه عليها، فتصبح له، وما دام قد استحلها لنفسه بإلقائه ثوبه عليها، فهو يأخذ منها ما تملك من أموال، أو أنه يزوّجها مَن يشاء، ويأخذ المهر، ولذلك كان ابن الميت من امرأة أخرى، يُسارع إلى ذلك مع زوجة أبيه.

وقد نزلت حسب رواية ابن جريج عن عكرمة: (في كُبَيْشَةَ بنت مَعْن بن عاصم بن الأوس، توفي عنها أبو قيس ابن الأسلت، فجنَحَ عليها ابنه، فجاءت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، لا أنا وَرِثتُ زوجي، ولا أنا ترِكْتُ فأُنكح، فنزلت هذه الآية).

ورواية أخرى عن السدي عن أبي مالك:(كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوبًا، فإن كان له ابن صغير أو أخ حبسها حتى يَشب أو تموت فيرثها، فإن هي انفلتت فأتت أهلها، ولم يلق عليها ثوبًا نَجَتْ، فأنزل الله تعالى :﴿ **لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا** ﴾).

وفي لفظ لابن جرير، وابن أبي حاتم عنه: (فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت، فيرثها)

وقول للزهري، وأبي مجلز: (كان من عاداتهم إذا مات الرجل، وله زوجة ألقى ابنه من غيرها، أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها، ومن أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره، وأخذ صداقها، ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت، فيرثها، فنزلت الآية).

فلا يجوز لكم في شرع ما تؤمنون به أن تكرهوا النساء على الرضوخ لهذا التجاوز عليهن: ﴿**وَلاَ تعضلُوهنَّ**﴾ إن كان الكلام السابق موجهاً إلى أولئك في تصرّفاتهم مع النساء الأرامل اللواتي فُجعن بموت أزواجهن، ثم واجهن هذا التدخل العشوائي في حياتهن، فهذا الكلام موجه إلى الأزواج في حياتهم، هؤلاء الذين يسعون إلى أخذ أموال زوجاتهم منهن ، لكن بطريقة غير مباشرة وصفها الله تعالى بـ ﴿**وَلاَ تعضلُوهنَّ**﴾ ومعنى ذلك أن الزوج يضع زوجته أمام معضلة أن تعطيه صِداقها، أو أنه يُسيء التعامل معها، فيتعمّد استفزازها، وتجريحها ، وحرمانها من بعض الحقوق، أو الزيارات العائلية، وهو يُلمح لها بأنها لو أعطته مِما تملك من الصِداق، كفّ عن ذلك، وهذه هي المعضلة التي رأى الله كيف تواجهها المرأة المغلوبة على أمرها بين أن تنحرم من أموالها، أو أن تنحرم من حياتها الزوجية، فأمر الله تعالى هؤلاء الأزواج: ﴿**وَلاَ تعضلُوهنَّ**﴾، لا تعضلوا زوجاتكم أيها الأزواج: ﴿**لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾فتدفعون لهن صداقهن بيد، ثم تستردونه منهن باليد الأخرى:﴿**إِلاَّ** ﴾يجوز لكم أن تستردّوا ما دفعتم إليهن من صِداق في حالة استثنائية وهي :﴿**أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾أن تخون الزوجة زوجها، فيجوز له هنا أن يُطلّقها ويستردّ منها ما قد قبضته منه كمهر، لأنها قد خانت عقد الزواج معه، وزنت. وهذا رفعاً للظلم على الرجل الذي لعله يكون قد عمل سنوات طويلة حتى تمكّن من جمع مهر له، ثم بعد الزواج يُفاجأ بأنها تأتي الفاحشة، فيحتاج الرجل إلى سنوات طويلة أخرى حتى يجمع مهراً ثانياً، هنا يرفع الله هذا الظلم عنه، فيجعل من حقه أن يستردّ أمواله منها ويُطلّقها، حتى

يتمكن في ذات الوقت من إعطاء هذا المهر لامرأة عفيفة . وقد يتفرّع من الفاحشة الأذى إن أقدمت المرأة على تسبب الأذى لزوجها عن قصد، أوتعمّدت إهانته، أو الاساءة إلى شخصيته الاعتبارية وقد ورأى ابن عباس، وعكرمة، والضحاك :(الفاحشة المبينة: النُشوز والعِصْيان). ورأى ابن جرير أنّه يَعُم ذلك كلّه: (الزنا، والعصيان، والنشوز، وبَذاء اللسان).

﴿٢٠﴾

﴿وَإِنْ أَرَدتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾

تستمر السورة في تناول تفرّعات بنبة هذه العلاقة بين الرجل والمرأة، فتأتي هنا إلى الطلاق الذي يؤدّي إلى انفصال بين الرجل والمرأة، وما يمكن له أن ينجم نتيجة هذا الانفصال، والله يحض على الاتصال، ولا يحض على الانفصال، لكن تبقى الحرية الشخصية مكفولة عند الله، حتى لو أدّت هذه الحرية إلى انفصال بين الزوجَين، رغم ما يمكن له أن يترتب على هذا الانفصال من تفرّعات انفصالية بالنسبة لأولي القرب منهما، لكن الأولوية تبقى للحرية الشخصية، لأنهما سيعيشان مع بعضهما عمراً بكل أو قاته، ولن يكون بوسعهما أن يستمرا في الحياة بشكل جيّد إن رأى أحدهما أن الآخر مفروض عليه، أو أنه مفروض على الآخر لاعتبارات اجتماعية متعددة، ولذلك يتدخّل الله في هذه الجزئية من لب العلاقة الزوجية، ليبيّن بأن هذه الاعتبارات هي ليست من الله، بل هي من الناس، فإن عملوا بها، لاحرج، وإلاّ فإن الله يكفل لهما الحرية الشخصية في استمرارهما معاً، أو انفصالهما عن بعضهما، لأن الحياة ليست مقتصرة على العلاقة الزوجية، والعلاقة الزوجية غير المستقرة قد تفرز سلبيات على حياتهما برمتها بما في ذلك مسألة تنشئة الأبناء الذين سيترعرعون في كنف أبوَين لايود أحدهما الآخر، بل بات أحدهما ينفر من الآخر، ولايأبى حتى أن يسمع له نبرة صوت، فيبيّن الله تعالى بأن هذا ليس من الله في شيء، بل هو من الناس أنفسهم، فانظر إلى مساحة الحرية الشخصية في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾انظر إلى مساحة الحرية في الاختيار في ﴿وَإِنْ أَرَدتُمُ﴾فلكم حرية أن تريدوا، وحرية ألاّ تريدوا، فإن شئتم و﴿أَرَدتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾فلكم ذلك رغم كل ما ينجم عنه من حالات انفصال.

عن محارب بن دِثار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " ومعنى ذلك ألاّ يتسرّع الإنسان في الطلاق، لأنه قد يكون في حالة نفسية غير مهيأة لاتخاذ قرار تحولي كبير كهذا، ورغم ذلك، فقد أذن الله للزوج أن يُعيد زوجته إلى عصمته عندما يكون في حالة انفعال وهو يطلّقها، لكن الأولى أن ينتظر الرجل، ويأخذ فسحة من الوقت حتى يرى بأن قراره مبني على وقائع ثابتة، ويُستحسن أن يمهل الرجل نفسه وقتاً يمرّ فيه بفصول السنة الأربعة، لأن البعض يكون في وضع نفسي في الصيف، مختلف عنه في الشتاء، وفي الخريف، مختلف عنه في الربيع، فهذه العوامل قد تتسبب في تسرّعه في اتخاذ قرار كهذا، فتراه طلّق زوجته في الصيف، ثم توسل إلى مفتي ليرى له فتوى بإعادتها في الشتاء، ثم يعود ويُطلّقها في الخريف، ليندم على ذلك، ويسعى إلى إعادتها في الربيع، بل قد تكون الأوقات أكثر قرباً من ذلك، وهذا دليل الانفعال المتحرّك، وليس دليل الثبات الثابت، لكن على كل حال: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ**﴾فعليك أن تتوقف ملياً أمام دقة استخدام كلمة﴿**اسْتِبْدَالَ**﴾فليس من السهولة أن تستبدل زوجة بأخرى، فقد تمتلك هذه المرأة من مزايا لاتمتلكها الأخرى، فينقلب الأمر عليك، وقد رأينا أن البعض بعد أن استبدل زوجته بأخرى، فوجئ بأن ذلك ليس سهلاً، فطلّق الثانية، وأعاد ترجيع الأولى. لكن سواء أكنتم على افتعال، أو كنتم على ثبات في شأنكم الشخصي هذا: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً**﴾ فهذا هو شرط الله عليكم بالاّ تعتدوا على أموال زوجاتكم المطلقات، حتى لو كنتم أعطيتموهن ﴿**قِنطَاراً**﴾ مالاً كثيراً كصِداق، وليس بالضرورة أن ينحصر القنطار بنقد المال، بل قد يكون في الذهب، وبعض الحاجات المنزلية التي تشتريها المرأة بمالها، فالمرأة عندما تتزوّج، ترى بأنها استقرّت في بيت زوجي، ولذلك تقوم بتأثيث البيت من تلقاء نفسها، لأنه بيتها، ولايخطر لها أنها ذات يوم ستخرج منه، ويستبدلها زوجها، بزوجة أخرى، وستأتي الآية التالية التي تذكّر الأزواج بكل هذه الحالة النفسية التي تعيشها المرأة، لذلك فهي تقوم بتأثيث البيت، رغم أن ذلك لايقع على عاتقها، بل يتوجب على الزوج أن يشتري لزوجته ثياباً، وفراشاً، وصحوناً تأكل فيها، وكاسات تشرب بها، ومستلزمات الطبخ، والغسيل، وما تحتاجه الحياة اليومية، لكن المرأة، تتجاوز للرجل وتعفيه من ذلك ، فتريد أن تكون شريكة له في بناء العش الزوجي، فتشتري حتى الصحن الذي سيأكلان فيه، وتشتري حتى السرير الذي ينامان عليه، تشتري له حتى أدوات الحلاقة، والثياب، بل وتشتري حتى لأهله،

وذلك كبادرة حُسن نية منها، وهي تستفتح الصفحة الأولى من حياتها الجديدة، دون أن يخطر لها أن الرجل قد يجحد كل ذلك ذات يوم جملة وتفصيلاً لأمر بسيط قد لايكون لها أي شأن فيه، ثم يقتلعها من بيتها، وأولادها، وذكرياتها، وعلاقاتها الاجتماعية الجديدة، ويردّها إلى أبيها، فحتى إن أقدم على ذلك، سيكون له ما يفعل، ويكون للمرأة أنها أحسنت إليه خلال كل تلك العشرة الزوجية، وأخلصت لحياتها الزوجية كل الإخلاص، وتسلّم أمرها لله الذي له حكمة في كل ما يحدث. وإن فعل الرجل كل ذلك، فيحذره الله بألاّ يتجاوز على أموالها، وممتلكاتها بقوله:﴿**أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثماً مُبِيناً**﴾ألا يكفي ما لحق بهن من أذى نتيجة تركهن لهن وحرمانهن من بيوتهن، كذلك تستولون على أموالهن وممتلكاتهن:﴿ **بُهْتَاناً وَإِثماً مُبِيناً**﴾فإن تأملت في كلمة البهتان، رأيتها تحمل شيئاً من الاحتيال، ومحاولة لإفساد عمل صالح سابق، فالرجل قد أعطى المرأة صِداقها، وعاهدها بأنه بات لها، ولا يحق له أن يستولي عليه، ثم أنه الآن، ينكث بعهده، فيفسد ذاك الصالح في بدء حياته الزوجية، فيرتكب بطالحه هذا ﴿**إِثماً مُبِيناً**﴾ذنباً على بيّنة منه، وذلك لأنه في حال امتناعها قد يلجا إلى الإساءة لسمعتها، والنيل من عفتها﴿**بُهْتَاناً**﴾ فتكف المرأة بلاه عنها وتعطيه، فذلك من أمهات الكبائر، ﴿**وَإِثماً مُبِيناً**﴾.

وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: " الله يعلم أن أحدكما كاذب. فهل منكما تائب " ثلاثا. فقال الرجل: يا رسول الله، مالي قال: " لا مال لك إن كنت صدَقْت عليها فهو بما استحللت من فرجها وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها " .

وأخرج ابن عساكر عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إن الله لما خلق الدنيا لم يخلق فيها ذهبا ولا فضة ، فلما أهبط آدم وحواء أنزل معهما ذهبا وفضة ، فسلكه ينابيع في الأرض منفعة لأولادهما من بعدهما وجعل ذلك صداقا لحواء ، فلا ينبغي لأحد أن يتزوج إلا بصداق" .

فالرجل يُكثر لزوجته من الصِداق ما شاء، وكان عمر بن الخطاب ذات يوم قد نهى عن كُثر الصِداق، لكن امرأة ذكّرته بهذه الآية، وجعلته يعدل عن نهيه . يقول الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَة، حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الرحمن، عن المجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم في صُدُق النساء وقد كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأصحابه وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفنَّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نَهَيْتَ الناس أن يزيدوا النساء صداقهم على أربعمائة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًافَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ قال: فقال: اللهم غَفْرًا، كُلُّ الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: (إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب).

﴿٢١﴾

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾

ثم نرى كيف أن الله جل ثناؤه يُذكّر الأزواج بحميمية العلاقة الزوجية بقوله:﴿**وَكَيْفَ**﴾ بأي وجه ﴿**تَأْخُذُونَهُ**﴾ تستردّونه﴿**بُهْتَانًا**﴾منهن :﴿**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾تجمع كلمة﴿**أَفْضَى**﴾ بين ثناياها كل طقوس العشرة الزوجية من ملامسة، ومداعبة، ومسامرة، ومحادثة، ومجامعة، في عالم متكامل من الذكريات الزوجية ، فالرجل عليه أن يتذكّر جيداً بأن ذلك كله حدث بينهما على أساس الصِداق وفق كلمة الله، فإن أراد إفساد هذا الصِداق في خاتمة علاقتهما الزوجية، كأنه يسيء إلى أساس تلك العلاقة، ويهرّها في أساس شرعيتها، بأي وجه، وقد فضفض بعضكم إلى بعض، نفّس بعضكم عن كربة بعض:﴿**وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ عهداً بحفظ العشرة الزوجية، فقد ارتضى بها ناموساً له، وأمّاً لأبنائه، ورفيقة لحياته، فبأي وجه بعد ذلك يقذفها بالسوء من أجل أن تتنازل له عن مالها، وأي رجل متجاوز لحدود الله هذا، وهو يجيز لنفسه هذا الإثم المبين، فالميثاق الغليظ قد حدث بينهما وهو يُشهد الله ورسوله على الوفاء بهذا الميثاق، وفي هذا يُروى أن الله تعالى قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء:" جعلت أمتك لا تجوز لهم خُطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي". رواه ابن أبي حاتم. فبذلك أُحلت له، وعلى ذلك أعطاها ميثاقاً غليظاً بأن يكون زوجاً صالحاً لها، يُراعي فيها حدود الله. فهي تذكرة من الله بأنكم أيها الأزواج أعطيتم زوجاتكم ميثاقاً غليظاً:

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ فهل ستخونون هذا الميثاق الذي أعطيتموهن؟ ويُذكّر النبي كذلك الأزواج بقوله لهم: "فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله".

وهذا لايعني أن طول فترة الزواج شرط للوفاء بالعهد، بل لمجرد أن المرأة أصبحت زوجته، فقد وجب لها ما يجب لأي زوجة قديمة. روى الدارقطني عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق " . وقال عمر: (إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث).

فقد أخذت المرأة من الرجل ميثاقاً غليظاً بشهادة الله الذي يأمر الأزواج:﴿**فإمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان**﴾ البقرة٢٢٩

﴿٢٢﴾

﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً﴾

يبيّن الله للناس سبل أنسنة العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة كي يرتقي الإنسان بهذه العلاقة، ويبني مجتمعاً قوامه العفة، فهي ضوابط تضبط غريزة الإنسان من الانفلات، وتوظفها في منظومة القيم

الإنسانية، فكيف للإنسان أن ينكح امرأة قد نكحها أبوه، حتى وإن لم تكن أمه، فزوجة الأب، هي بمثابة الأم الثانية، وأبناؤها من أبيك هم أخوة لك، فكيف يستوي أن تكون أخاً لأخيك، وبذات الوقت تكون زوجاً لأمه؟! بذلك ترى الله يرسخ الأخلاق، والقيم، والمبادئ الإنسانية في بنية المجتمع الإنساني المُحترَم: ﴿**وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء**﴾وذلك حفظاً لمكانة الأب، وإكراماً لمنزلته. قال ابن أبي حاتم: (حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث بن سَوَّار، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قَيْس - يعني ابن الأسلت- وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعُدُّكَ ولدا وأنت من صالحي قومك، ولكن آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره. فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبا قيس توفِّي. فقال: " خيرا ". ثم قالت: إن ابنه قيسًا

خطبني وهو من صالحي قومه. وإنما كنت أعده ولدًا، فما ترى؟ فقال لها: " ارجعي إلى بيتك " . قال: فنزلت هذه الآية:﴿ وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا قَدْ سَلَفَ﴾).

وجاءت ﴿إِلا﴾مستثناة، لأن الناس في الجاهلية كانوا يتزوجون من زوجات آبائهم، وكذلك من أخوات زوجاتهم، فلو كان شخصاً قبل نزول الآية قد ولد نتيجة زواج كهذا هل يكون ابن نكاح، أم ابن سفاح؟:﴿إِلا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ تضع الإجابة على هذا السؤال، فـ ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾يعني ما قد وقع قبل نزول هذه الآية، وذلك حتى لايقع اهتزاز، أو شرخ في بنية المجتمع، لأن الحالة معمول بها، وعلى ذلك توجد ذريات، فبدءاً من الآن: ﴿لا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ﴾، وأما ما قد مضى، فلا حرج عليكم فيه، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في واقعة يرويها السهيليبأن:(كِنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال: وقد قال صلى الله عليه وسلم: "وُلِدتْ من نِكاحٍ لا من سِفَاحٍ ").

﴿٢٣﴾

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

ثم نأتي إلى التحريم المباشر باللفظ الذي لايقبل أي تأويل بسبب قوة وبيان الكلمة المباشرة الجلية التي يستهلها الله بالنسبة لنساءٍ هنَّ الأقرب إلى الرجل، فقال جل وعلا:﴿حُرِّمَتْ﴾ بشكل قاطع ﴿عَلَيْكُمْ﴾نكاح:﴿أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ يبدأ الله بمن هن أكثر قرباً، فأمك التي أنت منها، وابنتك التي هي منك، وبعدهما تحل الأخت سواء أكانت من أبويك، أم من أحدهما، ثم تتدرّج صلة القرابة: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾أخوات الأب﴿وَخَالاَتُكُمْ ﴾أخوات الأم ﴿وَبَنَاتُ الأُخْتِ ﴾وأنتم أعمامهن ﴿وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾ وأنتم أخوالهن. فالنساء السبع المذكورات هن الأكثر قرابة للرجل في صلة الدم، يعلّمنا الله تعالى بذلك أن صلة الدم بالأم هي الأكثر قرباً، وتأتي في الدرجة

الإمتيازية الأولى، والابنة أكثر قرباً من الأخت، والأخت أكثر قرباً من العمّة، والعمّة أكثر قرباً من الخالة، والخالة أكثر قرباً من ابنة الأخ، وابنة الأخ أكثر قرباً من ابنة الأخت.

ثم نأتي إلى سبع أخريات هن أدنى من ذلك، ولاتوجد بينهن وبين الرجل صلة دم أو نسب ﴿وَ﴾ هن:﴿أُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾فقد بلغت المرضعة التي لم تنجب المولود منزلة الأم له، لمجرد أنها أرضعته.روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مالك بن أنس، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الرضاعة تحرم ما تحرّم الولادة "

وكما أننا كنا مع سبع واضحات، لاموضع للتأويل فيهن، فإننا هنا مع سبع يحتملن شيئاً من التأويل، فلو مصصتَ مصة صغيرة من ثدي امرأة، هل أصبحت أماً لك، أم أن الرضاعة تتكامل مع عدد المرات، فينبت لحم الطفل بتلك الرضاعة. فقد وقفت الآية على الرضاع فقط، وقد يكون ذلك لمجرّد الرضاع، سواء أكان مرة واحدة، أو تعددت الرضعات، سواء أكان مصة صغيرة، أو رضعة كاملة حتى الشبع. لكن يبقى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سنداً لبيان ذلك، ففي صحيح مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال:" لاتحرِّم المصة والمصتان".

وقال قتادة،عن أبي الخليل، عن عبد الله بن الحارث، عن أم الفضل قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تحرم الرَّضْعَة ولا الرضعتان، والمصَّة ولا المصتان " ، وفي لفظ آخر: " لا تحرم الإمْلاجَة ولا الإملاجتان "رواه مسلم . وليست المرة الوحيدة التي أسمى فيها الله تعالى امرأة بالأم وهي ليست أما بالولادة، فقد وصف تبارك وتعالى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن أمهات المؤمنين، رغم أنهن لم يرضعنهم أيضاً.

وقد رأى الشافعي في مذهبه أن :(الرضاع يحرم بشرط أن يكون خمس رضعات).

﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ وكما أنها تحرّم عليك، فإن ابنتها أيضاً تحرّم عليك، كونها بمنزلة أملك، وابنتها بمنزلة أختك

قال أبو نعيم عبيدالله بن هشام الحلبي: (سئل مالك عن المرأة أيحج معها أخوها من الرضاعة؟ قال: نعم. قال أبو نعيم: وسئل مالك عن امرأة تزوجت فدخل بها زوجها. ثم جاءت امرأة فزعمت أنها أرضعتهما؛ قال: يفرق بينهما، وما أخذت من شيء له فهو لها، وما بقي عليه فلا شيء عليه. ثم قال مالك: إن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن مثل هذا فأمر بذلك؛

فقالوا: يا رسول الله، إنها امرأة ضعيفة؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أليس يقال إن فلانا تزوج أخته ")

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ﴾لأنها بمثابة أم لصهرها، وهي جدّة لأبنائه، ثم :﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾الربيبة هي ابنة المرأة التي تزوّجها الرجل ، فهي ربيبته، أي هو الذي يربّيها، وهي من رجل آخر، لكنها أتت تعيش مع أمها في بيته، فهي هنا تأخذ منزلة الابنة بالنسبة إليه، بل قد تناديه بـ أبي، كما أن الابن ينادي زوجة أبيه بـ أمي.

فإذا تأمّلنا في هذا التشريع الإلهي الحكيم، سنرى كم أنه يحفظ ويراعي مشاعر المرأة في أمومتها، فلو اضطرت امرأة للزواج ثانية لأي سبب كان، ومعها ابنتها، ستجد صعوبة بين أن تتزوّج، وبين أن تبقى مع ابنتها في بيت واحد، كون هذا الرجل هو غريب على الابنة، والحياة اليومية في بيت واحد سيجعلها تختلي به، ثم أن الابنة وزوج الأم يريان نفسيهما في حصار في بيتهما، كونها تكون حذرة منه، ويكون حذراً منها، وحتى الأم ستكون في قلق إذا بقيا بمفردهما في البيت، إن اضطرت للخروج، والأمر الآخر، قد يتدخّل أقرباء الابنة من أبيها ليأخذوها من أمها، كون ابنتهم تعيش مع رجل ليس محرّماً عليها، وبالتالي قد يحدث بينهما ما لايحمد عقباه، فانظر إلى دقة التشريع الحكيم الذي جاء ليعالج كل هذه المستجدّات جملة واحدة، ويوظفها في صالح الحفاظ على مشاعر الأمومة، دون أن تنحرم من الزواج الثاني الذي وجدت نفسها مضطرة إليه، وبذات الوقت دون أن تنحرم من البقاء مع ابنتها التي تحتاج إلى رعايتها، فأوجد هذا التشريع حالة خاصة من التحريم اقترنت بضرورية وجود البنت مع أمها ﴿فِي حُجُورِكُم﴾وهذا يعني أن البنت إن كانت متزوّجة، أو تعيش في بيت آخر في غِنى عن: ﴿حُجُورِكُم﴾يخرج عن نطاق هذا التشريع الخاص، لأن التشريع مشترط بوجودهن:﴿فِي حُجُورِكُم﴾، فإن غاب هذا الشرط، توقف التشريع به، ومثل ذلك، فإن شرط :

﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾يلغيه قوله جل ثناؤه:﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ والله أعلم.

﴿وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ ﴾زوجات أبنائكم، والحليلة هي الزوجة، لأنها أحلت له بكلمة الله ، فهي حليلته ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾بين امرأة وأختها في الزواج، فقيّد التشريع بـ﴿تَجْمَعُواْ﴾ولم يقل: وأن تتزوجوا أختين، كي يترك فسحة للحرية، أو لبعض الحالات الاضطرارية التي يرى فيها الرجل، او المرأة صالحهما فيها، فيحل لك أن تتزوّج أختين، لكن

بشرط ألاّ تجمع بينهما في عقد واحد، بمعنى لايكونا معك في وقت واحد، فإن انفصل رجل عن زوجته لأي سبب كان، جاز له أن يتزوّج أختها، لأن ذلك ليس جمعاً بين أختين في عقد واحد.

﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ وما قد سلف في ذلك، فقد عفا عنه الله تعالى بمغفرته ورحمته، فإن المسلم، عليه أن يلتزم بهذا الشرع الجديد اعتباراً من الآن.

ومما يُروى أن فيروزاً الديلمي عندما أسلم، وكانت عنده ثمان زوجات، قال له النبي صلى الله عليه وسلم:" اختر أربعا وفارق سائرهن ".

قال الإمام أحمد بن حنبل: (حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لَهِيعة عن أبي وهْب الجيْشاني عن الضحاك بن فيروز، عن أبيه قال: أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمَرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أطلق إحداهما).

يقوم الشافعي: (إذا أسلم الكافر وتحته أختان اختار أيتهما شاء وفارق الأخرى). ويقول أبو حنيفة:(إن كان قد تزوج بهما دَفعةً واحدةً فرق بينه وبينهما، وان كان قد تزوج بإحداهما أولا وبالأخرى ثانيا، اختار الأولى وفارق الثانية).

الباب التاســع
مُحصَنات ومُحصِنون

﴿٢٤﴾

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

لم تكن تلك هي كل الحدود في جوهر ميثاق العلاقة بين الرجال والنساء، فيضيف الله في هذه الآية النهي من العقد على امرأة متزوّجة، وهذا مُضاف إلى:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾، فما تزال الواو مستمرة في العطف، فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء﴾المتزوّجات من النساء، وقد جاءت كلمة﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾بالغة الدلالة، فالحصانة، هي المناعة:﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾الأنبياء ٨٠. يُقال: هذا الرجل رُفعت عنه الحصانة. بمعنى رُفعت عنه المانعة، بعد أن صُرف من وظيفته التي كانت تحقق له الحصانة. والمرأة المحصَنة، هي المرأة التي يُحصنها زوج ، وهي امرأة ممنوعة - بموجب عقد الزواج الشرعي - على غير زوجها، وإن تجاوزت هذا الحصن، كان لها العقاب الشديد الذي يفوق عقاب غير المحصنة، فهي لها ما لها، وعليها ما عليها، فقد أكرمها الله تعالى بأن حصّنها بزوج:﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾النور٤

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾النور٢٣

فهي مُحصَنة بزوج حصين لها، ولذلك ترى الزوج يشعر بالمسؤولية تجاه حصانته لزوجته، ويشعر بأن ذلك يقع على عاتقه، وهي كذلك مطلوب منها ألا تخرج إلاّ بإذنه، ولعل لشدة حرص الرجل على زوجته، وشدّة حصانته لعفتها، فقد قال النبي في حقه: "لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"، ويقول: " من تزوج فقد حصن ثلثي دينه ". لذلك نرى بأن الشرع قد كفل لهذا الزوج بمقابل حصانته لزوجته، بأن حظرها على غيره، ولم يجز لرجل آخر أن يعقد على امرأة مُحصّنة:﴿**إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ**﴾شرع ﴿ **اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ . ثم يقول جل جلاله: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ** ﴾ما دون ما تم ذكره وبيانه من النساء المحرّمات عليكم، وهذا فتح المجال للناس للزواج من ابنة العمّة، أو ابنة الخالة، وما إلى ذلك من النساء المقرّبات اللواتي لم يحرّمهن الله تعالى، فهن يقفن:

﴿**وَرَاء ذَلِكُمْ** ﴾المُحرّم.

﴿**أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾ كلمة ﴿**مُّحْصِنِينَ**﴾هنا هي تأكيد بتحصين الرجل لزوجته. يقول حسان في عائشة رضي الله عنها:

(حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل).

﴿**مُّحْصِنِينَ**﴾أ ي تحصنون النساء، وللتأكيد أكثر على المعنى، جاءت الكلمة النقيض لها: ﴿**غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾وهي كلمة تشير إلى الجريمة، يُقال: هذا سفّاح، أي يسفح دماء الناس، يقول الله:﴿**أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً** ﴾الأنعام ١٤٥، والسفّاح هنا هو الذي يسفح أعراض الناس،﴿**غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾أي غير زانين، والفاء المكسورة، تشير أيضاً أنه ليس بالضرورة أن تزنوا بامرأة زانية، بل لا تستدرجوا أيضاً امرأة عفيفة إلى الزنا سواء بطرق مباشرة، أو غير مباشرة، مثل استغلال بعض الحاجات للنساء، وفي زماننا مع توسع عمل المرأة، قد يُشير المدير للمرأة بأنها إن استجابت له، سيرفع من مرتبتها، وراتبها معاً، وإن لم تستجب، يسيء معاملتها، ولعل المرأة في حال عدم قوة إيمانها تستجيب، وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من المرأة الجميلة في المنبت السيء في حديث: "خضراء الدمن"، وهذا يعني أن المرأة عليها، أن تعمل بكل إمكاناتها كي تخرج من المنبت السيء، أو من الدائرة السيئة، وتحافظ على عفتها من سَفّاح النساء ذاك الذي امتهن السِفاح في تلك الدائرة، أو ذاك المنبت، وتسأل الله العوض، ذلك أن المؤمن هو إنسان مُحصِن غير مسافِح.

قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ قال: (مُتَزَوِّجين غير زُناةٍ، والإحْصانُ إِحْصانُ الفرج وهو إِعْفافُه؛ ومنه قوله تعالى:﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي أعفَّتـه). قـال الأزهـري:(والأمة إذا زُوِّجَتْ جازَ أن يقـال قـد أُحْصِنَت لأن تزويجها قـد أحْصَنَها، وكـذلك إذا أُعْتِقَـتْ فهـي مُحْصَنَة، لأن عِتقَها قد أعفَّها، وكذلك إذا أسلَمت فإِن إسْلامَها إِحْصانٌ لها). قـال سـيبويه:(وقـالوا بناءٌ حَصِينٌ وامرأة حَصَان، فرقوا بين البناء والمـرأةِ حـين أرادُوا أن يخـبروا أن البنـاء مُحْـرِز لمـن لجأ إليه، وأن المرأة مُحْرِزة لفَرْجها).

﴿٢٥﴾

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَـاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَـاتِ وَاللّـهُ أَعْلَـمُ بِإِيمَـانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِـنَّ وَآتُـوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فإن عجز رجل عن تقديم المهر، والتكفـل بمتطلبـات المـرأة العفيفـة المؤمنـة، وقـد وردت هنـا ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾بمعنى العفيفات والحرائر المؤمنات، سـواء أكانـت أرملـة، أو مطلّقـة، أو عازبة، الحاصل أنها حالياً دون زوج، وعلى أهلية شرعية للزواج، فـإن لم تمكّنـه ظروفـه لتلبيـة متطلبات ومسـتوجبات النكـاح منهـا، وبـذات الوقـت﴿لَـمْ يَسْتَطِعْ﴾ صـبراً، ويخشـى علـى نفسـه الوقوع في الزنـا، لأنه لايجد أملاً قريباً في النكاح من المرأة المؤمنـة العفيفـة الحـرة، ابنـة الأصـول، هنا يُجيز له الله أن يتزوّج الأمة المؤمنة:﴿فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾وذلك وقاية له من الانزلاق إلى الزنـا، لكن ذلك مشروط بعدم المقدرة على الـزواج مـن الحرائـر، كـذلك عدم الطاقـة علـى الصبر، وقـد رُوي عـن هشـام الدسـتوائي، عـن عـامر الأحـول، عـن الحسـن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن تنكح الأمة على الحـرة، وتـنكح الحـرة علـى الأمـة، ومـن وجد طَوْلا لحرة فلا ينكحُ أمةً.

ثم يبيّن الله في خطابه إلى المؤمنين:﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بعضكم يكتمل بـبعض في الإيمـان، والله أعلـم بإيمـانكم، ولا

يجوز لهذا المضطر أن ينكح الأمة إلاّ بإذن سيدها، والأمر ذاته يجري على العبد، حيث لايستطيع أن يتزوّج إلاّ بإذن سيده، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" أيما عبد تـزَوّج بغير إذن مَوَاليه فهو عَاهِر " بمعنى هو زان.

ويقول : " لا تزَوِّجُ المرأةُ فإن الزانية هي التي تزوج نفسها ". يتبيَّن هنا أن المرأة وإن كانت مالكة لأمة، فلايجوز لها أن تزوّجها، فهي أمور تقع على عاتق الرجال، وقد عفا الله المرأة من عواقب هذه المسؤولية لحكمته في ذلك.

إننا نحتاج أن نطلع على كل هذه المراحل التي مرّ ت الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، حتى نُدرك المراحل التي مررنا بها حتى بلغنا ما بلغنا، وهذا بذاته يبيّن لنا حجم الثبات الذي استقرّ عليه جوهر العلاقة الاجتماعية ، وهو يقف على كل هذه التحوّلات، ولذلك نرى أن الانحراف عن هذه الثوابت يؤدي إلى حالات سلبية متفاقمة على العائلة، ولعل هذا ما يحدث عندما نرى أن المرأة هي التي تدير زمام أمور زواج نفسها، أو زواج بناتها، وينقاد الرجل خلفها حيث تقوده راضخاً لقرارها حيث تقر، وبذلك فهي تتجاوز ما قد عفاها الله تعالى عنه، ويتنحى الرجل عن مسؤولية أولاها الله له. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لن يُفلِح قومٌ وَلَّوا أمْرَهُم امرأة " رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه.

لذلك نرى أشكال التفكك العائلي في بعض العائلات التي تتولى فيها المرأة مثل هذه المسؤولية، وكذلك نرى أشكال الفشل في الزواج، إذا انحرفت الفتاة عن هذه الثوابت، مثلما يحدث بالنسبة لِما يُقال عنه بالزواج العرفي، أو تقوم فتاة بتزويج نفسها سراً لشاب، أو تمنحه من عفافها ما ليس له إلاّ بشروط عقد الزواج متكاملة، فيدفعان معاً ضريبة هذه العلاقة اللاتكاملية في النكاح الذي فصّل الله تعالى برحمته ورأفته بالعباد شروطه التوافقية، تلك الشروط التي تكون كفيلة في بناء حياة زوجية وعائلية سعيدة طيبة.

﴿ **مُحْصَنَاتٍ**﴾ عفيفات﴿**غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**﴾ غير زانيات على العموم، كأن تمتهن المرأة الزنا لعامة الناس. يقول ابن منظور في باب سفح: (التّسافُحُ والسِّفاح والمُسافحة: الزنا والفجور ، تقول: سافَحْته مُسافحة وسِفاحاً، وهو أن تقيم امرأةٌ مع رجل على فجور من غير تزويج صحيح؛ ويقال لابن البَغيِّ: ابنُ المُسافِحةِ والمُسافِحة: الفاجرة).

وقال أبو إِسحق:(المُسافِحة التي لا تمتنع عن الزنا، وسمي الزنا سِفاحاً لأنه كان عن غير عقد، كأنه بمنزلة الماء المَسْفوح الذي لا يحبسه شيء)، وقيل:(سمي الزنا سفاحاً لأنه ليس ثمّ حرمة نكاح ولا عقد تزويج، وكل واحد منهما سَفَحَ مَنِيَّته أي دَفَقَها بلا حرمة أباحت دَفْقَها) .

كذلك يبيّن الله:﴿ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ غير زانيات بشكل فردي، كأن تتخذ المرأة خليلاً في السر. يقول ابن الفارس في مقاييس اللغة باب خدن: (الخاء والدال والنون أصلٌ واحد، وهو المصاحَبَة. فالخِدْن: الصّاحب. يقال: خادنْتُ الرّجُلَ مخادنةً. وخِدْنُ الجارية محدِّثها. قال أبو زيد: خادنت الرّجلَ صادقته. ورجل خُدَنةٌ: كثير الأخْدان).

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ بزواجهن وتعففن به.روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا مرفوعًا، قال: (حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدمشقى حدثنا أبي، عن أبيه، عن أبي حمزة، عن جابر، عن رجل، عن أبي عبد الرحمن، عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ قال: " إحصانها إسلامها وعفافها ").

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾وبعد ذلك حُنّ عقد النكاح: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ نظراً لأنها أمة، وليست حرّة، وقد اختلفت نشأتها عن نشأة المرأة الحرّة.

روى مسلم في صحيحه، عن علي، رضي الله عنه، أنه خطب فقال: (يا أيها الناس، أقيموا على أرقَّائكم الحد من أحْصَنَ منهم ومن لم يُحْصَن، فإنَّ أمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زَنَتْ فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس، فخشيت إنْ جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " أحْسَنْتَ، اتركها حتى تماثل ").

وعن أبي هريرة قال:(سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زَنَتِ الثانية فليجلدها الحد ولا يُثرِّبْ عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها، فليبعها ولو بحَبْل من شَعَر ").

لقد أجاز الله تعالى ذلك بشرط :﴿ذَلِكَ﴾ نكاح الأمة المملوكة ﴿ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾ الوقوع في الزنا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أيها الرجال الذين لاتملكون المقدرة على الزواج من الحرائر.

﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا ﴾ أن تطيقوا مقاومة الوقوع في﴿ الْعَنَتَ﴾﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من نكاح الأمة.

يقول ابن منظور في باب عنت:(العَنَتُ: دُخُولُ المَشَقَّةِ على الإِنسان، ولقاءُ الشدَّةِ؛ يقال: أَعْنَتَ فلانٌ فلاناً إِعناتاً إِذا أَدْخَل عليه عَنَتاً أَي مَشَقَّةً.

وفي الحديث: "الباغُونَ البُرَآءَ العَنَتَ" قال ابن الأَثير: العَنَتُ المَشَقَّةُ، والفساد، والهلاكُ، والإِثم، والغَلَطُ، والخَطأُ، والزنا: كلُّ ذلك قد جاء، وأُطْلِقَ العَنَتُ عليه، والحديثُ يَحْتَمِلُ كلَّها؛ والبُرَآء جمع بَرِيءٍ، وهو والعَنَتُ منصوبان مفعولان للباغين؛ يقال: بَغَيْتُ فلاناً خيراً، وبَغَيْتُك الشيءَ: طلبته لك، وبَغَيتُ الشيءَ: طَلَبْتُه؛ ومنه الحديث: "فيُعنِتوا عليكم دينكم "أي يُدْخِلوا عليكم الضَّرَر في دينكم؛ والحديث الآخر: "حتى تعْنِته "أي تشُقَّ عليه.

وفي الحديث: "أيُّما طَبيب تطَبَّبَ، ولم يَعْرِفْ بالطِّبِّ فأَعْنَتَ، فهو ضامِنٌ"أي أَضَرَّ المريضَ وأفسده).

ذلك أن هذا النكاح يترتب عليه بناء عائلة، وقد يلحق الأذى من جراء ذلك بالأبناء والبنات، لأنهم سيعيشون حالة ازدواجية بين أنهم أبناء سيّد حر، وأبناء عبدة مملوكة ، ولم يكن المجتمع في ذاك العهد يُساوي بين أبناء الإماء، وبين أبناء الحرائر، ولذلك أخبرهم الله بأن الصبر خير لهم من ذلك:﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿٢٦﴾

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وفي ذلك بلّغ عبادي يا محمّد، وقل لهم أن إرادة الله تكمن في أنه ﴿يُرِيدُ﴾رأفة ورحمة منه أن يرفع عنكم الجهل أيها الناس:﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ليوضح لكم حتى تخرجوا من الضلالة إلى الهدى، وتكونوا على بيّنة من أمركم﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾يرشدكم إلىشرائع ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾من الأنبياء والصالحين، ومن ذلك الحنيفية، ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " بعثت بالحنيفية السمحة السهلة ".

ذلك أن الله ﴿يُرِيدُ﴾ أن﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يغفر لكم ذنوبكم، ﴿وَ﴾ اعلموا أن﴿اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿٢٧﴾

﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾

أبلغهم يا محمّد بأن:﴿**اللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾، فتكونوا عنده من التوّابين، لا من المستكبرين في معاصيهم: ﴿**وَيُرِيدُ**﴾، يبيّن الله إرادة أخرى بكم وهي إرادة: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ**﴾التي تريد أن تحيد بكم عن هدي الله، و﴿**أَن تَمِيلُواْ**﴾من الهدي إلى الضلالة ﴿**مَيْلاً عَظِيماً**﴾كي تصبحوا مثلهم في اتباع﴿**الشَّهَوَاتِ**﴾، وبعد أن بيّن لكم الله الحق، فلكم الخيار في اتباع أي من الإرادتين، فمَن شاء هذه، ومَن شاء تلك. وقد تجلّت عظمة الله سبحانه وتعالى بأن استخدم ذات كلمة الارادة في مشيئته، وكذلك في مشيئة متبّعي الشهوات الذين يريدون للمؤمنين أن يكونوا مثلهم، ويميلوا بهم﴿**مَيْلاً عَظِيماً**﴾.

﴿٢٨﴾

﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾

ثم قل لعبادي يا محمّد:﴿**يُرِيدُ اللّهُ**﴾ ببيان المشيئتين لكم ﴿**أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ**﴾أن يجعل لكم سبيلاً في التيسير، لأننا الآن أمام رغبة غريزية جامحة، وعدم الاستطاعة في الزواج من الحرائر، وبذات الوقت، نرى ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ**﴾ يريدون أن يميلوا بهم ﴿**مَيْلاً عَظِيماً**﴾فكان التخفيف هو في هذا التيسير التوفيقي بين ما هم عليه من جموح في الغريزة، وبين عدم الاستطاعة، بأن أحل لهم نِكاح الأمة المملوكة: ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً**﴾وما نزال ضمن أمر النكاح، وهذا يدل بأن الإنسان به ضعف في مواجهة الشهوة إذا عصفت به، ثم أنه من الطرف الآخر يرى مِن متبعي الشهوات مَن يستقبله إلى الميل العظيم، وهذا بيان بأن الله جل وعلا، لا يتخلى عن عباده، وهو يخفف عنهم، وييسر لهم سبيل الهداية سواء في هذا الأمر، أو في سائر أمور الصلاح. وهذا التخفيف يمكننا أن نراه ليس مكتفياً بالتخفيف فقط، بل أن هذا التخفيف يكون بمثابة الإعاقة في الانجراف إلى الفساد، وإن لم يكن يمنعه، ولذلك يجد الإنسان تيسيراً في الصلاح، أكثر مما يجده في الفساد، وفي زماننا، فإن الذي يسعى إلى الزواج، مهما كانت أموره

معسّرة، فإنه يجد امرأة متوافقة مع وضعه، أو يجد تيسيرا من عائلة، أو ماشاء الله من تهيئة لأسباب اتمام هذا الزواج، في حين أنه قد لايجد سبيلاً إلى الزنا حتى لو نوى ذلك وبحث عنه، وذلك:﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾.

الباب العاشــر
مدخل كريــم

﴿٢٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾

يأمر الله الذين آمنوا بالله ورسوله ألاّ يأكلوا الأموال فيما بينهم بطرق غير مشروعة، مثل القمار، والربا، والسرقة، والاستيلاء، والإجبار:﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾أن تكسبوا أموالكم بالبيع والشراء، بما يُرضي البائع والشاري معاً دون ظلم أحدهما للآخر، فيكون البيع والشراء على بيّنة وقبول وتراض مهما كانت السلعة ثمينة، أو رخيصة، لأن الغرض في الآية يرمي إلى عملية البيع والشراء ذاتها، فإن كنت حريصاً أن تنتفع بالمقابل الذي تقبضه، فعليك أن تكون على ذات الحرص بأن ينتفع الشاري أيضاً من السلعة التي ابتاعها منك: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾

الكلام هنا مباشر، ينهى عن قتل النفس، وما دمنا ضمن النهي عن أكل المال بالباطل، فيُحتمَل أن يكون المقصد أن أكل المال بالباطل هو الوجه الآخر لقتل النفس بطريقة غير مباشرة، فإن اعتديتَ على ممتلكات شخص، قد يُصاب بأزمة تودي بحياته، فتكون أنت الذي قتلته بتلك الطريقة غير المباشرة، ثم أنك لو اعتديت على مال شخص بالباطل، ثم جاء وانتقم منك بأن قتلك، ستكون أنت الذي قدته إلى قتلك، ولذلك ترى أن غالبية الجرائم، إن لم تكن كلها، تقع بسبب الأموال، أو الأعراض فـ ﴿لاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ من خلال اعتدائكم على أموال بعضكم البعض :﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾.

ثمة لطيفة من اللطائف يرويها عمرو بن العاص بقول الإمام أحمد: (حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن عمْران بن أبي أنس، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمتُ على رسول الله صلى عليه وسلم ذكرت ذلك له، فقال: " يا عمرو صَلَّيت بأصحابك وأنت جُنُبٌ "!قال: قلت يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلكَ، فذكرت قول الله عز وجل ﴿ **وَلا تقْتلُوا أنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴾فتيممت ثم صليت. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا).

﴿٣٠﴾

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾

مَن يتحدى الله تعالى ويقوم بـ ﴿**ذَلِكَ**﴾المُبَيَّن المذكور من التجاوز: ﴿**عُدْوَاناً** ﴾ اعتداءً على الناس ﴿**وَظُلْماً**﴾ وإلحاق الظلم بهم:﴿**فَسَوْفَ**﴾ يوم الحساب ﴿**نُصْلِيهِ نَاراً**﴾ نبلغه ناراً تصليه جزاء على تماديه بالعدوان والظلم تحدّياً وبطشاً.

وكبيان على تنفيذ المراد من﴿**فَسَوْفَ**﴾ يقول:﴿ **وَكَانَ ذَلِكَ**﴾ إصلاؤهم النار﴿**عَلَى اللهِ يَسِيراً**﴾.

﴿٣١﴾

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾

عند تجتبكم الكبائر التي نهيناكم عنها، نتجاوز لكم عمّا أتيتم من سيئات، وهي ما دون الكبائرلأن ﴿إن﴾ تشترط تجتب الكبائر﴿إِن تجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾في هذه الحالة﴿نُكَفِّرْ﴾نرفع ﴿عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾فتتطهرون منها﴿وَنُدْخِلْكُم ﴾الجنة﴿مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾.

روى الحاكم في مستدركه :

(حدثنا أحمد بن كامل القاضي، إملاء حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد، حدثنا معاذ بن هانئ، حدثنا حَرْب بن شَدَّاد، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن عبد الحميد بن سِنَان، عن عبيد بن عُمَيْر، عن أبيه - يعني عُمَير بن قتادة- رضي الله عنه أنه حدثه - وكانت له صحبة- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: " ألا إن أولياء الله المُصَلُّون من يُقِيم الصلواتِ الخمسَ التي كُتبت عليه، ويَصومُ رمضان ويَحتسبُ صومَهُ، يرى أنه عليه حق، ويُعطي زكاة ماله يَحْتسِبها، ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها " . ثم إن رجلا سأله فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ فقال: " تسع: الشّركُ بالله، وقَتلُ نَفْسٍ مؤمن بغير حق وفِرارُ يوم الزّحْفِ، وأكل مال اليتيم، وأكل الرِّبا، وقذفُ المُحصنة وعقوق الوالدين المسلمين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا، ثم قال: لا يموت رجل لا يعمل هؤلاء الكبائر، ويقيم الصلاة، ويُؤتي الزكاة، إلا كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في دار أبوابها مصاريع من ذهَبٍ ").

وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (إن في النساء لخمس آيات ما يسرني بهن الدنيا وما فيها، وقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها: ﴿إِن تجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾

، وقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح).

﴿٣٢﴾

﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾

أن تنظر إلى نعمة، فتتمنى فيما لو أنها كانت لك، فكأنك تدخل في مشيئة الله، فترى بأنه فضّله عليك، ثم أنك أهل لتلك النعمة، بيد أن الله حرمك منها، وهذا شيء من الحسد تحسد به الذي فضّله الله بتلك النعمة، هذا الحسد الذي يودي إلى التحسّر، فتعيش في حسرة، وتتمنى زوال تلك النعمة عنه، لأنك ترى بأنك أحق منه بها، وهذا تدخل في شأن الله، وهذا الموقف لايقتصر على الرجال فقط، بل على النساء أيضاً، فـ ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ ﴾ جمعاً للرجال والنساء معاً، فنحن ضمن نطاق خص الرجال بنصيب أكثر من النساء في الوراثة، ونتخذ من ذلك قاعدة لسائر ما يمكن له أن يتفرّع عن التمنّي.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار"

قال قتادة والسدي: (لما نزل قوله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء وقالت النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا فأنزل الله تعالى ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُم عَلَى بَعْضٍ﴾. فهذا لاينحصر في لون من التمني، بل يشمل كل ما يمكن له أن يقود إلى ﴿مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُم عَلَى بَعْضٍ﴾).

تستأنف الآية:﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ﴾مما قسّم الله لهم من الوراثة:﴿وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾من ذلك. فلعل امرأة تحسد الرجل لأنه اكتسب أكثر منها، أو تتمنى لو أن الله ساواها بالرجل وكتب عليها القتال، وكذلك بالوراثة.

عن مجاهد أن أم سلمة قالت: (يا رسول الله إن الرجال يغزون ولا نغزو ولهم ضعفُ ما لنا من الميراث، فلو كنّا رجالا غزونا كما غزوا وأخذنا من الميراث مثل ما أخذوا. فنزلت هذه الآية).

فبدل أن تتمنوا، وتعيشوا على الأماني في دوّامة من الحسرة والحسد، ثم قد يقود ذلك إلى تمنّي الأذى لهم، بل والتمادي أكثر للسطو على ما هم به من نعمة، فبدلاً عن ذلك: ﴿اسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾والله " يُحب أن يُسأل"[22] ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾فلا شيء يملك أن يتوارى

[22] أخرج الترمذي، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل". قال الترمذي: كذا رواه حماد بن واقد، وليس بالحافظ، ورواه أبو نعيم، عن إسرائيل، عن حكيم بن جبير، عن رجل، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

عن علمه.

﴿٣٣﴾

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾

جعل الله ورثة يرثون مما يترك ﴿الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ وإذا نظرنا إلى الحكمة من ذلك، سنرى بأن ذلك يجعل الأبناء أكثر حرصاً على أموال أبوَيهم، فلو علِم الأبناء أن هذه الأموال ستذهب إلى غيرهم، بموجب اتفاق، أو عقد بين الأبوَين وبين مَن يشاؤون، لما حَرِص الأبناءُ على هذه الأموال

فقد أسمى الله تعالى- الأعلم بمراده- الورثة هنا بالـ﴿مَوَالِيَ﴾فأنت توليهم مالك، وهم يوالونك

ثم : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾

قال الزهري عن سعيد بن المسيب: (أ نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالا غير أبنائهم، يورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيبا في الوصية، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعَصبة وأبى الله للمدعين ميراثا ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيبا من الوصية. رواه ابن جرير).

الباب الحادي عشـــر
قوامة الرجال على النساء

﴿٣٤﴾

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾

تتكَلّل هنا مسؤولية الرجال تجاه النساء، استناداً إلى كل مراحل المسؤولية المتدرِّجة التي مررنا بها، مثل: نكاح ﴿مَا طَابَ﴾ لهم ﴿مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾، وإتيان ﴿النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، وأن يكون ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ في الوراثة، وأن يُمسكوا ﴿اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾﴿فِي الْبُيُوتِ﴾وغير ذلك، وما تم شرحه في حينه. فالرجل هو الذي يتولى تحمّل مسؤولية مشقات الحياة، وهو الذي خصّه الله تعالى بالنبوّة. نبلغ هنا ميزة القوامة، فيُعلّم الله تعالى في هذه الآية رسوله، ويأمره أن يُبلغ الناس بأن ربهم يقول لهم :﴿الرِّجَالُ﴾نظير ما حباهم الله بكل تلك المزايا: ﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء﴾ مسؤولون عن النساء، يتحمّلون مسؤوليتهن، فقد عفا الله تعالى المرأة- بمقابل منح الرجل تلك الخصائص- مسؤولية إطعام، أو إكساء، أو طبابة نفسها، وما إلى ذلك من مستلزمات المعيشة، وجعل ذلك في عنق الرجل، فقد حمّله الله تعالى مسؤولية إدارة شؤونها، وتأمين مستلزماتها، وتأمين الحماية والحصانة لها، فالرجل هو قائم قام المرأة بامتياز إلهي.

ويُروى أنها ا نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وفي امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، قاله مقاتل، وقال الكلبي: (امرأته حبيبة بنت محمد بن مسلمة، وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم: " لتقتص من زوجها "، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ارجعوا هذا جبريل أتاني بشيء " ، فأنزل الله هذه الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا، والذي أراد الله خير ". ورفع القصاص.

الرجال أمراء النساء، يتوجب عليهن طاعتهم بما يُصدروا من أوامر إليهن مما لايمس معصية الله، فقد أوكلهم الله تعالى مسؤولية القوامة على النساء:﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾

ثـم :﴿**وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾في كتب التفسير، يعطف المفسرون هذه الجملة على سابقتها:﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ فنكون أمام أن إنفاق الرجل على زوجته هو فضل منه عليها، واستناداً إلى ذلك يكون تفسير:﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾.

لننظر إلى شيء من ذلك:

١ – يقول ابن كثير : (﴿ **بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ أي:لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛﴿ **وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ أي:من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهنّ في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال)[٢٣]

٢ - يقول الطبري:(﴿**بما فضّل الله بعضهم على بعض** ﴾ ، يعني: بما فضّل الله به الرجال على أزواجهم: من سَوْقهم إليهنّ مهورهن، وإنفاقهم عليهنّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مُؤنهنّ. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهنّ، ولذلك صارُوا قوّامًا عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعل الله إليهم من أمورهن.

وأما قوله: ﴿**وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ ، فإنه يعني: وبما ساقوا إليهن من صداق، وأنفقوا عليهن من نفقة)[٢٤]

٣ – يقول البغوي:(﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ يعني: فضل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية، وقيل: بالشهادة، لقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ**﴾ البقرة ٢٨٢ وقيل: بالجهاد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أن

---

[٢٣] تفسير القرآن العظيم، سورة النساء، أبو الفداء،إسماعيل بن عمر بن كثير

[٢٤] جامع البيان في تأويل القرآن ، سورة النساء، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري

الرجل ينكح أربعا ولا يحل للمرأة إلا زوج واحد، وقيل: بأن الطلاق بيده، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدّية، وقيل: بالنبوّة.

﴿ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) يعني: إعطاء المهر والنفقة)[٢٥]

٤ - يقول الجلالان: (﴿ **بما فضل الله بعضهم على بعض** ﴾ أي بتفضيله لهم عليهن بالعلم والعقل والولاية وغير ذلك: ﴿ **وبما أنفقوا** ﴾ عليهن)[٢٦]

٥ - ويقول الرازي: (واعلم أن فضل الرجل على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية، أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها الى أمرين: إلى العلم، وإلى القدرة، ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة، والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وأن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، وفي الأنكحة عند الشافعي رضي الله عنه، وزيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث، وفي تحمل الدية في القتل والخطأ، وفي القسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء.

والسبب الثاني: لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالى: ﴿ **وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ يعني الرجل أفضل من المرأة لأنه يعطيها المهر وينفق عليها)[٢٧]

بيّنت التفاسير أن الفضل اقترن بالقوامة، وقد تفرّد بهما الرجل على المرأة، فكون لاقوامة للمرأة، لافضل أيضاً لها، بيد أننا نرى أن الآية تحتمل ألاّ تكون القوامة مقترنة بالفضل، فنقول: المرأة هنا هي(بعض) كما أن الرجل هو:(بعض)والمرأة هي من (بعض) الرجل، كما أن الرجل هو من (بعض)المرأة، فقد تفضّل بعضٌ: ﴿**عَلَى بَعْضٍ** ﴾ لذا فـ:﴿**وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾لا يُستبعد أن تكون معطوفة على:﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ وليس على ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ليكون الفضل متبادلاً بينهما، وألاّ تبقى المرأة محرومة من فضلها على

---

[٢٥] معالم التنزيل في تفسير القرآن، سورة النساء أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي

[٢٦] تفسير الجلالين، سورة النساء، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي و جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

[٢٧] مفاتيح الغيب، سورة النسا،، أبو عبد الله بن عمر بن الحسين بن الحسين التيمي الرازي

الرجل، فقراءة الاجماع يُستنتج منها: ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ** ﴾الرجال، فلخّصت كلمة ﴿**بَعْضَهُمْ** ﴾ الرجال واقتصرت عليهم، ثم : ﴿**عَلَى بَعْضٍ**﴾لخصت كلمة ﴿**بَعْضٍ**﴾ النساء، فعنتهن، واقتصرت عليهن. في حين أن قراءتنا تقول :﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ** ﴾نساء ورجالاً ﴿**عَلَى بَعْضٍ** ﴾نساء ورجالاً، لأن المصدر هو الرجال والنساء سواء في﴿**بَعْضَهُمْ** ﴾ أو في﴿**بَعْضٍ**﴾لأنهما تعودان إلى أن :﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ** ﴾الرجال والنساء ﴿**عَلَى بَعْضٍ** ﴾من الرجال والنساء، فالفضل هو متبادل بينهما، لكن ما يعطي الشرعية للرجل كي يمتاز بأنه قوام عليها، هو ترجيح كفة فضله على كفة فضلها.

لقد جعل الله تعالى الرجل يتفضل على المرأة بتلك القوامة، أي بترجيح حجم فضله عليها، على حجم فضلها عليه، دون أن يعني إلغاء فضلها عليه ، فهي بالمقابل تتفضل عليه بما أهّلها الله بذلك، فهي التي تجعله أباً، وهي التي تحرص على راحته، ونظافته، وتربية الأبناء، وهي التي تفتح له آفاق علاقات اجتماعية وصلات قربى جديدة من خلال نسابته لعائلتها، كما أنها تحصنه. يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من تزوّج فقد حصن ثلثي دينه ". فهي تسكِنه، فيكون ساكناً بها، وهو يسكنها، فتكون مسكونة به. فالمرأة هي شريكة الرجل في بناء عائلته، وتشكيل شخصيته الأهلية الجديدة، لذلك نرى هذه المعزّة الخاصة لأم المؤمنين الأولى خديجة رضي الله عنها لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بدأت تغير من تلك المعزة رغم وفاتها، فتقول مسترسلة : (ماغرت على امرأة للنبي ماغرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول :" إنها كانت .. وكانت، وكان لي منها ولد " ثم تضيف بأنه صلى الله عليه وسلم :(ذكر يوما خديجة فأطنب في الثناء عليها، فأدركني ما ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت : لقد أعقبك الله يارسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين .

فتغير وجه رسول الله تغيرا لم أره عند شيء قط ، إلا عند نزول الوحي). ثم تذكر واقعة أخرى عن غيرتها، فتقول: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله وعليه وسلم، فعرف فارتاع فقال: "اللهم هالة" فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر أبدلك الله خيرا منها . فقال : "ما أبدلني الله خيرا منها،

وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حـرمني النـاس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء").

فإن عدنا إلى وقائع حياته اليومية مـع خديجة، سـنرى كيـف أنـه كـان عنـد نـزول الـوحي في بداياته يجري من غار حراء إلى خديجة وهو يقـول لهـا: "زملـوني.. زملـوني" . فتزملـه، بقلبهـا وحبها وهي تتمتم له كأنها تنشد له نشيداً: (ابشر يابن عمي، فوالله الذي نفـس خديجـة بيـده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على النوائب، وتصدُق الحديث، وتؤدي الأمانة).

يقول صلى الله عليه وسلم: "كمل من الرجال كـثير ، ولم يكمـل مـن النسـاء إلا ثـلاث : مـريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد".

كانت قصة زواجهما غريبة في ذاك المجتمع، إذا كانت خديجة بنت خويلـد غنيـة، وكـان فقـيراً يرعى الغنم، ثم أنه كان يصغرها بنحو عشـرين سـنة،بيد أنهـا اتخـذت قرارهـا النهـائي بتحـدّي المجتمع عندما اختبرته، وأرسلته في تجارة إلى الشام، فجاء لها بأرباح لم تكـن تخطـر لهـا، أعطاهـا هذه الأرباح وانصرف إلى أهله، فتقدّمت خديجة من ميسرة التي أرسلته معـه في التجـارة ليكـون معيناً له، وطلبت إليه أن يُخبرها عن وقائع هذه الرحلـة، أن يحـدثها عـن رفقتـه في السـفر، عـن كل نظرة وحركة وكلمة بدرت منه .ولكن ميسرة يصـمت، وأي شـيء سـيقول، مـن أيـن سـيبدأ، وإذا روى لها ما رأى هل ستصدق وهو نفسه مندهش لمـا رأى وعاشـر ، ولكـن خديجـة أصـرت أن يروي لها ما رأى وسوف تصدقه لأنهـا تخـبر صـدق خادمهـا، ولـذلك عنـدما أخبرهـا عـن كـائنين غريبين كانا يظهران في حرارة الظهيرة ليظللاه، وكان هو الوحيد من بين القوم يرهمـا . قالـت له : صدقت ياميسرة . في تلك اللحظـة ولـد القـرار الـذي لاتراجـع عنـه، فأرسـلت إلى ابـن عمهـا ورقة بن نوفل، ولما جاء ورقة أخبرته بأنها سوف تتزوج محمدا بن عبد الله الـذي اسـتأجرته في تجارتها لهذا العام، ولأن ورقة يثـق بحكمـة خديجـة وتأنيهـا في اتخـاذ مثـل هـذا القـرار المصـيري، أبدى موافقته .تقول السـيدة (نفيسـة) الـتي شـهدت هـذا الـزواج، وكانـت مسـاهمة في إتمامـه : (كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة، مـع مـا أراد الله بها من الكرامـة والخـير، وهـي يومئـذ أوسـط قـريش نسـبا وأعظمهـم شـرفا وأكثـرهم مالا،وكـل قومها كان حريصا على نكاحهـا لـو قـدرعلى ذلـك، وقـد طلبوهـا وبـذلو لهـا الأمـوال، فأرسـلتني دسيسا إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام ، فقلت : يامحمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال :

"ما بيدي ما أتزوج به" . فقلت : فإن كفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : "فأنا أفعل" .

فذهبتْ فأخبرتها، فأرسلتْ إليه أن ائت لساعة كذا وكذا. وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوّجها ،فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته، فزوّجه أحدهم .

فإذن، تركّز الآية على تفاصيل تداخل العلاقة الزوجية واشتباكها مع بعضها البعض، فتظهر نقاط قوة المرأة، وتظهر نقاط ضعفها، كما أنها تظهر نقاط قوة الرجل، ونقاط ضعفه من خلال نسيج هذه العلاقة الزوجية. من هنا فإن الآية تضع الرجل والمرأة معاً أمام سطوع الحقيقة بلا استحياء، وهي بذلك تبيّن لهما سبيل تأسيس وتحسين حياة زوجية وعائلية سوية متكاملة بضمانة الله، فإنفاق الرجل على المرأة هو واجب يقع على عاتقه، لأنه نظير ذلك يقبض حصة امرأتين من الوراثة، ثم أنه عندما يجعلها تتفرّغ لعمل البيت وتربية الأولاد، وكل تلك الأعباء المنزلية، وينصرف هو ليجني المال، فهنا يلتقي الفضلان ببعضهما البعض ليتكاملا مع بعضهما البعض، فإن كمن فضله في أنه جلب مستلزمات المعيشة ، كمن فضلها في أنها قامت بكل تلك الجهود المنزلية التي بذلتها في سبيل إنعاش عشهما الزوجي معاً، فذلك هو: ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾والله أعلم.

ثم تستمرّ الآية في تقديم ما يجعل هذه العلاقة أكثر سوية، وأكثر تناغماً، وأكثر جمالية، وأكثر غِنى، وأكثر بياناً، وأكثر خصوبة، وأكثر تعاضداً، وكل ذلك تجنّباً للفشل الزوجي الذريع بما يمكن: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ**﴾يا لبلاغة هذا الوصف الإلهي، لذلك كان النبي يقول: "تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربَتْ يمينك" الصلاح هو نقيض الفساد، فإن دخلت المرأة الصالحة موضعاً، سعت إلى إصلاحه، إن تزوّجت، صلح بها شأن زوجها، إن أنجبت، ربّت أولادها على الصلاح، فهي امرأة صالحة، قانتة: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ**﴾من النساء﴿**قَانِتَاتٌ**﴾مطيعات لله، ثم مطيعات لأزواجهن في طاعة الله.جاءت﴿**قَانِتَاتٌ**﴾ لتشير إلى المداومة على الطاعة، فالمداومة على الشيء، تحقق القنوت فيه، فلم يقل: مطيعات، لأن الطاعة قد تكون متقطّعة، لكن القنوت يجعلها ما إن تنتهي من طاعة، حتى تكون بانتظار طاعة أخرى، فتبقى في حالة مداومة الطاعة تلو الطاعة، فقد اقترن الصلاح بالقنوت، واقترن القنوت بالصلاح، فإن رفضت طاعة زوجها، نال ذلك من صلاحها، وإن أطاعت زوجها، عزّز ذلك من

شأن صلاحها عند الله، والصلاح والقنوت يؤدّيان بهن كي يكنّ :﴿حَافِظَاتٌ﴾عهد الزواج ﴿لِّلْغَيْبِ﴾فلا تفعل في غياب الرجل ما يمس كرامته، أو ما من شأنه أن يُسبب له إهانة، أو انتقاصاً، فهي حافظة لسمعته، ولنسله سواء في حضوره، أو في غيابه، لأنهما بالنسبة إليها سيان في حضور الله الذي تتقدّم طاعته على طاعة الزوج، وتأتي طاعة الزوج تنفيذاً لطاعة الله فيه: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾حفظ لها حقوقها على الرجل.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خَيرُ النساءِ امرأةٌ إذا نَظَرْتَ إليها سَرَّتكَ وإذا أمَرْتها أطاعتكَ وإذا غِبْتَ عنها حَفِظتكَ في نَفْسِها ومالِكَ ".

والآية هنا تتعرض لكل ما يمكن له أن يمس حالة قوامة الرجل على المرأة، ولعل حالة نشوز تنجم عن تلك القوامة، وتمرد المرأة على قوامة الرجل عليها، فيقول الله:

﴿وَ﴾ زوجاتكم﴿ اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ تظنون انحرافهن بموجب معطيات بلغتكم عنهن، وإن كان بعض الظن إثم، فبعضه الآخر ليس إثماً، وهنا فإن النشوز لم يقع، بيد أنه على وشك الوقوع، والمرأة لم تصبح ناشزة، بيد أنها على وشك أن تصبح ناشزة، تنشز زوجتك عنك، أي تخرج عن طوعك، وتتمرّد عليك، فتعصي أوامرك، أي تنحرف عن سوية العلاقة الزوجية الطبيعية بين الزوج وزوجته، فإن قسنا معنى النشوز على قطعة أرض، جاء على الشطر الذي يكون به علو من مساحة الأرض السوية، فهذا الشطر قد نشز عن القاعدة، أمّا في الصوت، فيُقال بأن هذا الشخص صوته ناشز، أي به حشرجة.

يقول الشافعي: (﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ النشوز قد يكون قولا، وقد يكون فعلا، فالقول مثل أن كانت تلبيه إذا دعاها، وتخضع له بالقول إذا خاطبها ثم تغيرت، والفعل مثل أن كانت تقوم إليه إذا دخل عليها، أو كانت تسارع إلى أمره وتبادر إلى فراشه باستبشار إذا التمسها، ثم إنها تغيرت عن كل ذلك، فهذه أمارات دالة على نشوزها وعصيانها، فحينئذ ظن نشوزها ومقدمات هذه الأحوال توجب خوف النشوز).

فنحن الآن أمام حالة الخوف من وقوع النشوز بموجب بعض المعطيات، والمؤشرات، فقد بدرت منها بوادر تشير للزوج بأنها على وشك أن تصبح ناشزة، كون للنشوز بداية، والمرأة تبدأ به بتدرّج، حتى تستوي في نشوزها على الرجل، فتعصي له كل أمر، وتردّ عليه كلامه، وشيئاً فشيئاً قد يبلغ النشوز مرحلة تستهزئ فيها المرأة بزوجها، ولا تستأذنه في خروجها، ولاتخبره

بما يستجدّ من شأنها ، أوشأن البيت ، أو شأن الأبناء ، لأنها لاتقيم له وزناً، في القاموس المحيط:(المرأةُ تَنْشُزُ وتَنْشِزُ نُشوزاً: اسْتَعْصَتْ على زَوْجها، وأبْغَضَتْهُ).

عندما تنشز المرأة على زوجها، فإنها تسحب من تحته بساط القوامة عليها، لتصبح هي قائمة عليه، خاصة إذا كانت المرأة قوية الشخصية، وكان الرجل ضعيف الشخصية، وإذ ذاك يكون خراب البيت، ويكون فساد العائلة، وبلوغ العلاقة الزوجية بين الرجل وامرأته مرحلة الانهيار.

في هذا الجزء من الآية، وتجنباً لذاك الشكل المريع من الانهيار العائلي، وكي يبقى الرجل محافظاً على قوامته، وشخصيته القيادية في أسرته، نكون أمام وصفة إلهية فعّالة، تتألف من ثلاث مراحل، كل مرحلة تقتصر على علاج حالة من حالات ظهور أعراض النشوز على المرأة، وهي مقيّدة بتنفيذ شروطها، حتى تأتي بنتائجها.

إذن، نحن الآن في بدء الخوف من وقوع النشوز الذي لم يقع بعد، ولكن يبدو للرجل بأنه سيقع مما تبثه زوجته إليه من مقدمات، أو تمهيد، فيكمن لديه خوف من وقوعها في النشوز، فبيّن الله الحالة: ﴿**وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ**﴾بعد أن تجلّت لك الأعراض، وهذا مثل شعور الانسان بشيء من الغثيان بعد تناول طعام، فالتسمم الغذائي لم يقع، بيد أن مقدّمات الشعور بالغثيان تجعله في حالة خوف من وقوع التسمم، ومع السكوت، قد يستفحل التسمم، ويؤدّي به إلى داء يفسد عليه كل حياته، كأن ينحرم طوال العمر من بعض أطايب الطعام، ولذائذ الشراب، وكل ذلك لأنه أهمل مقدّمة هذا المرض عندما أحس أول الأمر بشيء من الغثيان، ولذلك فإن المرض يمكن السيطرة عليه، واحتوائه في البدء، بيد أنه عندما يستفحل، يُصبح في وضع متمكّن يصعب فيه علاجه.

يُخبرك الله تعالى بأن المرحلة الأولى لعلاج هذه الحالة في المرأة هي الموعظة، فتجلس إلى زوجتك عندما تلمح منها بوادر النشوز، وتعظها، تشرح لها أسس الحياة الزوجية السليمة، فلعل امرأة ما قد أثرت عليها، لعلّ الشيطان قد وسوس لها بشيء، لعلّ خاطراً قد خطر لها بغتة، فتقعد إليها، تطيّب خاطرها:﴿**فَعِظُوهُنَّ**﴾والوعظ قاعدة في القرآن الكريم، ففي البدء يوجه إلى الموعظة، فإن لم تجد، بدأ يتدرّج في التصعيد حتى يوقف المتمادي عند حده، وحتى فرعون وهو في ذروة طغيانه، أمر الله تعالى موسى، وهارون أن ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ★ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ طه ٤٣، ٤٤

فتبدأ بما أمرك الله من موعظة حسنة هادفة، كأن تعزز لديها الشعور بالمسؤولية تجاه البيت، تتحدّث لها عن مآثر بعض النساء الصالحات، وتروي لها بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، مثل: " إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها وحفظت فرْجَها؛ وأطاعت زوجها قِيلَ لها: ادخلي الجنة من أيِّ أبواب الجنة شِئْتِ " .

و:"لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"و:"لا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب". و: "أيما امرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح" وفي رواية:"حتى تراجع وتضع يدها في يده".

فلعل هذه الخطوة الأولى في الإصلاح تجعلها تراجع نفسها، وتتعظ، فيعود الأمر بينكما إلى ما كان عليه من صلاح، فيعفيك ذلك مما هو دون الموعظة، وهو: ﴿**وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ**﴾فإن لم تنفع معهن الموعظة الحسنة، والكلم الطيب، تبدأ بالخطوة الثانية التي أرشدك الله لها كي تعيدها إلى رشدها، فتهجرها في المضجع.

وكلمة المضجع تشير إلى المضاجعة، ونرى أنه يهجرها في العشرة الزوجية، بما في ذلك الجماع، والملاطفة، وما من شأنه أن يُعبّر لها بأنه غير راض عنها، وفي تقديرنا أن يبقى ذلك حصراً بين الزوج والزوجة في دائرة البيت، فإن حضر ضيوف، أو كانا في ضيافة، فعليه ألاّ يُبدي ذلك أمام الآخرين، تجنّباً من إحراج زوجته، وتجنّباً من تدخّل البعض، لأن المضجع فيه إشارة أيضاً إلى البيت ، أن يكون تعاملك هذا معها في البيت، بينك وبينها، وألاّ يدوم ذلك طويلاً.

في السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا؟ قال: " أن تطعمها إذا طَعِمْتَ، وتكسوها إذا اكْتَسَيْتَ، ولا تضْرِب الوَجْهَ ولا تقَبِّح، ولا تهْجُر إلا في البَيْتِ ".

فإن لم تنفع مرحلتا الوصفة الإلهية ، يوجهك الله تعالى إلى استخدام المرحلة الثالثة التي فيها شيء من التصعيد بما يتلاءم مع المرحلة المتقدّمة التي بلغتها من تفعيل النشوز، ففي المرحلتين السابقتين، كان العلاج نفسياً من خلال جلسات حوارية، ووعظية، وعند عدم الاستجابة، لبث نفسياً، لكنه انتقل من الجلسات الحوارية، إلى الأفعال، من خلال علاجها بلغة الأفعال والتصرفات التي تمس العلاقة الزوجية، ونظراً لأنهما لم تنفعا معها، فتنتقل هنا إلى المرحلة الأخيرة، وهي العلاج البدني بما يتناسب مع ما بلغت المرأة من حالة متقدمة، وهي لم تستجب للمرحلتين النفسيتين السابقتين في الردع، فيعطيك الله تعالى الإذن

بقوله:﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾وليس الضرب من أجل الضرب، أو الإيذاء، بل من أجل أن ترتدع عن النشوز، لأن عاقبة النشوز كيفما قلّبتها ليست محمودة.

رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (كنا معاشر قريش تملك رجالنا نساءهم، فقدمنا المدينة فوجدنا نساءهم تملك رجالهم، فاختلطت نساؤنا بنسائهم فذئرن على أزواجهن، فأذن في ضربهن فطاف بحجر نساء النبي صلى الله عليه وسلم جمع من النسوان كلهن يشكون أزواجهن، فقال صلى الله عليه وسلم: "لقد أطاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة كلهن يشكون أزواجهن ولا تجدون أولئك خياركم").

وقال سفيان بن عُيَينة، عن الزهري، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، عن إياس بن عبد الله بن أبي ذُباب قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تضْرِبوا إماءَ اللهِ " . فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذئِرَت النساء على أزواجهن. فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقد أطافَ بآل محمد نِسَاءٌ كثير يَشْكُونَ أزواجهن، ليس أولئك بخياركم ") رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

نحن هنا أمام تصعيد العلاج، في مواجهة تصعيد الحالة، وهو ما عليك أن تتردّد في استخدامه ما أمكن حتى يثبت لك يقيناً بأن زوجتك قد بلغت تلك المرحلة المتقدّمة التي لم يعد يجدي معها سوى الضرب، فحينئذ، تستخدم وصفة الله هذه كي تعود إلى صوابها، وتذكّر بأن ضربك لها هو من باب التربية، والرشد، وليس الإيذاء.

في حديث رواه عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اضربوهن إذا عصينكم في المعروف ضرباً غير مبرّح".

يقول عطاء: (قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالسواك ونحوه).

ثم في كل هذا عليك أن تتقيَّد بملازمة كل وصفة لمرحلتها، فلا يجوز لك أن تبدا بالثالثة، ثم تعود إلى الثانية، أو تبدأ بالثانية، ثم تعود إلى الأولى، لأن ذلك هو قفز على سوية العلاج والتدرّج فيه، فهذه المرحلة تحتاجها هذه الوصفة، فإن وقع خلل في استخدام الوصفة، تفاقم الداء، كأن تجري عملاً جراحياً بسبب ألم في رأسك، وأنت لاتحتاج سوى إلى حبة لألم الرأس. كما أن هذا التدرّج في استخدام الوصفات يجعل المرأة تستجيب للعلاج إذا أحسن المُستخدم استخدامها، وذلك بكفالة الله الذي أصدر هذه الوصفات، وهو الحكيم العليم. عندئذ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بيان

بأن النشوز هو خروج الزوجة عن طاعة زوجها التي أمرها الله بها لتستوي قواعد عمارة الحياة الزوجية على قوائم سليمة قويمة، فهاقد أتى العلاج بنتيجته ، وتعافت امرأتك ، وعادت إلى سالف صلاحها وعهدها معك بعد أن أحسنتَ استخدام وصفة الله بحكمة سواء أكانت زوجتك قد استجابت لها في المرحلة الأولى، أو المرحلة الثانية، أو المرحلة الثالثة، عندئذ عليك أن تستجيب لقول ربك حتى يدوم بينكما الصلاح، وتبقى مستمرّاً في قوامتك عليها، وهو يقول لك: ﴿**فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**﴾فإن استجبن لهذا العلاج، كفوا أنتم أيضاً عن استخدام الوصفات، ولا يجوز لكم أن تستمروا في ذلك رغم أنهن﴿**أَطَعْنَكُمْ**﴾، فذلك يدخل باب التجنّي. أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن عبد الله بن زمعة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيضرب أحدكم امرأته، كما يضرب العبد ثم يجامعها في آخر اليوم".

فلعل الرجل يبقى مستمراً فيما هو عليه من عتاب، أو تغليظ، أو قطيعة، أو ضرب، وهذا ظلم بحق المرأة، لأن لاشيء يستوجب ذلك، فقد تكلل العلاج بالنجاح بفضل الله، وعادت إلى صوابها، لكن الرجل رغم ذلك يبقى على عقابه لها، عندئذ يأتي تحذير الله له في الكلمات الختامية من هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً**﴾فهو قادر أن يردعكم عن ظلمكم لهن بما يشاء، لأنه لم يأذن للمرأة أن تستخدم عقوبة الهجران، أو الضرب، وبمقابل ذلك، فإن الله العلي الكبير قادر على الانتقام لهن منكم.

﴿٣٥﴾

﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً**﴾

نأتي هنا إلى ما هو أكبر من النشوز، وما هو أكبر مما يبقى في دائرة الزوج وزوجته ضمن مساحة بيتهما، حيث قد يُصبح الخلاف أساسياً على أمور جوهرية، بحيث يتطلب الأمر أن يتنازل أحدهما للآخر، أو يتمسك كل واحد منهما بموقفه ويحدث الطلاق، فتضعنا هذه الآية أمام مرحلة مفصلية مما قد تمرّ بها الحياة الزوجية، ونرى الله سبحانه وتعالى في هذه الحالة من تصاعد حدّة الخلاف بين الزوجين على مسائل جوهرية، يوجه خطابه إلى الأهل، كون الأمر في حال الانفصال لم يبق مقتصراً على الزوجين فحسب، بل يشمل عائلتيهما، فكما أن

ارتباطهما أدى إلى ربط علاقة عائلية بين العائلتين، فإن انفصالهما سيؤدي إلى فكاك بين عائلَتيهما كذلك، فلهذا يدعو الله حكماء هاتين العائلتين للتدخل، والاسهام في إصلاح الشقاق الذي أصاب بناء العلاقة الزوجية بينهما، في حال رغبتهما في الصلاح، كأن تكون الزوجة في حالة استياء من زوجها، وقد لاذت بأهلها، أو أنه يتعمّد الخروج من البيت باكراً، ولايعود إلاّ في وقت متأخر من الليل بسبب تصاعد وتيرة الخلاف بينه وبين زوجته، وتفادياً من إلحاق بالأذى بالأطفال في حال حدوث صِدام بينهما، فـ: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ**﴾ أيها الأهل﴿**شِقَاقَ**﴾ انفصال ﴿**بَيْنِهِمَا**﴾بين الزوج والزوجة،﴿**خِفْتُمْ**﴾ بمعنى شممتم رائحة الطلاق، وأصبح لديكم حدس بأنه على وشك الوقوع، ولأن الأمر يعنيكم: ﴿**فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا**﴾ الحَكم هو الشخص الذي عُرفت عنه الحكمة، والمقدرة على التأثير والاقناع بالحق، وألاّ يُقحما نفسَيهما في هذا الخلاف الذي نشب بين الزوج وزوجته، بل يكون ذلك بموافقتهما، بل لعله بطلب منهما، حتى يصغيا إلى الحَكيمَين الناضجَين المُعتبَرَين في عائلَتيهما، هنا يأمرهما الله تعالى أن يقوما بهذه المهمة الاصلاحية إنقاذاً لهدم بيت ، وتشتت عائلة، وخلاف بين عائلتين متناسبَتين . وكلمة الله ﴿**فَابْعَثُوا**﴾ هي أمره لأولي الأمر في العائلتين كي ينتقوا، ويختاروا هذين الشخصين المؤهلين، ويجب الانتباه إلى قوله أن ذلك لايكون إلاّ في حال: ﴿**إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً**﴾أي ما تزال إمكانية العودة ممكنة، فيصلح هذان الشخصان ماتم إفساده بينهما، وفي حال عدم إرادتهما العودة ، ووصول كل واحد إلى قرار نهائي لاحياد عنه بالنسبة للآخر، فنرى ألاّ يتم تدخل أحد كون التدخل مشروط بـ ﴿**إِن يُرِيدَا**﴾الزوجان﴿**إِصْلاَحاً**﴾ولعل انتظار الوقت يجعل ما لايريداه الآن، يُريداه حينذاك، فإن أرادا الاصلاح ﴿**يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا**﴾ وهنا حسم في مسألة حرية الزواج، وهي حرية شخصية متع الله الإنسان بها سواء في التوفيق، أو التفريق، فيبيّن الله تعالى بأنه يوفق بينهما في حال وجود إرادة الاصلاح في نيّتهما، فهو سبحانه وتعالى لايُرغم زوجة على زوج، أو زوجاً على زوجة ليعيشا معاً قهراً، أو قسراً:﴿**إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً**﴾.

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا**﴾ قال: (هذا الرجل والمرأة إذا تفاسد الذي بينهما أمر الله أن تبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا امرأته عنه، وقسروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة

قسروها على زوجها، ومنعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز).

وأخرج الشافعي في الأمّ، وعبد الرزاق في المصنف، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، عن عبيدة السلماني في هذه الآية قال: (جاء رجل وامرأة إلى عليّ، ومعهما فئام من الناس، فأمرهم عليّ، فبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، ثم قال للحكمين: تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا، قالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما عليّ فيه ولي؛ وقال الرجل: أما الفرقة، فلا، فقال: كذبت، والله حتى تقرّ مثل الذي أقرّت به).

البـاب الثانـــي عشــــر
أفضليات الإحسان

﴿٣٦﴾

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾

دعوة الله تعالى عباده أن يعبدوه في أقوالهم وأفعالهم: ولا يشركوا﴿بِهِ شَيْئاً﴾ فالعبادة هي التوحيد، فإن بلغت مرتبة التوحيد، ما كان لك أن تشرك﴿بِهِ شَيْئاً﴾والشرك أشكال وألوان، يمكن للإنسان أن يمارس الشرك في تصرفاته من خلال العديد من المواقف. تبيّن الآية بأن العبادة لوحدها لاتكفي، فقد يؤدي إنسان بعض العبادات، إلاّ أنه يمارس سلوك الشرك في بعض تصرّفه، فقد اقترن اللاشرك بالعبادة حتى تؤدي بالإنسان إلى مرتبة التوحيد.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس"؟ قال قلت: الله ورسولُه أعلم، قال: "حقُّه عليهم أن يعبدوه ولا يُشركُوا به شيئا، أتدري يا معاذ ما حَقُّ الناس على الله إذا فعلوا ذلك"؟ قال : قلت الله ورسولُه أعلم، قال: "فإنّ حقَّ الناس على الله أن لا يعذبهم"، قال قلتُ: يا رسول الله ألا أُبشِّر الناسَ؟ قال:" دعهم يعملون " .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس"

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

وروى الدارقطني عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى للملائكة القوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزتك ما رأينا إلا خيرا فيقول الله عز وجل- وهو أعلم- إن هذا كان لغيري ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما كان ابتغي به وجهي".

الشرك بالله، هو أن تقدّم إلى مادون الله ما هو لله، لأن ذلك سيؤدّي بك إلى اعتقاد بأن هذا الشخص الذي يملك نفوذاً، أو جاهاً، أو مالاً، يمكنه أن يمنحك ما لايمنحك إياه الله، ثم يبدأ هذا الشعور لديك في الترسخ حتى تشعر في مرحلة أنك تبقى تعقد كل آمالك على الناس، فتلقى الفجيعة في نهاية أمرك، لأنك اعتقدت أمراً أكبر من طاقة البشر، فمهما ملك الانسان من ممتلكات، فقد منحه الله إياها، ثم أن الله يأخذها منه، وفي ذلك يقول لك النبي صلى الله عليه وسلم:" إن سألت، فاسأل الله، وإن استعنت، فاستعن بالله" لأن الله هو الذي يسوق إليك مطلبك، ويُسخّر أناساً لذلك، فالأولى أن تسأل الله، وتعقد كل آمالك وثقتك على الله، ثم أن السؤال لغير الله هو ذل، في حين أن السؤال لله هو عز، فكما أنك تشعر بخنوع في سؤالك للناس، فإنك تشعر بكرامتك الانسانية وأنت تسأل خالقك ، رب العالمين القادر على ما لايقدر عليه غيره. من هنا فقد نهاك الله تعالى عن الشرك، ودعاك إلى التوحيد كي تستوي لك مقومات حياتك، وتبقى على كرامتك الانسانية، وعلى عزّك.

روي عن الضحاك بن قيس الفهري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : "إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي. يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شيء".

وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة ، قوله أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله عز وجل أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك". وفيه عن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال"؟ قال: فقلنا بلى يا رسول الله، فقال: "الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل". وفيه عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن أخوف ما أتخوف على أمتي الاشراك بالله أما إني لست أقول يعبـدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية" أخرجه الترمذي .

وروى ابن لهيعة عن يزيد بـن أبـي حبيـب قـال: سـئل رسـول الله صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ عـن الشهوة الخفية فقال: "هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه".

بعد عبادة الله تعالى الخالصة دون الاشراك به بمختلف أشكال وألـوان وتفرعـات الشـرك، يـأمر الله الأبناء الاحسان إلى أبويهم :﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ والاحسان أن تكون حسـن التعامـل معهمـا، تحسن صحبتهما، فلا يريان منك سوى حَسَن القول والفعل، وأنت تطيـع الله في إحسانك إليهمـا، وإن رأيـت الأمـر موجهاً إليـك كـي تحسـن إلى أبويـك، فهـو ذاتـه موجـه إلى أبنائـك، كـي يحسـنوا إليك﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ**﴾أي مَن ولدتَ منهما، لهمها، وقد ولّداك ، وكبّراك، وترعرعتَ في كنفهما.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسـلم مـن الـيمن استأذنه في الجهاد، فقال له: " هل لك أحد باليمن "فقال أبواي فقال: "أبواك أذنـا لـك" فقـال لا فقال "فارجع واستأذنهما فان أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما ".

وجاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السَّبْي تـدور علـى ولـدها ، فلما وجدته أخذته فألْصَقَتْه بصَدْرِها وأرضعته. فقال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم لأصحابه: " أترَوْن هذهِ طارحةً ولدها في النار وهي تقْدِرُ على ذلك؟ " قـالوا: لا يـا رسـول الله:قـال: " فـوَاللهِ للَّهُ أَرْحَمُ بعبادِهِ من هذه بوَلَدِهَا " .

أخرج الشيخان من حديث عبد الرحمن بن أبي بَكْرة، عن أبيه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبـئكم بـأكبر الكبـائر"؟ ، قلنـا: بلـى يـا رسـول الله، قـال: " الإشـراك بـالله، وعقـوق الوالدين " وكان متكئا فجلس فقـال: " ألا وشـهادة الـزور، ألا وقـول الـزور " . فمـا زال يكررهـا حتى قلنا: ليته سكت .

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا عَمْرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن مِسْعر وسـفيان، عـن سعد بن إبراهيم، عن حُمَيد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بـن عمـرو - رفعـه سـفيان إلى الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم، ووقفـه مسـعر علـى عبـد الله بـن عمـرو - قـال: " مـن الكبـائر أن يَشْـتم الرجلُ والديه " قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: " يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجـل فيسـبَّ أبـاه، ويسُبُّ أمَّه فيسب أمه ") .

فإن أحسنتَ إليهما من جهة، ثم تسبّبتَ بإلحاق الأذى بهما من خلال الناس، تكون أنت المسيء، فلا تكتفي بأن تحسن إليهما، بل تعطي عنهما للناس انطباعا حسناً ، ولاتفعل معهم شائناً لتتسبب في توجيه قول شائن إلى والدّيك، ثم أنك تحسن إليهما في غيابهما أيضاً، كأن تقيم سبيلاً للخير ينتفع به الناس، وتجعل جزاءه لوالدّيك، أو تتصدّق نيابة عنهما، أو تدعو لهما بالخير، فكل ذلك يدخل باب الاحسان.

ثم يتدرّج الإحسان إلى مَن هم دون الوالدَين:﴿**وَبِذِي الْقُرْبَى**﴾بعد أن تحسن إلى والدَيك، فتنتقل من هذه الأولوية إلى مَن هم دونهما، في عملية إحسان متبادلة بين كافة أفراد المجتمع، من ذي﴿**الْقُرْبَى**﴾وهم الأكثر قرباً إليك وفيما يبدو لنا أنهم: الزوجة، الأبناء، الأخوة، الأعمام، العمّات، الأخوال، الخالات، وما يتفرّع منهم، ولعل ذلك يأتي إلى والدَي الزوجة، فيُحسن الرجل لوالدَي زوجته، ثم تحسن الزوجة لوالدَي زوجها، ثم ما دون ذلك من درجات﴿**الْقُرْبَى**﴾في الحديث: " الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وصِلَةٌ ".

وذلك حتى يشعر﴿**الْقُرْبَى**﴾ بقربهم إليك قولاً وفعلاً، وتشعر بقربك إليهم قولاً وفعلاً، وكذلك ألاّ تتسبب بإلحاق الأذى، أو النقيصة ﴿**بِذِي الْقُرْبَى**﴾ منك، فتجعلهم يعتزّوا بقربهم إليك، لا أن ينفروا من صلة ﴿**الْقُرْبَى**﴾ هذه ويتمنونها لو لم تكن.

بعد أن يصيب إحسانك الوالدين، ثم ﴿**ذِي الْقُرْبَى**﴾تتوسع في الإحسان، فتكون الأولوية لليتامى، فتحسن إلى اليتيم، وتخفف عنه شعوره باليتم، حتى لايشعر بالوحشة والعزلة بسبب يتم أبوَيه، أو أحدهما، وقد وردت درجة اليتيم متقدمة أولاً بعد ﴿**ذِي الْقُرْبَى**﴾ وهي إشارة بأن اليتيم يحتاج أن يشعر بأنه من ﴿**ذِي الْقُرْبَى**﴾في المجتمع الذي يعيش فيه، ولايشعر بأنه غريب بسبب يتمه، فقد جعله الله تعالى في المرتبة الثالثة من أولويات الإحسان. يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" من مَسَحَ رأسَ يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شَعَرَةٍ تمُرّ عليها يَدُهُ حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كَهَاتين". وقَرَنَ بين أصبعيه.

ويقول:" أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا". وأشار بالسَّبابة والوُسْطَى وفرّج بينهما شيئا.

ثم يأتي المساكين في المرتبة الرابعة، فيقول الله:﴿**وَالْمَسَاكِينِ**﴾جمع مسكين، وهو الشخص الذي حلّت به أزمة، فلم يعد قادراً على تحمّل أعباء المعيشة، فتراه ضعيفاً تحت عبء متطلبات أسرته، والمسكين هو الشخص الذي يحتاج إلى مساعدة الناس له بسبب عدم تمكنه من الاكتساب

بجهده ، أو أن طاقته على العمل لاتكفي لكسب حاجة عياله، وهو غير قادر على بذل أكثر من ذلك بسبب شيخوخة، أو مرض، أو وضع عقلي، أو تلقي مصيبة تفوق مقدرته على مواجهتها. من جهة أخرى نرى بأن الانسان المقتدر في هذه الدرجة يمارس مزية الكرم وهو يُحسن إلى المحاويج إليه.

على هذا النحو نرى بأن الله تبارك وتعالى يجعل الاحسان شاملاً على مختلف الفئات الاجتماعية، فنرى في هذه الدرجة ﴿**وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى**﴾كذلك نرى الأولوية في الاحسان تكون للجار الذي بينك وبينه صلة رحم، فإن كان ساكناً بجوارك، فعليك أن تبدأ إحسانك إليه، ثم ﴿**وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾الذي ليس بينك وبينه صلة قربى، فتحسن إليه بكونه جارك، ولعل ﴿**الْجُنُبِ**﴾ هو البدء بالأكثر قرباً لجانبتك سواء يميناً، أو شمالاً، أو قبالة، أو خلفاً ، ثم ما يلي ذلك بحسب درجات مسافة القرب من بيتك، على ألا يكونوا من ﴿**ذِي الْقُرْبَى**﴾ لأن هؤلاء لهم الأولوية حتى لو كانوا أكثر بعداً، فصلة القربى هنا جعلت المسافة أكثر قرباً من حيث الاستحقاق، وهذه الأمور على الانسان الاّ يتجاهلها، لأنها موضوعة وموجهة بعناية إلهية، وتجاوزها، يعني الاخلال بشروط تنفيذها، فالدقة في تنفيذ الأمر الإلهي وفق تدرّج الأفضلية المبيّنة، تكون طاعة لله، وتأتي بالنتائج المتوخاة من ذلك.

يقول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: " الجيرانُ ثلاثةٌ: جَارٌ لهُ حَقٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أدْنَى الجيرانِ حقًا، وجار له حقَّان، وجَارٌ له ثلاثةُ حُقُوقٍ، وَهُوَ أفضلُ الجيرانِ حقا، فأما الذي له حق واحد فجار مُشْرِكٌ لا رَحِمَ لَهُ، لَهُ حق الجوار. وأمَّا الَّذِي لَهُ حقانِ فجَارٌ مُسْلِمٌ، له حق الإسلام وحق الْجوارِ، وأمَّا الَّذِي لَهُ ثلاثةُ حُقُوقٍ، فجَارٌ مُسْلِمٌ ذو رَحِمٍ لَهُ حق الجوار وحق الإسلام وحَقُ الرحِمِ " .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تحقرنّ مِنَ المعروف شيئا ولو أن تلقَى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ، وإذا طبخْتَ مرقة فأكثرْ ماءها واغرف لجيرانك منها " .

أخرجاه في الصحيح من حديث عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، به .

ومما يقوله الإمام أحمد :(حدثنا عبد الله بن يَزِيد، أخبرنا حَيْوةُ، أخبرنا شَرْحَبِيلُ بنُ شُرَيكٍ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلي يحدث عن عبد الله بْنِ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ، عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال: " خَيْرُ الأصْحَابِ عِندَ اللهِ خَيْرُهُم لِصَاحِبِهِ، وخَيْرُ الجِيرانِ عند اللهِ خيرهم لِجَارِهِ ".

رواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح - به، وقال: حديث حسن غريب .

ويقول الإمام أحمد : (حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ عن عُمَر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يَشْبَعُ الرجل دون جَارِهِ " . تفرد به أحمد .

ويقول الإمام أحمد: (حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن فضيل بن غَزْوان، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظَبْيَة الكَلاعِيّ، سمعت المقدادَ بن الأسود يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " ما تقولون في الزنا " قالوا: حرام حَرَّمَهُ اللهُ ورسُولُه، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم " لأنْ يَزْنِي الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَة، أيْسَرُ عليه من أن يزنيَ بامرأةِ جارِهِ ". قال: "ما تقولون في السَّرِقَة" قالوا: حَرَّمَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فهي حرام. قالَ "لأن يَسْرِقَ الرجل مِن عَشْرَةِ أبْيَاتٍ، أيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أنْ يسرقَ مِنْ جَارِهِ ".

ويقول الإمام أحمد: (حدثنا يَزِيدُ، أخبرنا هِشَامٌ، عَنْ حَفْصَةَ، عَنْ أبي الْعَالِيَة، عَنْ رَجُلٍ من الأنصار قال: خَرَجْتُ من أهلي أريدُ النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا به قَائِمٌ ورجل مَعَهُ مُقْبِل عَلَيه، فظَنَنْتُ أنَّ لهما حَاجَة - قَالَ الأنْصَارِيُّ: لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعلت أرْثِي لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم من طُولِ الْقِيَامِ، فلمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يا رسول الله، لقد قام بك هذا الرَّجُلُ حتى جَعَلْتُ أرْثِي لَكَ من طُولِ الْقِيَامِ. قال: "وَلَقَدْ رَأيته"؟ قُلتُ: نعم. قَالَ: " أتدْرِي مَن هُوَ "؟ قُلْتُ: لا. قال: " ذَاكَ جِبْرِيلُ، ما زال يُوصِينِي بالجارِ حتى ظَنَنْتُ أنَّه سَيُورثه". ثمَّ قال: "أمَا إنَّك لَو سَلَّمْتَ عليه، رد عليك السلام " .

قال أبو بكر البزار: (حدثنا عبيد الله بن محمد أبو الرَّبيع الْحَارِثِيّ، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْن أبي فُدَيْك، أخبرني عبد الرَّحمن بنُ الْفَضل عن عَطَاء الخَراساني، عن الحسن، عن جابر بنِ عَبْدِ الله قال: " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ألا وأن الجوار أربعون داراً "

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيِّهما أهدي؟ قال: " إلى أقربهما منك باباً ") .

ثم تمضي الأولويات في استحقاق الاحسان، فيقول تعالى ذكره:﴿ **وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ**﴾ولعل ذلك يكون في جار السفر الذي يكون إلى جوارك خلال فترة السفر، فعليك أن تبادر إلى ضيافته، عندما تقبل على أكل طعام، أو شرب شراب، ثم لعلك تهديه شيئاً، وتحسن أدب الجلوس إليه، فلا تزعجه، أو تضيّق عليه في مجلسه، ونحن الآن في زمان يجلس رفيق السفر بشكل شبه ملاصق لرفيق سفره، حيث يجمعهما مقعد واحد، فعليك ألاّ تزعجه في غفوته، أو صفوته، وأن تبتسم إليه، فهذا صاحبك الجنب الذي يجلس إلى جانبك في السفر وقد تمضي معه ساعات طويلة، ثم قد تتحوّل هذه الرفقة إلى صداقة متينة بينكما. بعد أن تتجاوز هذه الدرجة، يوجهك الله تعالى أن تحسن إلى ﴿**ابْنِ السَّبِيلِ**﴾ولعله الشخص المسافر الذي يلجا إليك لوقت قصير يستريح فيه، ثم يكمل مسيره، فيتوجب عليك الاحسان إليه، وفي زماننا تعددت حاجات ابن السبيل، فلعلك تمضي في طريق، ويطلب إليك شخص غريب وهو﴿**ابْنِ السَّبِيلِ**﴾أن ترشده إلى مكان ما، فتحسن إليه بما ييسر وصوله إلى سؤاله، ولعلك لاتعلم المكان، فتتولى أمره، وتمضي معه سائلاً حتى توصله إلى مبتغاه، فقد توسم فيك الخير، وهو شخص غريب، ومقطوع المعارف وصلات القربى في هذه الغربة التي حلَ بها لشأن من شؤونه، كذلك يواجه الساكن في دياره أشكالاً مختلفة من أبناء السبيل، في احتياجات مختلفة، كذلك تقول العامة: الغريب أعمى . فهؤلاء لاأحد لهم في غربتهم، وعليك أن تخفف عنهم من الغربة وتستجيب لمتطلباتهم بوجه بشوش، وبروح الاستضافة في حيك، أو مدينتك، أو قريتك. ورد في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم:" ثلاثة لا ينظرُ الله إليهم يوم القيامة ولا يُزكّيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضْلِ ماء بالفَلاةِ يمنعه ابن السَّبيل" .

ثم:﴿**وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ ولا شيء لا لزوم له في القرآن، فيمكنك أن تحسن إلى مَن يقوم بخدمتك، سواء في بيتك، أو عملك، وقد ألغى الاسلام بتدرّج نظام الرق الذي كان سائداً في الجاهلية، وما كان يترتب على ذلك، لكن الخدمة بقيت، بمعنى أن تستأجر شخصاً ليقوم بخدمتك، والخادم الذي تتعاقد معه بموجب عقد كي يخدمك وقتاً محدداً، وقد تعطيه أجره مسبقاً، أو تعطي وليه، فهو يصبح في عهدتك سواء أكان رجلاً، أو امرأة، سواء أكان شاباً، أو صبياً، فهذا يقوم بشيء مما كان يقوم به المملوك تجاه مالكه، فإن كنتَ الآن لاتملكه، بيد أنك تملك وقته، حيث يُصبح وقته ملكك، ولايستطيع أن يتصرّف به إلاّ بإذنك.

قال الإمام أحمد: (حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بَقِيّة، حدثنا بَحِيرُ بن سعد، عن خالد بن مَعْدَان، عن الْمِقْدَامِ بن مَعْدِ يكَرِب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أطعمت نَفْسَكَ فهو لك صدقةٌ، وما أطعمتَ وَلَدَكَ فهو لك صدقة، وما أطعمت زَوْجَتَكَ فهو لك صَدَقَةٌ، ومَا أطعَمْتَ خَادِمَكَ فهو لَك صَدَقَةٌ ").

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لِقَهْرَمَانَ له: (هل أعطيت الرقيق قُوتهم؟ قال:لا. قال: فانطلق فأعطهم؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوتهم ") رواه مسلم .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "للمملوك طعامه وكِسْوته، ولا يكلَّف من العمل إلا ما يُطيق " رواه مسلم.

وعنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمةً أو لقمتين أو أكْلَةً أو أكْلَتين، فإنه وَليَ حرّه وعلاجه " .

وعن أبي ذر، رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " هم إخوانكم خَوَلكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم " .

على هذا النحو، يوجه الله تعالى إلى إحسان الانسان للإنسان، ومؤازرة الانسان للإنسان في علاقة إنسانية متكاملة قائمة على التعاضد، والتحاب.

﴿٣٧﴾

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

لكن هذا كله يمكن أن يعيقه البخل، فيُصبح الانسان في عزلة عن الانسان، يُصبح في وحشة عن الانسان، في واقع اجتماعي قائم على روح الأنانية، لايُحسن فيه أحدهم إلى أحد، وبذلك تنحدر المحبة في قلب هذا المجتمع إلى أدنى مستوياتها. ذلك أن السخاء هو عنوان الاحسان،

والإنسان إن لم يكن سخياً، لن يكون بوسعه أن يكون محسناً، فقال الله تعالى:﴿الَّذِينَ﴾ اللامحسنون ﴿يَبْخَلُونَ﴾عن الاحسان، فهؤلاء لاخير فيهم سواء لأنفسهم، أو لغيرهم، وإضافة إلى ذلك فهم يعطون انطباعاً أنانياً عن المجتمع، فيمكن لهؤلاء أن يتركوا بمواقفهم أثراً سلبياً على بنية المجتمع، ثم أنهم لايكتفون بالبخل لأنفسهم، بل: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ حتى يجعلوا لأنفسهم مريدين ومؤيدين يقوى بعضهم ببعض بالكثرة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي يسعون بكل إمكاناتهم إلى إقناع الناس بالبخل، فأن تقنع شخصاً باتباع سلوك، يعني أنك تأمره بطريقة غير مباشرة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد عن النار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار. ولجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل".

ثم ﴿وَيَكْتُمُونَ ﴾ يوارون﴿مَا آتَاهُمُ﴾ ما رزقهم ﴿ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾من المال، حتى يُبرروا ويُمرّروا بخلهم، ويسدو أمام المحتاجين باب السؤال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد:(نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحري بن عمرو كانوا يأتون رجالا من الأنصار ويخالطونهم فيقولون لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون ما يكون فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾).

فالسعي هنا إلى تعميم سلوك البخل ، والمحاولة في الاقناع ما أمكن، وفي الحديث: "ما من عبدٍ أنعم الله عليه بنعمةٍ فأسبغها، ثم جعل إليهِ شيئاً من حوائج الناس،فتبرم، فقد عرض تلك النعمة للزوال" .

يقول الله في نهاية الآية:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾فقد اقترن البخلُ بالكفرِ، فهو ناكر لفضل الله عليه، فأن تنفي نعمة أنعمها الله عليك، يعني أنك تكفر بها، وانظر هنا إلى بلاغة كلمة الكفر، فأن تكفر أمراً، يعني أنك تخفيه، ولذلك يُقال بأن الفلاح كافر، لأنه يكفر البذرة في التراب، أي يدمها ويخفيها بالتراب، فقد جعل الله جل ثناؤه البخيل كافراً لأنه يخفي المال الذي رزقه الله به، ويجحد فضل الله عليه.

وفي الحديث: " إن الله إذا أنعم نعمةً على عبدٍ أحبَّ أن يَظْهَرَ أثرُها عليه " .

وفيه: " وأي داء أدْوَأ من البخل " . و: " إياكم والشّحَ، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعةِ فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففَجَرُوا ".

فهؤلاء يلقون العذاب المهين، والمهين من الاهانة، أي الاذلال ، بمعنى عذا ب يذلهم.

﴿٣٨﴾

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً﴾

تستمر السورة لتلم بكافة جوانب استخدام الانسان للمال، وهي ترشده إلى حسن الاستخدام، وتجتبه سوء استخدامه. يذكر الله جل جلاله هنا الوجه السلبي في إنفاق المال، وهو في الوقت عينه الوجه الآخر للبخل، فالشخص يكون بخيلاً، ولايصدر منه الاحسان في سبيل الله، بيد أنه يقدم على الانفاق لغاية في نفسه دون سبيل الله، ودون نيّة الاحسان:﴿وَالَّذِينَ﴾هذا الصنف من الناس ﴿ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء﴾ على مرآة من﴿النَّاسِ﴾يتعمدون الانفاق علناً، ويمتنعون عن الانفاق إن لم يكن على ملأ من الناس. وهم يصرّون أن يرى الناس إنفاقهم رأي العين لأنهم :﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ كي ينفقوا في سبيله سراً ﴿وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾كي يلقوا فيه ثواب ما أنفقوا،كون كل شيء بالنسبة إليهم يدور في فلك مصالح الدنيا اليومية :﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً﴾القرين هو الصاحب، أو الخليل، والقرين من المقارنة، أي المقاربة. عندما تأتي بشخصين وتقارن بينهما، فذلك يعني أنك تشابه بينهما، فقد قارنهم الله تعالى بالشيطان الرجيم ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً﴾ذلك أن هؤلاء ينفّذون ما يملي عليهم الشيطان، وقد نزلت هذه الآية كما يُروى :(في مطعمي يوم بدر، وهم رؤساء مكة، أنفقوا على الناس ليخرجوا إلى بدر). فالانفاق هنا يكون في سبيل الشيطان: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف ٣٦ لذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جُدعان كما يُروى:هل ينفعه إنفاقُه، وإعتاقُه؟ فقال: " لا إنه لم يقل يوما من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " .

﴿٣٩﴾

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً﴾

يبيّن الله للناس بأن هؤلاء كان يمكن لهم ألاّ يسلكوا نهج الشيطان، وألا يجعلوا من الشيطان قريناً لهم، بيد أنهم أقدموا على ذلك من تلقاء أنفسهم، فما الذي كان سيحصل فيما لو انتهجوا سبيل الله، وما ظلموا أنفسهم: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ**﴾الذين جعلوا أنفسهم قرناء للشيطان:﴿**لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾بأن ما لديهم من مال إنما رزقهم به الله، وأنهم عندما ينفقونه في سبيله، سيلقون الثواب في الآخرة.

وردفي الصحيحين، من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِي، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويلِ، وفيه: فيقول الله عز وجل: " ارْجِعُوا، فمَن وجدتم في قلبه مثقالَ حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار " . وفي لفظ: " أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا ".

وفي الحديث:" إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رُءوس الخلائق يوم القيامة فينشرُ عليه تسعةً وتسعين سجلا كل سجل مثل مدَّ البصر، ثم يقول الله: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظَلَمَكَ كتبتي الحافظُون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلَكَ عذرٌ أو حسنةٌ؟ فبُهِتَ الرجل، قال: لا يا رب، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقول: احضرْ وَزْنَكَ، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقُلتْ البطاقةُ، قال: فلا يثقل مع اسم الله شيء ".

وفي ذلك بيان بأن الناس جميعاً سواسية عند الله، وهم الذين يختارون ما يكونون عليه، فهنا يظهر بأن لاشيء كان يمكنه أن يمنع هؤلاء ليكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، ولا شيء كان بمقدوره أن يمنعهم من الانفاق في سبيل الله، فقد رزقهم الله بهذا المال، وكما أن الله لم يرغم عليهم كي ينفقوا في سبيله، وهو قادر أن يرغم عليهم ذلك، فهو أيضاً لم يرغم عليهم ألاّ ينفقوا في سبيل الشيطان، الأمر الآخر، فإنه جل جلاله لم يجعل للشيطان سلطاناً عليهم، فهو لا يملك أن يرغم الناس على المعصية، فالانسان يرى السبيلين أمامه، ويرى حريته في انتهاج أي من السبيلين، ثم يقرر أيهما :﴿**وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً**﴾.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾

وفي ذلك، فـ ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فالكافر كان يمكن له ألاّ يكون كافراً، ذلك أن الله لم يرغم عليه الكفر، كذلك لم يمنح الشيطان مقدرة كي يرغم عليه الكفر بالقوة، فقد اختار الكفر وهو بكامل قواه العقلية، واستخدم كل امكاناته المالية، والعقلية، والجسدية كي يروّج للكفر في الناس، ويُصبح جنداً من جنود الشيطان، وهو يحارب الله ورسوله والمؤمنين بكل ما لديه من إمكانات. ثم أنه رغم كل هذا التاريخ من الكفر، فإن باب التوبة لم يُغلق يوماً أمامه، بل أن الله يفرح بتوبة التائب، بيد أنه لبث عنيداً على كفره، دون أن يلتفت لباب التوبة المفتوح. يُخبرالله تعالى الناس بأنه﴿لاَ يَظْلِمُ﴾أحداً﴿ مِثْقَالَ﴾زنة ﴿ذَرَّةٍ﴾

ثم:﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا عيسى بن يُونُس، عن هارونَ بن عنترة عن عبد الله بن السائب، عن زَاذَانَ قال: قال عبدُ الله بن مَسْعُود: (يُؤْتى بالعبد والأمَة يومَ القيامةِ، فينادي منادٍ على رءوس الأولين والآخِرين: هذا فلانُ بنُ فلانٍ، من كان له حق فليأت إلى حقه. فتفرحُ المرأةُ أن يكون لها الحق على أبيها أو أخيها أو زوجها. ثم قرأ: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ المؤمنون١٠١ فيغفر الله من حقه ما يشاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئا، فينصَب للناس فينادَي: هذا فلانُ بن فلانٍ، من كان له حق فليأتِ إلى حقه. فيقول: رَبّ، فَنِيَت الدنيا، من أين أوتِيهْم حقوقهم؟ قال: خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كلَ ذي حق حقه بقدر طلبته فإن كان وليًّا لله ففَضَلَ له مثقالُ ذرة، ضاعفها الله له حتى يدخلَه بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿ إِنَّ اللّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ قال: ادخل الجنة؛ وإن كان عبدًا شقيا قال الملك: ربِّ فنيت حسناته، وبقي طالبون كثير؟ فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صُكُّوا له صَكًّا إلى النار).

وحيث أن الله ﴿لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فحتى الكافر الذي يعمل حسنة، فإن الله تعالى يُجازيه بها وفق ما هو عليه، فهو إنسان دنيا، ولايؤمن بالآخرة، فيعطيه الله في دنياه، كون لا إيمان له بالآخرة، نقيض المؤمن الذي يعمل في الدنيا، ويؤمن بالآخرة . يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

" إن الله لا يظلمُ المؤمن حسنةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة " ، ويقول: "وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُعطى بها خيرًا " .

وقال الإمام أحمد: (حدثنا عبد الصمد، حدثنا سُلَيْمانُ - يعني ابن الْمُغَيْرَةِ- عن علي بن زَيْدٍ، عن أبي عثمان قال: بلغني عن أبي هريرة أنه قال: بلغني أن الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة. قال: فقُضي أني انطلقت حاجا أو معتمرا، فلقيته فقلت: بلغني عنك حديث أنك تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة " قال أبو هريرة: لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله عز وجل يعطيه ألفي ألف حسنة " ثم تلا: ﴿ **يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾).

إذا كان الله يُضاعف بكل هذا القدر، فأي قدر يكون لرحمته الذي يؤتها من لدنه في خاتمة الآية، وكيف يمكن أن تكون سعة الرحمة في قوله ﴿**وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً**﴾فنحن إزاء عطاء الله، إزاء كرم الله، وعندما يقول الله بأنه ﴿**يُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً**﴾ فكيف يكون هذا الأجر الذي وصفه جل ثناؤه بالعظيم، وهو﴿ **مِن لَّدُنْهُ**﴾ أي من عنده، من كرمه، من رحمته ، وقد رأينا كيف أن الحسنة الواحدة تضاعُف إلى مليونَي حسنة.

ورد في صحيح مسلم في حديث الشفاعة الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم، بأن الشفاعة تصبح حتى للمؤمنين في الجنّة، فيسألون الله أن يُخرج المؤمنين الذين هم على صلات، أو معرفة بهم من النار، ويسألونه أن يقبلهم شفعاء لهم، فيستجيب لهم الله، ويأذن جل جلاله أن يذهبوا إلى هؤلاء في الجحيم، وهناك سيتم إخراجهم من النار بأمر الله الذي قبل منهم الشفاعة ،فيتسلمونهم، ويجلبونهم معهم إلى الجنة.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول عز وجل أرجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن

أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا". قيل أن أبا سعيد الخدري قال :

فمن لم يصدق هذا فليقرأ هذه الآية: ﴿**إن الله لا يظلم مثقالَ ذرةٍ وإن تكُ حسنةً يُضاعِفْها ويُؤتِ من لدنه أجرًا عظيمًا**﴾ قال: فيقولون ربَّنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحدٌ فيه خير، ثم يقول الله عز وجل: شفعتِ الملائكةُ، وشفعتِ الأنبياءُ ، وشَفع المؤمنون، وبقي أرحمُ الراحمين، قال: فيقبض قبضةً من النار، أو قال: قبضتين لم يعملوا لله خيرًا قط قد احترقُوا حتى صاروا حُممًا فيُؤتى بهم إلى ماء يقال له: ماء الحياة فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحِبَّة في حَميلِ السيل، قال: فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم: عتقاء الله فيقال لهم: ادخلوا الجَنَّة فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم، قال فيقولون: ربّنا أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من العالمين، قال: فيقول فإن لكم أفضل منه، فيقولون: ربنا وما أفضل من ذلك؟ فيقول: " رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبدًا " .

روي عن ابن عباس وابن مسعود أنهما قالا:(أن هذه الآية إحدى الآيات التي هي خير مما طلعت عليه الشمس).

﴿٤١﴾

﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً**﴾

بعد أن يحسن النبي صلى الله عليه وسلم الاصغاء إلى ربه، في كل هذه الجزئيات، والتفاصيل، والأحكام، والشرائع، والأحداث، عائداً إلى وقائع كل ذاك التاريخ الإنساني منذ بدء الخليقة في مستهل السورة، وعلى مدى أربعين آية من العلم والمعرفة. الآن يُخاطب الله شخص رسوله قائلاً: ﴿**فَـ**﴾يا محمد﴿**كَيْفَ**﴾بعد كل الذي أعلمناك به، وأبلغت به رسالتنا لأمتك ﴿**إِذَاجِئْنَا**﴾أحضرنا بعد كل تلك الحقب الزمنية الطويلة﴿**مِن**﴾أبناء ﴿**كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ**﴾بمن يشهد عليهم من أبنائها :﴿**وَجِئْنَا بِكَ**﴾وأنت النبي والرسول والشاهد الخاتم ﴿**عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً**﴾

قال البخاري: حدثنا محمد بن يُوسُفَ، حدثنا سفيانُ، عن الأعْمَشِ، عن إبراهيمَ، عـن عبيـدة، عن عبد الله بن مسعود قال: (قال لي النبي صلى الله عليه وسلم " اقرأ علـي " قلت: يـا رسـول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزلَ؟ قال: " نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري " فقـرأت سـورة النسـاء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ قال: " حسبك الآن " فإذا عيناه تذْرِفان.

﴿٤٢﴾

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً﴾

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾يا محمد حين نجيء - ﴿**من كل أمة بشهيد**﴾، ونجيء ﴿**بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾- يُخبر الله رسوله :﴿**يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ**﴾

فالناس سيكونون في يوم الحصاد الأكبر :﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾الزلزلـة ٦ يضع الله تعالى رسوله في قلب المشهد ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾فهـؤلاء الـذين كفـروا بـالله، وعصـوا الرسـول يودون: ﴿ **لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ**﴾هؤلاء الذين استكبروا وطغـوا، وجنـدوا أنفسهم وإمكانـاتهم للشيطان، وإلحاق الأذى بالمؤمنين، الآن أصبحوا في مواجهـة مـع المصير، في مقابلـة مـع الحقيقـة، فيودون أن يتواروا عن الأنظار، أن تنشق الأرض وتبتلعهم، يودون لو أنهم لم يكونوا، أن يلـوذوا بالفرار من تاريخ الخزي الذي يقفون عليه:

﴿**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً** ﴾النبأ٤٠

قال جُوَيْبرٌ عن الضَّحَّاك: (إن نـافعَ بن الأزْرَقِ أتى ابنَ عبـاس فقـال: يـا ابـن عبـاس، قـول الله: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا** ﴾ وقوله ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ الأنعام ٢٣ فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عنـد أصحابك فقلت ألْقي علَى ابن عباس متشابه القـرآن. فـإذا رجعـت إلـيهم فـأخبرهم أن الله جـامع النـاس يـوم القيامـة في بقيـع واحـد. فيقـول المشـركون: إن الله لا يقبـل مـن أحـد شـيئا إلا ممـن وحده، فيقولون: تعالوا نَقُلْ فيسألهم فيقولون: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ قال: فيُخْتم على أفواههم، وتسْتنطق جوارحهم، فتشهد عليهم جوارحُهم أنهم كانوا مشـركين. فعنـد ذلـك تمَنَّـوْا لو أن الأرضَ سُوِّيَتْ بهم ﴿ **وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا** ﴾) رواه ابن جرير.

الباب الثالـث عشـر
سبيل اللــه

﴿٤٣﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾

تخصيص الخطاب للمؤمنين في هذه المرحلة من الحدود بألاّ يقربوا الصلاة وهم في حالة سكر، لأن الكفار لا يقربونها سواء أكانوا في سكر، أو في صحو.

ونظراً لأن السكران - مفرد سكارى- لايعلم ما يقول، فقد تم استنباط أحكام أخرى من هذه الآية، ومنها أنه عندما يطلّق وهو سكران، فإن الطلاق لايقع ، لأنه لم يعلم ما يصدر عنه. وقد رأى ذلك عثمان بن عفان، وابن عباس، وطاوس، وعطاء، والقاسم، وربيعة، وهو قول الليث بن سعد، وإسحاق، وأبي ثور، والمزني.

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا محمد بن عمَّار، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدَّشْتكي، حدثنا أبو جعفر عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السَّلَمي، عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرتِ الصلاةُ فقدَّموا فلانا قال: فقرأ: قل يا أيها الكافرون، ما أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. قال فأنزل الله تعالى :**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾**

هكذا رواه ابن أبي حاتم، وكذا رواه الترمذي عن عبد بن حُمَيْدٍ، عن عبد الرحمن الدَّشْتكي، به، وقال:حسن صحيح .

ويُروى أنه عندما نزلت: ﴿**يَسأَلونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسِرِ قُل فِيهِمَا إِثمٌ كَبِيرٌ** ﴾البقرة٢١٩

وتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا. فلما نزلت ﴿**لا تقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تعلَمُوا مَا تقُولُونَ** ﴾، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا. فكان منادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يقربن الصلاة سكران. فلما نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمرُ وَالمَيسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزلامُ رِجسٌ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ فَاجتَنِبُوهُ لَعَلَّكُم تفلِحُونَ**﴾إلى قوله: ﴿**فَهَل أَنتُم مُنتَهُونَ**﴾ المائدة٩٠، ٩١ فقال عمر: انتهينا، انتهينا.

بعد ذلك يضيف الله تعالى بعدم جواز قرب الصلاة :﴿**جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغتَسِلُواْ**﴾

وقد جاءت كلمة﴿**تَغتَسِلُواْ**﴾ معبرة عن غاية الاغتسال، وهي التنظيف، فأن تصب الماء على بدنك صباً، فإنك لم تغتسل، بل صببتَ ماءً على بدنك، ثم أنك لو سبحت، فإنك لم تغتسل، لأنك سبحت، ولذلك فإن الوضوء لايكتمل فيما لو غمستَ وجهك، أو أعضاءك في الماء، فلا بد أن تقوم يداك بعملية الغسل، ما دمت تمتلك يدين سليمتين قادرتين على الغسل.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تحت كل شعرة جنابة فاغسلوا الشعر وانقوا البشرة"

وروى موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يقرأ الجنب والحائض شيئا من القرآن" أخرجه ابن ماجة. وأخرج الدارقطني من حديث سفيان عن مسعر، وشعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن علي قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جنبا. قال سفيان: قال لي شعبة: ما أحدث بحديث أحسن منه.

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرني ابن أبي ليلى، عن المنهال، عن زِرّ بن حُبَيش، عن علي: ﴿ **وَلا جُنُبًا إِلا عَابِرِي سَبِيلٍ** ﴾ قال:لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء.

وعن ابن عباس قوله: ﴿**ولا جنبًا إلا عابري سبيل**﴾، يقول: لا تقربوا الصلاة وأنتم جُنب إذا وجدتم الماء، فإن لم تجدوا الماء فقد أحللتُ لكم أن تمسَّحوا بالأرض).

قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدويه: (حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا الليث حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا العلاء بن أبي سوية، حدثني الهيثم عن زَرَيق المالكي - من بني مالك بن كعب بن سعد، وعاش مائة وسبع عشرة سنة- عن أبيه، عن الأسلع بن شريك قال: كنت أُرَحِّل ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابتني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقتة وأنا جنب، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها، ثم رضَفت أحجارًا فأسخنت بها ماء، فاغتسلت. ثم لحقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال: " يا أسلع، مالي أرى رحلتك تغيرت"؟

قلت: يا رسول الله، لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار،

قال: " ولم "؟ قلت: إني أصابتني جنابة، فخشيت القُرَّ على نفسي، فأمرته أن يرحلها، ورضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل الله تعالى: ﴿ **لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً**﴾).

ثم يبيّن الله :﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَى**﴾لو أن بك جرح، أو قرح، أو داء، ووصول الماء إليه يؤذيه، ويلهبه ، أو يسبب لك وجعاً، فقد رخص الله تعالى لك التيمم. قال ابن أبي حاتم: (حدثنا أبي، حدثنا أبو غسَّان مالكُ بن إسماعيل، حدثنا قيس عن خَصِيف عن مجاهد في قوله: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى** ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار، كان مريضا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم فيناوله، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية). بعد ذلك يبيّن الله جل ثناؤه:﴿**أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً**﴾

وقد نزلت كما تقول عائشة رضي الله عنها بقول البخاري: (حدثنا عبد الله بن يوسف، أنبأنا مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، حتى إذا كنا في البيداء - أو بذات الجيش- انقطع عقد لي، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه

وسلم وبالناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! فجاء أبو بكر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بَركتكم يا آل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته).

﴿٤٤﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾

هم يهود المدينة الذين أرادوا أن يضلوا المسلمين عن سبيل الاسلام، فهم بفعلهم يخسرون ما آتاهم الله عز وجل من التوراة، فيشترون الضلالة، والذي يشتري، لابد له أن يدفع ثمن شرائه، وإلاّ ما كان مشترياً، والثمن الذي دفعوه هو الهدى، فدفعوا الهدى ثمناً للضلالة ،﴿وَيُرِيدُونَ﴾ للمسلمين أن يضلوا ﴿السَّبِيلَ﴾مثلهم.

﴿٤٥﴾

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً﴾

إن الله أعلم منكم بمن يكتون العداء لكم، وبحجم عداوتهم لكم، فلا تدعوهم يضلوكم عن الحق، والله يعلم بأنهم لا يريدون لكم الخير، وتكفيكم ولاية الله لكم، ويكفيكم نصره لكم، وفي هذا تحذير لهم بألاّ يتأثروا بما يقول لهم اليهود، وبيان بأن الله لايتخلى عمّن يتولاهم، ويحقق لهم النصر المؤزر على أعدائهم.

﴿٤٦﴾

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾

وحيث أن الله تعالى قال بأنه أعلم من المسلمين بأعدائهم، وهم اليهود، فيقول تعالى ذكره: ﴿مِّنَ﴾بعض ﴿الَّذِينَ هَادُواْ﴾اليهود﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾التحريف، هو شيء من التزوير، أي يُخرجون الكلام عن معناه الصحيح فيؤولونه تأويلاً دوناً﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، ويذكر الله بعض الكلام المبهم الذي يتلفظوا به مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحريف ﴿الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾كما يأتي الله بنص قولهم، يبيّن بأنهم يتعمدون هذا التحريف، وهم يعلمون مواضع الكلم، فقد﴿أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾وهذا النصيب الذي أوتوه،﴿يَشْتَرُونَ﴾به﴿الضَّلاَلَةَ﴾، فهم يتحدّثون تحريفاً، ويؤولون كلام الله تحريفاً، فانظر إليهم عندما يتحدّث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيستهزئون بما يقول، ويقولون:﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾أي سمعنا ما تقول يامحمد، وكلمة﴿عَصَيْنَا﴾تشير بأنهم علموا الحق، بيد أنهم عصوا عن الاستجابة له. فقد سمعناك يا محمد، وعلمنا ما ترمي إليه، لكننا نعصيك، ولانكون كما تريد لنا أن نكون.

ثم انظر إلى تصاعد حدّة تمادي هؤلاء ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ﴾على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيستأنفون: ﴿وَاسْمَعْ ﴾ما نقوله نحن يا محمد، لأن ما تقول ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾بالنسبة إلينا. ثم يزدادون تمادياً بقولهم:﴿ وَرَاعِنَا﴾ من المراعاة، كما تقول لشخص: راعني، بمعنى يسّر، أو خفف عني، بيد أن اللي باللسان هنا يميل بالقصد إلى نقيضه وهو الرعونة، فهم يقولون للمصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿ رَاعِنَا﴾من باب الرعونة ﴿ لَيّاً﴾ تحريفاً ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾لمعنى الكلمة ، أي يريدون إرعانه بها﴿ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾تعبير دقيق عمّا يرمون إليه، فالطعن هو مسعى إلى تقليص الحراك، أو الشلل، فعندما يتلقى المرء طعنة، فذلك يؤدّي إلى تقليص حركته، وقد يؤدي إلى شلل الموضع الذي تلقى الطعن، فبيّن الله تعالى بأن هؤلاء يسعون إلى تقليص انتشار الاسلام، والسعي إلى إلحاق الشلل به، وذلك من خلال حرف ﴿ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ثم من خلال الاستهزاء برسول الاسلام، وكذلك توجيه الشتائم له .

يقول الله في حقهم:﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ -بدلاً عن﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾- ﴿**وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا** ﴾- بدلاً عن ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾- ﴿**لَكَانَ**﴾ذلك ﴿**خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ** ﴾للاعوجاج الذي لبثوا فيه، فأن تقوّم الشيء، أي تسويه، وتجعله مستقيماً، فخير الانسان في استقامته، لا في اعوجاجه ﴿**وَلَكِن** ﴾ لم يقولوا ما هو خير لهم، ولم يستقيموا، فـ ﴿**لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ**﴾استناداً إلى كل ما ذكره الله من ممارستهم الكفر قولاً وفعلاً.

عن ابن عباس قال: (كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظمائهم - يعني من عظماء اليهود إذا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال: راعنا سمعَك، يا محمد حتى نفهمك. ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ** ﴾ إلى قوله: ﴿**فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾).

فقد أصبح الـ ﴿**كُفْرِ**﴾ لـ﴿**هِمْ**﴾ لأنهم اشتروه، وما داموا قد اشتروه، فمن الطبيعي أن يُصبح لـ ﴿**هِمْ**﴾ ثم تنتهي الآية بـ : ﴿**فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾. فإذا عدنا إلى مستفتح الآية، نرى بأن المراد هم : ﴿**مِّنْ**﴾بعض ﴿**الَّذِينَ هَادُواْ**﴾اليهود﴿ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾، وربطنا بينها وبين جملة الختام : ﴿**فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.لعل ذلك يشير لنابأن القليل هو العدد القليل المتبقي من مجموع الـ ﴿**مِّنْ**﴾فقد استثناهم الله تعالى بقوله: ﴿**فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾. فلا يؤمن ﴿**مِّنْ**﴾مجموع ﴿**الَّذِينَ هَادُواْ**﴾إلاّ الـ ﴿**مِّنْ**﴾المتبقي، وقد وصفه الله بالقليل، ومنهم عبد الله بن سلام الذي دخل الاسلام مع أصحابه.فـ: ﴿**فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾جملة مفتوحة لأبناء كل زمان ومكان، لأن باب دخول الاسلام مفتوح للناس جميعاً، وغير مسدود بوجه أحد في كل زمان، وكل مكان، والله أعلم.

﴿٤٧﴾

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾

الآن يأتي الخطاب شاملاً للكل دون الـ﴿**مِّنْ**﴾وهو للمبيّن معاً ﴿**يَا أَيُّهَا**﴾ يا عموم﴿**الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾سواء﴿**الَّذِينَ هَادُواْ**﴾أو النصارى، فقد جمعهم الله تعالى ووجه خطابه إلى عمومهم : ﴿**آمِنُواْ**﴾خطاب الجمع هذا يجعل من كل كتابي مؤهلاً للإيمان برسالة الله الخاتمة التي أنزلها

على محمد صلى الله عليه وسلم، وأن باب الإسلام مفتوح أمامه، وفي ذلك بيان بأن الله تعالى يقبله مسلماً ﴿**بِمَا نَزَّلْنَا**﴾القرآنعلى خاتم الأنبياء والرسل ﴿**مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم**﴾من التوراة والانجيل، فالـ﴿**بِمَا**﴾ هو تكملة للـ﴿**لِّمَا**﴾ والـ ﴿**لِّمَا**﴾ دون الـ ﴿**بِمَا**﴾ يبقى ناقصاً، فكما أن التوراة، صدّقه الانجيل، فإن القرآن هو مصداق لهما، وبه تكتمل رسالة الاسلام، فبدون القرآن يبقى﴿ **لِّمَا مَعَكُم**﴾ دون خاتمة، فأنتم أمام جزأين من رسالة الاسلام، والقرآن هو الجزء الثالث الذي اختتمت به رسالة الله عبر أنبيائه ورسله إلى العالمين. فآمنوا حتى يكتمل ﴿ **لِّمَا مَعَكُم**﴾﴿**بِمَا نَزَّلْنَا**﴾وفرصة الإيمان سانحة الآن أمامكم ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا**﴾ فإن لبثوا في نكرانهم للحق بعد أن علموه، يلقوا من الله جزاء ما أنكروا.يروى أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لمّا سَمِعَ هذه الآية جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتي أهله، ويده على وجهه، وأسلم وقال:(يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي).

قال العوفي عن ابن عباس: (﴿**مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً** ﴾ وطمسها أن تعمى ﴿ **فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** ﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه).

ويُروى أن كعب الأحبار عندما سمع هذه الآية، أسلم. يقول ابن جرير: (حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن عيسى بن المغيرة قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب، فقال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمر على المدينة، فخرج إليه عمر فقال: يا كعب، أسلم، قال: ألستم تقرءون في كتابكم ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾الجمعة٥

وأنا قد حملت التوراة. قال: فتركه عمر. ثم خرج حتى انتهى إلى حمص، فسمع رجلا من أهلها حزينا، وهو يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا** ﴾ الآية. قال كعب: يا رب آمنت، يا رب، أسلمت، مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن، ثم جاء بهم مسلمين) .

﴿**أَوْ نَلْعَنَهُمْ**﴾لعل المراد نمسخهم﴿**كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ**﴾حيث مسخهم إلى قردة وخنازير﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾فما يقوله الله تعالى قولاً، ما يلبث أن يتفاعل معه الفعل، وقوله لاينفصل عن فعله، فمعلوم أن الانسان ينفصل قوله عن فعله، فقد يقول شيئاً، بيد أن

إمكاناته لاتعينه على تحقيقه ، ثم أنه قد يقدر على تحقيقه، ولا يفعله رغم أنه قاله، فقد انفصل القول عن الفعل، لكن الله - الذي له المثل الأعلى - فلا قوة يمكنها ألاّ تخضع لأمره،:﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ يس ٨٢ فلا يمكن له ألاّ يتحوّل إلى فعل بأي حال من الأحوال فالقول هو أمر، والأمر منفَّذ لامحالة.

﴿٤٨﴾

﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً**﴾.

فكل ما يمكن لإنسان أن يفعله من ذنوب، تكون قابلة للمغفرة، باستثناء﴿**أَن يُشْرَكَ**﴾بـ﴿**بِهِ**﴾فالشرك هو أسوأ أشكال التحدّي مع الله عز وجل، لأن المشرك لايكون له أن يُشرك بالله أحداً إلاّ إذا تحدّى الله تعالى بأن يجعل له شركاء، والشرك لا يقتصر على زمن بعينه، أو أن يجعل مع الله إله آخر، أو يجعل له أبناء، أو أصحاب، بل يستمر مع استمرار الحياة، ويتغيّر شكله مع تطوّر أنماط الحياة، ولذلك يتوجب التنبيه إلى درجات الشرك، وعوامله، ومراحله، ومن ذلك الكِبر، والتعالي ، وتضخم النزوع الأناني، والاتكال على الناس، فالشرك يأخذا أشكالاً، وألواناً مختلفة مع العصور، فلعل البعض يشرك بالله من خلال تعامله مع التقنيات الحديثة، أو من خلال بعض أهل الاختراع، أو بعض أنماط الحياة المعاصرة.

جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في وجوه المداحين التراب).

فحتى الأب، لايقبل من ابنه أن ينكره، ثم يتخذ أباً غير شرعي غيره فيتعامل معه تعامل الابن لأبيه، والأب ليس له في الابن سوى جزء يسير مما للخالق في مخلوقه، فكل ما في المخلوق هو من صنع الخالق، وما يتنفس من نفس إلاّ بفضله، وما يتناول من لقمة إلاّ دفعها إليه الله، وما يمضي في خطوة، إلاّ بما بث الله إليه من قوة. ومما يُروى أن الله تعالى قد أرسل ملكاً إلى فرعون وسأله عن مصير الذي ينكر ربوبية فرعون له، فقال له فرعون بأنه سيخسف به في البحر، فكان له ذلك.

فكان الشرك خارجاً عن المغفرة، لأن المشرك قد أخرج نفسه عن الإيمان بوحدانية الله، وبذلك فقد أخضع نفسه طوعاً لهذه الـ ﴿لا﴾ مغفرة.

قال الإمام أحمد:(حدثنا يزيد، أخبرنا صدقة بن موسى، حدثنا أبو عمران الجوني، عن يزيد بن بابنوس عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**﴾ المائدة٧٢ وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا، فظلم العباد بعضهم بعضا؛ القصاص لا محالة ") [٢٨]

قال الكلبي: (نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه، وذلك أنه لمّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يُعتق فلم يُوَفَّ له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ ا الفرقان ٦٨ ، وقد دعونا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت:﴿**إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا**﴾ الفرقان ٧٠ فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فلمّا قرأوا كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملا صالحًا، فنزل : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**) ، فبعث بها إليهم فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت:﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**﴾ الزمر ٥٣ ، فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلتَ حمزة؟ فلمّا أخبره قال: " ويحك غيّب وجهك عني " ، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات) .

يصف الله تعالى الشرك في نهاية الآية بالافتراء، ذلك أن المشرك يفتري ﴿**إِثْماً عَظِيماً**﴾على وحدانية الله.

---

[٨٥] تفرّد به الإمام أحمد

﴿٤٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾

يخبر الله رسوله عن الذين يظنون بأنهم يزكّون أنفسهم بدخول الجنة مثل ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾المائدة ١٨

كذلك:﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾البقرة١١١، أو غير ذلك مما يجعل المرء معتقداً بأنه سيدخل الجنـة، أو أن شخصاً ما سيزكّيه لدخول الجنة، وفي التنزيل: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾البقرة ١١٢ فالتزكية بدخول الجنة هـي مـن الله الواحـد الذي لاشريك له، وهو الذي يُزكّي مَن يشاء بدخول الجنة، فردّ قولهم عليهم، وبـيّن:﴿ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾

في الصحيحين من طريق خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يثني على رجل، فقال: " ويحك. قطعت عنـق صاحبك " . ثـم قال: " إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدا " .

وقال ابن جرير: (حدثنا يحيى بن إبراهيم المسعودي، حدثني أبي، عـن أبيـه، عـن جده، عـن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عـن طـارق بـن شـهاب قـال: قـال عبـد الله بـن مسعود: إن الرجـل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقى الرجل لـيس يملـك لـه نفعـا ولا ضـرا فيقـول له: والله إنك كيت وكيت فلعله أن يرجع ولم يحل مـن حاجتـه بشـيء وقـد أسـخط الله. ثـم قـرأ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ) الآية).

فنحن ما نـزال ضمن تفرّعات أجواء الشرك والمشركين، فالتزكية، هي إيحاء بعلـم الغيـب الـذي يقتصر على الله دون غيره، فذلك شأن الله، وذلك علمه عنده تعالى ذكـره ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ النجم٣٢

ولذلك كان عمر بن الخطاب يقول - برواية ابن مردويه، من طريـق موسـى بـن عبيـدة، عـن طلحة بن عبيد الله بن كريز- : (إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المـرء برأيـه، فمـن قـال: إنـه مؤمن، فهو كافر، ومن قال: إنه عالم فهو جاهل، ومن قال: إنه في الجنة، فهو في النار) .

﴿٥٠﴾

﴿انظُرْ كَيفَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثماً مُبِيناً﴾

بعد أن يضع الله رسوله أمام الحقائق من خلال كل تلك الدلائل والثبوتيات، يوجه الخطاب إلى شخصه، فبعد كل ما بلغهم من البيان يا محمد: ﴿انظُرْ﴾والنظر شهادة ﴿كَيفَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ يخص الله رسوله بهذا الحديث، كون الرسول لديه مهمة نشر الرسالة الخاتمة العظيمة، فيضعه الله في قلب الحقيقة، ويُظهره على ما يقولون بألسنتهم، وكذلك ما يتلفظون به﴿ لَيّاً بِألسِنَتِهِمْ﴾، بل يُظهره حتى على أحاسيسهم ومشاعرهم، وما يتمتموا به في أنفسهم. فحملُ الرسالةِ شأنٌ عظيم، والمُرسِلُ ييسر على رسوله أمرَ بلوغِ الرسالة إلى المُرسَل إليهم :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾القمر١٧، وهذا بذاته ييسر على المُرسَل إليهم تلقي الرسالة، كون القرآن مفتوح بخصوصيته، وعموميته، بما يخص به شخص الرسول، أو حتى يعاتبه، أو يُظهر ما فعله أناس في الخفاء، أو يورد ما قالوه في أنفسهم، أو خطر لهم، والناس جميعاً أمام حقيقة القرآن سواء، سواء أكانوا أنبياء، أو رسلاً، أم مؤمنين، أو مشركين، أو كفار، بل يأتي ذلك حتى على الملائكة، وعلى سائر خلقه، فيورد حتى ما يقوله النمل، وغير ذلك مما خلق الله، فالقرآن هو كتاب النور، وكتاب الحقيقة، ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَستَحْيِي أَن يَضرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ البقرة ٢٦ ﴿وَاللّهُ لَا يَستَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾الأحزاب ٥٣

يقول الله لرسوله: يا محمد ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللّهُ عَلَيهِ وَأَنعَمتَ عَلَيهِ أَمسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾الأحزاب٣٧

ويُخبر الناس عنه في سورة عبس : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى★ أَن جَاءهُ الْأَعْمَى﴾ عبس ١، ٢ لأن الأمر يخص الناس، ثم بعد ذلك يخاطب شخصه : ﴿وَمَا يُدرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى★ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى★ أَمَّا مَنِ استَغْنَى★ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى★ وَمَا عَلَيكَ أَلَّا يَزَّكَّى★ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى★ وَهُوَ يَخْشَى★ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ عبس ٣-١٠ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلم من الله، والله يوجهه التوجيه السليم، فالناس هنا منحهم الله بفضله حق الاطلاع على كل هذه

الخصوصيات، والأسرار، كون الرسالة مُرسلة إليهم، وهم الذين يتفاعلون مع مضمونها، فكما أن النبي هو رسول حمل مسؤولية البلاغ، فهؤلاء هم المُرسَل إليهم رسولاً ورسالة، وكما أن الله يُطلعه عليهم، فإنه جل جلاله، يُطلعهم عليه. فـ ﴿انظُرْ﴾يا محمّد: ﴿كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾أي يكذبون وهم يعلمون بأنهم يكذبون، ويريدون من المؤمنين أن يصدّقوا كذبهم على أنه صواب، فذلك هو الافتراء

﴿وَكَفَى بِهِ﴾بالافتراء**﴿ إِثماً مُبِيناً﴾**

الباب الرابـع عشـر

منارة الإيمان

﴿٥١﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾

لقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلّم وما يقدم عليه هؤلاء من أشكال الشرك والكفر، وكأن الله عز وجل يقول له: أرأيت يامحمد كيف أن﴿**الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً**﴾ أنعم الله عليهم بأن آتاهم بالبيّنات ﴿**مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ورغم ما أوتوا بما جعله الله من نصيبهم من العلم: ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ**﴾في الحديث: " الطيرة والعيافة والطرق من الجبت " قال عوف: (العيافة :زجر الطير، و الطرق :الخط، يخط في الأرض، و الجبت قال الحسن: إنه الشيطان).

﴿**وَالطَّاغُوتِ**﴾قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين.

وقال مجاهد: (الطاغوت :الشيطان في صورة إنسان، يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم.

وقال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله، عز وجل.

﴿**وَ**﴾ من ثم ﴿**يَقُولُونَ**﴾﴿**لِ** ﴾- (أولياء إبليس)-﴿ **لِلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾بالله ﴿**هَؤُلاء**﴾بأنهم﴿ **أَهْدَى**﴾أكثر صواباً على سبيل الهداية ﴿**مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾بوحدانية الله ﴿ **سَبِيلاً**﴾

عن ابن عباس أنه قال: (لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت حَبْر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت:

﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبْتَرُ**﴾ الكوثر ٣ ، وأنزلت: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا**﴾).

﴿٥٢﴾

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾

يقول الله جل جلاله في حق:﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ﴾رأيتهم يا محمد ، فقد﴿لَعَنَهُمُ اللّهُ ﴾وهذا جواب لـ ﴿ أَلَمْ تَرَ﴾ فبعد أن رأى النبي أفعالهم، كان لهم أن ﴿لَعَنَهُمُ اللّهُ﴾بما اقترفوا﴿وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ ﴾ويُمسي ملعوناً بلعنة الله التي يُلعَن بها﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ لن يكون بمقدور أحد أن ينصره، أو يزكيه و﴿فَلَن تَجِدَ﴾ أي لاوجود له،﴿فَلَن تَجِدَ﴾ولن يجد﴿ لَهُ﴾في سبيله ﴿ نَصِيراً﴾ فلا ناصر له، ولانصر له، لأن لاوجود للناصر الذي يمتلك مقوّمات أن ينصره بها ، وبالتالي ينتهي راضخاً للعنة الله.

﴿٥٣﴾

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾

هل يعتقدون، ويعتقد موالوهم أنهم يملكون ويتحكمون بما يملكون، وبالتالي يزكّون مَن يشاؤون، ويحرمون مَن يشاؤون، فهل يظنون أنهم شركاء الله في ملكه حتى يكون لهم ذلك، فـ ليس﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾﴿فَإِذاً﴾ وبناء على نفي وجود﴿ نَصِيبٌ ﴾لهم ﴿مِّنَ الْمُلْكِ﴾:﴿لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ﴾لايستطيعون إعطاء الناس ما لا يملكون، كون العطاء تسبقه الملكية، فهؤلاء لايملكون أن يعطوا ﴿نَقِيراً﴾ ومن جهة أخرى فحتى لو أعطاهم الله ملكاً، فهم سيبخلون ولن يعطوا الناس﴿نَقِيراً﴾أن تنقر شيئاً، يعني لمسك الخفيف له، مثل أن تنقره بسبابتك، فهذا الملموس الذي نقرته غدا ﴿نَقِيراً﴾ لنقرك له ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ الإسراء١٠٠ فـ ﴿لَوْ﴾ ملكوا، فإنهم لن يعطوا ﴿نَقِيراً﴾ واحداً لأحد فيما لو كان﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾،﴿فَإِذاً﴾حتىهذا النقير الصغير لايبدر منهم كونهم بخلاء، ولايريدون حتى مثقال هذا النقير من النفع لأحد.

فجاءت ﴿أَمْ ﴾ لتثبت أن ليس﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾.

﴿٥٤﴾

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾

فهم استناداً على ما سبق، ﴿ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾محمد صلى الله عليه وسلم على النبوة، والمسلمين﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ نبوة محمد، وهديهم للإيمان بنبوته ، فقد جاءت﴿أَمْ﴾ معبرة في العين ذاته عن بل.

أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال:(قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتى في تواضع، وله تسع نسوة، وليس له همة إلا النكاح، فأيّ ملك أفضل من هذا؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿مُّلْكاً عَظِيماً﴾ يعني: ملك سليمان).

﴿ فَقَدْ﴾آتى الله من قبل محمد وصحبه﴿ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾وآتاهم ﴿ مُّلْكاً عَظِيماً﴾فلم يكن فضل الله مقتصراً على نبي، أو رسول، أو قوم دون غيره.

قال عبد الله بن مسعود:(لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله).

﴿٥٥﴾

﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾

يُخبر الله تعالى أن من اليهود﴿ مَّنْ آمَنَ﴾بمحمد، وبرسالته، ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ استكبر عن الايمان به، وكذّبه ، فكان عقاب الله تعالى له على استكباره، وتكذيبه سعير جهنم. ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ فإن الذين صدّوا عن الحق سوف تتولاهم جهنم بسعيرها، أي بشدّة نارها الموقدة.

﴿٥٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾

فالذين يكفرون بآيات الله، وقد تبيّن ما يفترونه على الله ورسوله وطعنهم للقرآن، وما يقومون به بحق المؤمنين في الآيات السابقة، واستناداً على كل ذاك الطغيان: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ

ناراً﴾أي تُدخلهم ناراً تحرقهم، ثم :﴿كُلَّمَا نَضِجَتجُلُودُهُمْ﴾احترقتجراء شدة النـار: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾

﴿لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾الذي كانوا به يُكذبون﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾وقد ذكر الله تعالى اسميه الحسنيين في هذا المقام. يقول الزجاج في معنى العزيز الحكيم :(أصل ع ز ز فِي الْكَلَام الْغَلَبَة والشدة وَيُقَال عزني فلَان على الْأَمر إِذا غلبني عَلَيْهِ

وَقَالَ الله تعَالَى ذكره ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾يس ١٤ أَرَادَ وَالله أعلم قوينا أمره وشددناه وَقَالَ تعَالَى ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ص٢٣ أَرَادَ غلبني، وَيُقَال عزه يعزه وَالله تعَالَى هُوَ الْغَالِب كل شَيْء فَهُوَ الْعَزِيز الَّذِي ذل لعزته كل عَزِيز، **حَكِيم بِمَعْنى مُحكم وَالله تعَالَى مُحكم للأشياء متقن لَهَا**)[٢٩]

رُوي أن هذه الآية قُرئتْ عند عمر رضي الله عنه، فقال للقارئ: (أعدها فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل، فقال معاذ: عندي تفسيرها: تبدّل في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم).

﴿٥٧﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً﴾

فإن وصل الكفار إلى جزائهم، فيصل المؤمنون إلى ثوابهم، هؤلاء هم:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ استجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى للناس كافة عليه، ولم يستكبروا،﴿وَ﴾ إلى جانب الإيمان ﴿عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾أقدموا على أعمال صالحة على قاعدة إيمانهم، وكما أن أولئك سيرون أعمالهم الفاسدة هناك، فهؤلاء سيرون أعمالهم الصالحة، وكما أن أولئك، سيحصدون نتاج ما عملوا، فهؤلاء سيحصدون نتاج ما عملوا، فبلقاء أولئك ﴿الَّذِينَ﴾:﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ هؤلاء :﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ

[٢٩] تفسير أسماء الله الحسنى إبراهيم بن السري بن سهل،أبو إسحاق الزجاج تحقيق: أحمد يوسف الدقاق

مُطَهَّرَةٌ ﴾المطهرة من الحيض، وسوء الخلق، والذمامة، وكل ما يمس طهارة نساء الدنيا، بمعنى هن بريئات براءة كاملة لانقص فيها، وعفيفات عفة كاملة لانقص فيها بأي درجة من الدرجات.

﴿**وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً**﴾عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ في الجنة لشجرةً يسيرُ الراكب في ظلّها مئة عام لا يقطعها، شجرةُ الخلد".

مهما بلغتْ المراتب العلى بإنسان في سعة جاه ومال ونفوذ ، فإنها لا تبلغ أن تقدّم إلى روحه لحظة مجد حقيقية مالم تظلل روحه وريقات أشجار فردوس نقائه الذاتي .

في الليل عندما يستلقي المؤمن في سرير حديقة فردوس نقائه ، يهرول إليه الطير والشجر والنسيم من حوله، كل يسعى جاهدا علّه يعثر على شوكة شر علقت بروحه في فسحة النهار ، فيقتلعها قبل الآخر .

ليس بوسعك أن تبلغ مرحلة متقدمة من مراحل قوة النقاء الذاتي مالم يكن بوسعك أن تبلغ مرحلة متقدمة من مراحل قوة الإيمان، واعلم أن أهل الشر في العالم هم على الدوام أولئك الذين تحول ربيع الإيمان الثري في تربة أرواحهم إلى صحراء قاحلة من اللاإيمان. عندئذ تفقد الحياة بنظرهم أنوار حيويتها ، ويفقد الآخرون تلقائية محبتهم الحقيقية، وتغدو الحقيقة الوحيدة في العالم بالنسبة إليهم هي (اللحظة) في دائرة داجية من روح الأنانية والإفراط في حب الذات.

يحقق لك الإيمان حالة كبرى من نقاء الروح فيبلغ بك مرحلة متقدمة من علاقتك بالله ، يغدو رضاك من رضاه ، ورضاه من رضاك ، سخطك من سخطه ، وسخطه من سخطك في حالة ارتقاء مشرقة مع إنسانيتك ، وعلاقة حميمية دافئة مع الله. حتى إذا تعثرت خطواتك في النهج وقادتك إلى حدائق المعصية المغروسة بأشجار خبيثة، فإنك ماتلبث أن تجري منها جري الناجي بروحه شطر حدائق التوبة المغروسة بأشجار طيبة. تقعد في مياه جداولها وترفع عن روحك جنابة الآثام ، وتؤوب إلى صراط إيمانك المستقيم .

﴿٥٨﴾

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾

لعلها أمانة الولاية على الناس، فولي الأمر مؤتمَن بحقوق مَن يتولاهم، فجاءت كلمة الأمر كون هؤلاء يأمرون، وهنا فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾يأمر الذين يأمرون ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ يا ولاة أمور مّن ولّيناكم عليهم من عبادنا ﴿أن تؤدُّوا الأمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ فحقوقهم هي أمانة لديكم يمكنكم تأديتها، ويمكنكم عدم تأديتها، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ولعل ذلك لايقتصر على شخص ولي الأمر فحسب، بل يشمَل كل مّن يتولى أمور الناس، سواء في دائرة، أو عمل، أو مكتب، أو مدينة، أو قضاء، فهؤلاء جميعاً يمتلكون أن يُصدروا أحكاما نافذة بحق الناس. في حديث الحسن، عن سمرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أد الأمانة إلى مَن ائتمنك، ولا تخن من خانك " رواه الإمام أحمد وأهل السنن. ويمكن أن يشمل ذلك حتى أمانات الناس فيما بينهم سواء أكانت أمانات مالية، أو أسراراً،في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء " .

فلا يجوز لك أن تنكر أمانة أودعها شخص لديك، أوتفشي سرّاً أمّنك به شخص لأن الله أمرك أن تؤدي الأمانة إلى أهلها.

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد الله بن السائب، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل في سبيل الله، فيقال: أد أمانتك. فيقول وأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم، فيهوي إليها فيحملها على عاتقه. قال: فتنزل عن عاتقه، فيهوي على أثرها أبد الآبدين. قال زاذان: فأتيت البراء فحدثته فقال: صدق أخي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تؤدُّوا الأمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾) .

ثم تأتي إلى الأحكام التي هي استكمال للأمانة:﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾إذا بيّنتم حقوق الناس﴿أن تحْكُمُوا بالعَدلِ﴾ أن تبيّنوها، وتصدروا فيها أحكاماً عادلة، فهذا أيضاً يأتي على الأفراد الذين قد يتسببوا في إصدار الأحكام من قبل ولاة الأمور، فشهادة من شخص قد تتسبب في إصدار حكم، فيكون هذا الشخص قد أصدر - عن طريق الحاكم- هذا الحكم على المحكوم، فنحن هنا أمام أمانة القول، وأمانة الشهادة، وأمانة النطق بالحكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾يعظكم الله تعالى بما هو صالح لكم

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾بما تقومون به من أداء الأمانات، وعدالة الحكم، أو عدم استجابتكم لأمر الله في﴿ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾

يقول الزجاج في معنى السميع البصير : (السَّمِيع هُوَ فعيل فِي معنى فاعل وَقد تقدم فِي مثله القَوْل وَالله تعَالَى سامع وَسميع وَيَجِيء على قِيَاس قَول قطرب أن يَقُول فِي سميع إِنَّه الَّذِي يسمع السِّرّ وسامع فِي كل شَيْء، وَيَجِيء فِي كَلَامهم سمع بِمَعْنى أجَاب من ذَلِك مَا يَقُوله الْمُصَلِّي عِنْد رُجُوعه من الرُّكُوع سمع الله لمن حَمده فسر على أنه بِمَعْنى اسْتَجَابَ.

الْبَصِير هَذَا فعيل فِي معنى مفعل كَمَا جَاءَ أليم فِي معنى مؤلموَإِنَّمَا جَاءَ ذَلِك لِأَن مفعلا اسْم الْفَاعِل من أفعل ومطرد فِيهِ اطراد فاعل فِي فعل)

﴿٥٩﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

بنداء مع أمر من الله تعالى إلى المؤمنين أن يطيعوا الله، ثم رسول الله، ثم أولي الأمر الذين يدعون إلى الله ورسوله، فمصدر الطاعة هو الله عز وجل، وما خرج عن المصدر، لايستوجب الطاعة، فالرسول صلى الله عليه وسلم يبلّغ رسالة الله، وطاعته هي تصديق لِما أتى به من عند الله.

في الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصا أميري فقد عصاني " .

فأمير رسول الله، هو الذي يأمر بما أمر به آمره، وآمر آمره، وولي الأمر، هو الذي يتولى الأمر، فإن أمرك بمعصية، فقد خرج عما أُمر به بشأنك.

قال أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، حدثنا نافع، عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " . وإن عنى ذلك الحكّام، فلعل الوصف لايقتصر عليهم، بل يشمل سائر الأولياء الذين يأمرون الناس، ومنهم أولياء الفقه، فهؤلاء

يبيّنون للناس الحدود، والناس يحتكمون إليهم في سائر شؤون حياتهم، من الزواج، والطلاق، والأمانات، والأعمال، والبيع، والشراء، والمواريث، والعلاقات الانسانية، والقروض.

يتحوّل الفقيه بفتواه هنا إلى حاكم يُطاع، بل أن الحاكم ذاته في بعض الشؤون يرضخ ويستجيب لفتيا الفقيه كونه يستند إلى مرجعية الله ورسوله، ولذلك استكملت الآية: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ ما زال الخطاب موجهاً إلى ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، لكن يمكن أن يدخل أولوا الأمر أيضاً ضمن الخطاب كونهم من ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فإن حدث خلاف بين شخص، وبين فقيه، أو بين فقيه، وحاكم، أو بين فقيهين فيما بينهما، فلا ينبغي أن يتمسك كل شخص بموقفه، بل عليهم أن يـ ﴿**رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ**﴾كتاب الله﴿**وَالرَّسُولِ**﴾أن يحتكموا إلى الرسول في حياته، ثم بعد ذلك يـ ﴿**رُدُّوهُ إِلَى**﴾ ما بيّنه الرسول في حديثه، وفي سنته صلى الله عليه وسلم وهذا يغنيهم عن التأويل لكتاب الله في حال خلافهم في هذا التأويل، فيكون الحكَم حديث الرسول ﴿**إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" أخرجه مسلم. وروى أبو داود عن أبي رافع عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الامر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه".

فهذه المرجعية توثق إيمانكم، وأن ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾لكم في استجلاء الحقيقة﴿**وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾وأثبت لصحة الصواب.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل).

﴿٦٠﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً**﴾

نظير الخطاب إلى المؤمنين، يخبر الله نبيه عن الزاعمين بالإيمان بقوله﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾يا محمّد﴿**إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ**﴾أن تزعم شيئاً، يعني أن تقول بفعله، ولم تفعله، فهو قول بلا فعل، وأما الفعل،

فهو نقيض القول ﴿**يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا**﴾ فلو كان الإيمان صحيحاً ولم يكن زعماً منهم لاحتكموا إلى الحق الذي بيّنه الله ﴿**بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾لكنهم ﴿**يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا**﴾ يدّعون الإيمان، لذلك ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ**﴾الطاغوت هو رمز لكل مَن يأمر دون مرجعية الله ورسوله، فهو ينصب نفسه حاكماً ويسن قوانيناً دون أن تكون لها مرجعية إلهية، وهم جنود للشيطان. أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطاغوت**﴾ قال: (الطاغوت رجل من اليهود كان يقال له: كعب بن الأشرف، وكانوا إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ليحكم بينهم قالوا: بل نحاكمكم إلى كعب، فنزلت الآية). إنهم يتخذون من الطاغوت حَكماً ﴿**وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ**﴾ أن يرفضوا الطاغوت

﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ**﴾الذي يُجنّد الطاغوت﴿**أَن يُضِلَّهُمْ**﴾يضل الطاغوت بسعيه إلى المريدين ،ويضل مريديه بتعظيمهم له ، فهؤلاء كونهم يزعمون الإيمان، ويدّعونه، يتحاكمون إلى الذين يطغون في أحكامهم، ولا يعدلون، وهم يمثلون الشيطان الذي يريد ﴿**أَنيُضِلَّهُمْ**﴾يحرّفهم ﴿**ضَلَالاً**﴾انحرافاً﴿**بَعِيداً**﴾عن الصواب والعدل في الحكم، لايضلهم فحسب، بل يضلهم ضلالاً في ضلال، من خلال بعضهم البعض .

﴿٦١﴾

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً**﴾

إذا دُعوا إلى التحكم بـ ﴿**مَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ ليكون مرجعاً للحكم بينهم ﴿**وَإِلَى الرَّسُولِ**﴾ الذي يُخبر عن الله الحق، يخاطب الله جل جلاله رسوله ﴿**رَأَيْتَ**﴾يا محمد﴿**الْمُنَافِقِينَ**﴾لايستجيبون، و﴿**يَصُدُّونَ**﴾يمتنعون ﴿**عَنكَ**﴾بما تحمله من بيان الله﴿**صُدُوداً**﴾امتناعاً

﴿٦٢﴾

﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً**﴾

ثم أنهم عندما يلقون نتائج الحكم غير العادل الذي يُصدره الطاغوت، وتصيبهم ﴿مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾جراء الاعراض عن الله ورسوله، وهنا سيستعينون بالنفاق ويجيئون النبي ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ قائلين له ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾ يبرئون أنفسهم، ويبررون فعلهم بأنهم اعتقدوا بأن الطاغوت يحكم لهم بالحق، وهم بذهابهم إليه رموا إلى الإحسان والتوفيق، لكن تبيّن لهم بانهم كانوا على خطأ، وقد وقعت المصيبة عليهم ،فيأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم هذا.

﴿٦٣﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾

لكن الله الذي يعلم حقيقة ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾يُخبر نبيه بأن ﴿أُولَئِكَ﴾ لايقولون الحق، بل جاؤوا مضطرين كي يحصلوا منه على تآزر، ثم ينصرفوا إلى ما كانوا عليه، فـ ﴿أُولَئِكَ﴾ يا محمد لايصدقونك القول و ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الذي هو خلاف ما يسري على ألسنتهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لاتستجبلهم يا محمد لأنهم يرمون إلى الخداع﴿وَعِظْهُمْ ﴾ أخبرهم بأن نفاقهم لايؤدّي بهم إلاّ إلى مزيد من المصائب﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾لعل المعنى أخبرهم في خلوة بينك وبينهم﴿قَوْلاً بَلِيغاً﴾أخبرهم بأنك تعلم أنهم لايصدقونك القول، ولذلك تعرض عنهم، بمعنى قل لهم الحقيقة كاملة لعل ذلك يكون عظة لهم، فالقول البليغ، هو القول الواضح الذي يبلغ متلقيه ببلاغة.

﴿٦٤﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾

يستمر الحديث بين الله ورسوله فيبيّن له في هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كون طاعة الرسول، دليل إيمان بمرسل الرسول، وإنكاره، إنكار لرسالة الله التي أرسله بها، وفي هذا إخبار من الله لرسوله بأنه وإن وجد أناساً ينكرونه، فإنه سيجد أناساً سيطيعونه ويؤيّدونه في دعوته إلى سبيل الله، فقد أرسله الله﴿لِيُطَاعَ﴾ومَن لم يطع الرسول، يكون غير مطيع للمرسل.ولاأحد يطيعه إلاّ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾برفض طاعتك يا

محمّد، ثم ﴿جَآؤُوكَ﴾نادمين على طعنهم بما أنـزل عليـك، وتجنّـب طاعتـك﴿فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ ﴾سألوا الله المغفرة عمّا قد سلف﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾واستغفرت الله لهم ﴿لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾لرأوا أبواب التوبة برحمة الله مفتوحة .

فاقترن ذلك بحرية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ فلهم حرية ﴿لَوْ أَنَّهُمْ﴾ جاؤوا إليك، أو صدّوا عنك ، وأن لأحد يّرغمهم أن يجيئوا إليك، أو يصدّوا عنك.

﴿٦٥﴾

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾

وبياناً لمطلق الحرية التي متعهم الله بها، ودعوتهم أن يكونوا واضحين في مواقفهم وقناعاتهم، يُخبر الله رسوله عنهم بشكل بالغ المباشرية والتركيز، فلم يقل :﴿لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ ﴾أو﴿فَلاَ﴾﴿ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ ﴾ والله عزّ اسمه إن قال عن أمر﴿فَلاَ﴾ فذلك يعني ﴿فَلاَ﴾، بل أقسم له بربوبيته له، وقد ورد القسم أيضاً بالغ المباشرية والتركيز، فلم يقل: فـ ﴿وَرَبِّكَ﴾، أولا﴿وَرَبِّكَ﴾ . قال:﴿فَلاَ وَرَبِّكَ﴾ فجاء النفي متوسطاً الـ ﴿فَ﴾ - هم - والـ ﴿وَ﴾ - القسم بالذات الإلهية - ثم جاءت ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ولبقاء الحرية مفتوحة أمامهم وعدم إغلاقها قال﴿حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ﴾ فإن حكّموك، آمنوا.

إن محمداً صلى الله عليه وسلم الذي يقسم بالله في حديثه قائلاً :" والذي نفس محمد بيده" هنا يُقسم له الله بربوبيته له بأنهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾بالله﴿حَتَّىَ﴾يُحَكِّمُوه ﴿فِيمَا﴾ينشب من نزاع بينهم، فهو صلى الله عليه وسلم، كما تصفه عائشة رضي الله عنها:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يمشي على الأرض".

يتبيّن هنا بأن الإيمان يعني التسليم، فأن يؤمن الإنسان، يعني أن يسلم لِما يصدر من المؤمَن به، فيكون مرجعه، فإيمانك، هو صدقك لعدالة مَن تؤمن به. وهنا فإن الإيمان هو عملية ممارسة يومية، وسلوك منهجي يسلكه المؤمن في جل شؤونه ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ﴾الذي أرسلك رحمة للعالمينيا محمّد﴿لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

يقول البخاري: (حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة قال: خاصم الزبير رجلا في شُرَيج من الحَرَّة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "

اسق يا زّبير ثم أرْسل الماء إلى جارك " فقال الأنصاري: يا رسول الله، أنْ كان ابن عمتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: " اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدْر، ثم أرسل الماء إلى جارك "واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقّه في صريح الحكم، حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾الآية) .

ولا يكون الإيمان عن كره، بل عن قناعة بأن هذا الحكم هو الأكثر صواباً، والأكثر عدلاً. وبدون اليقين بعدالة الحكم﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

عُرف خزيمة بن ثابت الأنصاري بذي الشهادتين، وقد سمّاه النبي بذلك بعد أن شهد منه موقفاً، وذلك عندما جاءه يهودي فقال له: يا محمد اقضني دَيني .

فقال النبي : أولم أقضك

قال : لا

قال النبي: إن كانت لك بيّنة فهاتها، وقال لأصحابه: أيكم يشهد أني قضيتُ اليهودي ماله؟

فلم يجب أحد، عندها قال خزيمة: أنا يا رسول الله أشهدك أنك قضيته .

قال له النبي: وكيف تشهد بذلك ولم تحضره ولم تعلمه؟

فقال: يارسول الله نحن نصدقك على الوحي من السماء، فكيف لانصدقك على أنك قضيته.

فأنفذ شهادته وسمّاه ذا الشهادتين لأنه صير شهادته شهادة رجلين.

يقول ابن تيمية: (يتحاكموا إليك ويترافعوا، وإنما جيء بصيغة التحكيم مع أنه صلى الله عليه وسلم حاكم بأمر الله إيذانًا بأن اللائق بهم أن يجعلوه عليه الصلاة والسلام حكماً فيما بينهم ويرضوا بحكمه وإن قطع النظر عن كونه حاكمًا على الإطلاق).

فإذن ﴿**لا يُؤْمِنُونَ** ﴾حتى يؤمنوا بأن النبي هو سبيل فك الشجار بينهم، وقد وردت﴿**شَجَرَ**﴾ وهذا مِن الشجر الذي تكون أغصانه متشابكة مع بعضها البعض .

﴿**ثُمَّ** ﴾بيّن الله بأن الإيمان أنهم ﴿**لاَ يَجِدُوا** ﴾وليس لايشعروا ، لأن الأمر قد يكون له وجود في النفس ، بيد أنه يتحاشى الشعور به، أو أنه لايعلنه،وليس هذا فحسب، بل،﴿**لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ**﴾فهو لايؤمن حتى يقبل الاحتكام إلى النبي عن قناعة تامة بصوابه وعدله دون حساسية أو إكراه، ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ**﴾ يا محمد﴿**لا يُؤْمِنُونَ**﴾ حتى يكون لهم

ذلك﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾بقضائك﴿تسلِيماً﴾. لقد كان ذلك في حضور النبي صلى الله عليه وسلم، لكن بوفاته، فإن الاحتكام يكون إلى كتاب الله، والسنة النبوية. فـ ﴿يُسَلِّمُواْ ﴾بذلك في أقوالهم، ثم﴿تسلِيماً﴾يصدّقون القول بالفعل، فيقبلوا بقضاء النبي ويأخذون به سواء لهم، أم عليهم.

﴿٦٦﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يا رسول الله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت فقال: "صدقت يا أبا بكر"وعن شُرَيْح بن عُبَيْد قال: لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾الآية، أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى عبد الله بن رَواحة، فقال: " لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل " ، وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال: (والله لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إن من أمتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي".

يبيّن الله أنه لم يأمرهم أن يقتلوا أنفسهم، أو يخرجوا من ديارهم، وأنه لو أمر بذلك لكان كثير منهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾استجابوا للموعظة﴿لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾من النكران﴿وَأَشَدَّ ﴾وأكثر﴿ تَثْبِيتاً﴾لهم في صلاح أمرهم.

﴿٦٧﴾

﴿وَإِذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً﴾

أي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ﴾واستجابوا للموعظة لآ تاهم الله من عنده﴿أَجْراً عَظِيماً﴾فإن الله تعالى بكرمه ورحمته أجزل لهم العطاء، فالاستجابة للموعظة تجعلهم ينالون من الله بفضله الأجر العظيم.

﴿٦٨﴾

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُستَقِيماً﴾

ولهداهم الله إلى صراط مستقيم، حيث تستقيم عليه حياتهم الدنيا، ويؤدّي بهم إلى الفوز العظيم في الآخرة. لذلك ترى المؤمن يسأل الله مع كل ركعة في صلاته قائلاً: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾الفاتحة٦ فهنا يستجيب الله لسؤال عبده، ويحقق له مطلبه ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُستَقِيماً﴾

﴿٦٩﴾

﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾

أخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والضياء المقدسي في صفة الجنة، وحسنه عن عائشة قالت: (جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إنك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتي، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي، وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يردّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ الله والرسول فَأُوْلَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم﴾ الآية).

إن سبيل حلول نعمة الله على الانسان هو طاعة الله ورسوله، عندئذ يكون المُنعَم عليه ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾.

قال الإمام أحمد: (حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم، حدثنا ابن لهيعة، عن زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، إن شاء الله ").

وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري، عن أبي حمزة، عن الحسن البصري، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء ".

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: " سَلْ ". فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: " أوغَيْرَ ذلك"؟ قلت: هو ذاك. قال: " فأعِنّي على نفسك بكثرة السجود " .

﴿فَأُوْلَـئِكَ﴾ الذين يطيعون الله ورسوله يكونون في الجنة رفقاء مع ﴿النَّبِيِّينَ﴾الذين أُتوا النبوة، ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ الذين يتبعون ما أمر به الله، وينهون عمّا نهى عنه بصدق، فيكون عملهم تصديقاً لصدقهم. قال ﴿الصِّدِّيقِينَ﴾ الذين يصدّقون ويفعلون صدقهم بالعمل.

عن موسى بن يعقوب قال:(أخبرتني عمتي قريبة بنت عبد الله بن وهب بن زمعة، عن أمها كريمة ابنة المقداد، عن ضباعة بنت الزبير، وكانت تحت المقداد، عن المقداد قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: شيء سمعته منك شككت فيه! قال: "إذا شكّ أحدكم في الأمر فليسألني عنه". قال قلت: قولك في أزواجك: " إنيّ لأرجو لهن من بعدِيَ الصدّيقين " قال: "من تعْدُون الصديقين"؟ قلت: أولادنا الذين يهلكون صغارًا. قال: "لا ولكن الصدّيقين هم المصَدّقون".

﴿وَالشُّهَدَاء﴾الذين يستشهدون في سبيل الله ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾الذين يصلحون أنفسهم، ويُصلحون الناس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا﴿وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾ حسُنت رفقة ﴿أُولَـئِكَ﴾في الجنة.

﴿٧٠﴾

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً﴾

فقد فضّل الله عليهم جميعاً بنعمته، ولولا فضل الله تعالى عليهم، ما كان لهم ﴿ذَلِكَ﴾وما ﴿حَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قارِبُوا وسَدِّدُوا واعلمُوا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بعَمَلِهِ " ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدَنِي الله برحمة منه وفضل ".

﴿٧١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾

ندخل هنا إلى عمق الصراعات التي تنشب بين أهل الحق، وأهل الباطل، وقد تبيّن لنا أن الناس يمتلكون حرية ما يؤمنون به، بل حتى أن الله لم يكلف شخصاً أن يؤمن بقضاء النبي فيما لو أحس بشيء من الحرج في قبول هذا القضاء. ثم نظير ذلك فأذن للمؤمنين أن يدافعوا عن دينهم، وعن أنفسهم، وعن أموالهم، وأهلهم إذا شنّ أهل الباطل عليهم الحرب، فلم يقبل الله منهم الخنوع، والهزيمة، والاستسلام، بل أذن لهم التصدّي لهؤلاء، فكما هم لايفرضون الإسلام على أحد، فعليهم ألاّ يسمحوا لأحد أن يُخرجهم من إسلامهم، وكما أنهم لايجوز لهم انتهاك أموال، وأعراض، ومشاعر أهل الباطل، فعليهم ألاّ يُجيزوا لهم أيضاً كي ينتهكوا أموالهم، وأعراضهم، ومشاعرهم.

يوجه الله تعالى المؤمنين بأخذ الحذر والحيطة من مكائد الأعداء، وأن يدافعوا عن الحق في ﴿**نفِرُواْ ثُبَاتٍ**﴾على شكل فرق، كل فرقة تعقب الأخرى في حال لزوم ذلك من الحذر، أو يـ ﴿**نفِرُواْ جَمِيعاً**﴾ على شكل جماعة واحدة مجتمعين مع النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك هو النفير العام الذي بموجبه يخرج المسلمون عامة للدفاع عن دينهم، والدفاع عن وجودهم.

وفي الحديث:" وإذا اسْتنفِرْتمْ فانْفِرُوا" يقول ابن منظور في لسان العرب: (الاسْتِنفارُ الاسْتِنجادُ والاسْتِنصارُ، أي إذا طلب منكم النُّصْرَةَ فأجيبوا وانْفِرُوا خارجين إلى الإعانة).

الحذر هنا يعني التنسيق، فلا يخرجوا بشكل عشوائي مشتت، بل أن يمضوا بحذر، وتخطيط، وهذا يعني أن يبقوا على حذر، ويمكن فهم الحذر هنا أيضاً بالتدريب والتأهب، والحراسة، وتجهيز الخنادق، والحصول على الأسلحة، فإن أحس المتأهبون بخطر، ساعتئذ: ﴿**فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً**﴾

﴿٧٢﴾

﴿**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً**﴾

عندذاك، وعندما يقوم النفير العام، يبيّن الله حال فئة النفاق التي تعيش في ديار المسلمين، فهم يتحايلون ما أمكنهم كي يتخلفوا عن الاستجابة للنفير، ويتواروا عن الأنظار، فيتصنعون

التباطؤ، والتثاقل حتى تذهب أفواج الناس النافرة لتلاقي جيوش أهل الباطل. إن الله هنا يلفت الانتباه إلى المنافقين، الذين هم ﴿مِنكُمْ﴾﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ﴾ لأنه تجنب وقوع المصيبة عليه﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً﴾ بكونه لم يشهد المعترك ولم يدخله، والمصيبة تكمن في الخسائر البشرية، والمادية التي تنجم عن الحروب، فهو لم يصلح حتى للدفاع عن نفسه، أو عن أهله، أو عن دياره.

﴿٧٣﴾

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾

وإن كمنت المصيبة في الجروح، والمهالك، والخسائر ، والهزائم، فهنا يكمن الفضل في الانتصارات، والغنائم، وهنا يقول المنافق ﴿يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ﴾ فهو يحسدهم على الغنيمة، ولايبارك لهم الانتصار، لأنه لايرجو الثواب من الله إذا وقعت عليه مصيبة، بل لو أنه كان واثقاً من الانتصار، لذهب من أجل أن تصيبه حصته من الغنائم، لكن الذي جعله يتباطأ، ويتخلف عن اللحاق بالمدافعين، هو خوفه من الهزيمة، فالآن وبعد أن تحقق الانتصار يقول﴿يَا لَيتَنِي ﴾حاسداً إياهم﴿كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾أي فأظفر بغنائم كثيرة .

﴿٧٤﴾

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾

فإن قال المنافقون ما قالوا، وإن وقفوا موقفهم المتخاذل، فإن الله يحض المؤمنين على مواصلة القتال في سبيله، فجاء الحض لـ ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾وقد وردت ﴿يَشْرُونَ ﴾ بمعنى يبيعون لقاء ما هو أنفس، فالكلمة تغتني بالمعنيين معاً، أي بالبيع الذي يكمن فيه الربح العظيم، فالبيع في الكلمة هو شراء بما هو أعظم، بيع ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ وقد وردت الكلمة بذات المعنى في قوله:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ ﴾البقرة٢٠٧

فالأجر العظيم يكون للذي ﴿**يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ في وجهَي الحرب سواء أكان غالباً، أو مغلوباً.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "تكفّل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يُخرِجُه إلا جهادٌ في سبيله وتصديقُ كلمتِه أن يُدخِلَه الجنةَ أو يُرجعَه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة".

﴿٧٥﴾

﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنّسَاء وَالْولْدَانِ الّذِينَ يَقُولُونَ رَبّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لّنَا مِن لّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لّنَا مِن لّدُنكَ نَصِيراً**﴾

فكأن الله جل شأنه يقول وماذا تنتظرون أكثر حتى تخرجوا للدفاع عن الذين لحقهم الظلم والجور﴿**وَمَا لَكُمْ**﴾ لماذا﴿**لاَ تقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنّسَاء وَالْولْدَانِ**﴾وهم ﴿**يَقُولُونَ رَبّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَالِمِ أَهْلُهَا**﴾ فما الذي يمنعكم من القتال في سبيل الله من أجل رفع الظلم والجور عن هؤلاء ﴿**الْمُسْتضْعَفِينَ**﴾يضع الله هنا مسؤولية الدفاع عن هؤلاء على عاتق القادرين على القتال في سبيل الله من أجل خلاصهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فالمسلم معني بشأن المسلم وكأن الله يقول له ما لك لاتذهب إلى استنقاذ أخوتك حيث وقعوا تحت حكم الظالمينفي ﴿**هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَالِمِ أَهْلُهَا**﴾وهي مكة،قبلة الدنيا يتجه إليها الناس، من كل بقاع الأرض، لزيارة الكعبة المشرفة، وهي التي تحتفظ ببيت ولد فيه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، ذاك المكان الذي يسمى (سوق الليل)، وفيها بيت أم المؤمنين الأولى السيدة خديجة رضي الله عنها، وفيها أصبح أباً لأول مرة ، وفيها تلقى أول آية من القرآن، ثم تتالى نزول القرآن الكريم إلى أن هاجر إلى المدينة، لتؤسس الهجرة لمرحلة انتقالية جديدة من مراحل نشر الدعوة ، هاجر مضطراً من مكة وهو يقول: "والله إنك لخير أرض وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت" . رواه أحمد والترمذي، وهو حديثصحيح.

ولما استعمل عتاب بن أسيد على مكة،أوصاه صلى الله عليه وسلم: "ياعتاب أتدري على من استعملتك ؟ على أهل الله تعالى، فاستوص بهم خيرا".

وقال: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه".

إنها البقعة الوحيدة على سطح الأرض، التي يتجه فيها سكانها إلى القبلة من الجهات الأربع،

وكما أن مكة المكرمة تتميز عن سائر بقاع الأرض، فإنها أيضا تتميز بغنى الأسماء التي تتمتع بها دون غيرها، فلها أكثر من ثلاثين اسما، منها: مكة - بكة - أم القرى - البلد الأمين.

والأسماء الأربعةورد ذكرها في القرآن الكريم صريحا - قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

وقال عز وجل:﴿وَهَٰذَاكِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

وقال تقدست أسماؤه:﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾

ومن أسماء مكة التي وردت في القرآن الكريم أيضا: الوادي-معاد - البلدة - البلد -القرية. ومنأسمائها التي لم ترد في القرآن: الباسة-الناسة-النساسة - الحاطمة - صلاح - القادس - كوثي - المسجدالحرام – البيت العتيق-أم رحم -أم زحم -الرأس.

لقد لبث هؤلاء في مكة، وهم ضعفاء لايستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فهم في حالة أسر في مكة تحت ظلم المشركين الذين ينكلون بهم، ويتجاوزون عليهم ظلماً وعدواناً مستغلين ضعفهم ووقوعهم في الأسر فلم يقدروا على الهجرة، أو المقاومة، وهم الآن يحتاجون إلى العون، فهؤلاء يعتدون حتى على نسائهم وولدانهم، وذلك كوسيلة للضغط على المؤمنين لترك الإيمان . فإن لم تخرجوا الآن للمؤازرة، فمتى ستخرجون، وهنا تكون المؤازرة بحسب الاستطاعة، فمّن بؤازر بنفسه، ومّن يؤازر بولده، ومَن يؤازر بماله، ومّن يؤازر بقوله، ومّن يؤازر بقلبه، ومّن يؤازر بالدعاء لهم.

إنهم يطلبون الاستغاثة من الله، فيأمر الله المؤمنين أن يهبوا لنجدتهم، فإن تنحّى شخص عن الاستجابة بما قدّره الله، فكأنه يقول: لاعلاقة لي بهم، لستُ منهم وليسوا مني، فمادمتَ منهم، وهم منك، فعليك مؤازرتهم، وعليهم مؤازرتك في وحدة صف الإيمان.

يسـألون الله في ختـام الاسـتنجاد، اللـهم : ﴿**وَاجْعَـل لَنَـا مِـن لَـدُنكَ وَلِيّـاً** ﴾يتـولى أمرنـا بالحق﴿**وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيراً**﴾ينصرنا على مَن يظلموننا .

﴿٧٦﴾

﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾

يخبر الله المؤمنين بأنهم عندما يؤازرون أخوتهم المستضعفين ،والأسرى، فإنما ﴿**يُقَـاتِلُونَ فِـي سَبِيلِ اللّهِ**﴾ لرفع الظلم وإحقاق الحق، فهـم ﴿**يُقَـاتِلُونَ**﴾ الكفـرة الـذين ﴿**يُقَـاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِ الطَّاغُوتِ**﴾ كي يوقعوا الظلم، ويبسطوا الباطل. بعد أن قال لهم ﴿**وَمَـا لَكُـمْ** ﴾ الآن يـأتي الأمـر بصيغته المباشرة: ﴿**فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ**﴾ فهنا أمر الله لهم كي يقاتلوا مـن أجـل رفـع الظلـم عن المظلومين، والقهر عن المقهورين، أي هو قتال بين الخير وبين الشر، بين جنـود الحـق، وبـين جنود الباطل، وقد استجاب المؤمنون لأمر الله عنـدما أمـرهم بعـدم السـكوت علـى تجـاوز أوليـاء الشيطان على المؤمنين ﴿**الْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾، وهؤلاء إنما يستقوون على ﴿**الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ**﴾ولكـن عنـدما يـأتيهم الرجـل، فـإن جبـنهم يظهـر:﴿**إِنَّ كَيْـدَ الشَّيْطَانِ كَـانَ ضَعِيفاً**﴾ إن مكر الشيطان يكون ضعيفا أمام قوة إيمانكم بالله.

﴿٧٧﴾

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾

فيا محمّد ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ**﴾عن القتال، وذلك في مكة، وفي بدء نشـر الدعوة، لأنهم كـانوا قلـة عـدداً وعتـاداً، فكانـت الـدعوة ﴿**وَأَقِيمُـواْ الصَّلاَةَ وَآتُـواْ الزَّكَـاةَ**﴾ وهنـا يتبيّن لنا أن المؤمن عليه أن يمرّ بمراحل حتى يبلـغ مرحلـة الجـود بـالنفس في سـبيل الله، فهـو أولاً يبلغ قناعة الإيمان، ثم يقيم الصلاة، أي يترك ما يشغله، فيتجه إلى الصلاة بـين يـدَي ربـه، ثم يُنفق ماله في سبيل الله، وتنفيـذاً لأمـره، وقـد نزلـت هـذه الآيـة كمـا يقـول مقاتـل:(في عبـد

الرحمن بن عوف الزهري، والمقداد بن الأسود الكندي، وقدامة بن مظعون الجمحي، وسعد بن أبي وقاص، وجماعة كانوا يلقون من المشركين بمكة أذًى كثيرًا قبل أن يهاجروا، ويقولون: يا رسول الله ائذنْ لنا في قتالهم فإنهم قد آذَوْنا، فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كُفّوا أيديَكم فإني لم أؤمر بقتالهم ").

وفي رواية : "إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم". بعد ذلك عندما أتى المسلمون مع النبي إلى المدينة، وأصبحوا كثرة عدداً وعتاداً، جاء أمر القتال على قاعدة الإيمان للدفاع عن المؤمنين ودينهم الذي آمنوا به. عندذاك خاف البعض من أمر القتال، فقال فيهم الله:﴿**إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**﴾قال الحسن: (هي في المؤمنين، لقوله: ﴿**يَخْشَوْنَ النَّاسَ**﴾ أي مشركي مكة ﴿**كَخَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ فهي على ما طبع عليه البشر من المخافة لا على المخالفة). وقال السدي: (هم قوم أسلموا قبل فرض القتال فلما فرض كرهوه)فهذا الفريق من المؤمنين خشوا دون أن يعترضوا، فقبلوه خائفين﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ لو أجّلت أمر القتال علينا. يقول الله لرسوله، أجب أتباع هذا القول يامحمد و﴿**قُلْ**﴾لهم أن﴿**مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ**﴾أن الدار الآجلة هي خير من الدار العاجلة ﴿**لِّمَنِ اتَّقَى**﴾ وفي ذلك يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مثلي ومثل الدنيا كراكب قال قيلولة تحت شجرة ثم راح وتركها".

أما إذا أصابكم أذى في القتال، فذلك لخير يريده الله بكم، فإن الله لايدعكم ﴿ **تُظْلَمُونَ**﴾باستجابتكم لأمره﴿**فَتِيلاً**﴾ وقيل أن الفتيل هو: (**قدر الخيط الرّقيق في شقّ النواة**)

﴿٧٨﴾

﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾

فالموت ليس في القتال فحسب، وليس كل مَن ذهب للقتال في سبيل الله لقي الموت ، وأن ما يأتيهم نتيجة القتال هو من الله. فالموت﴿**يُدْرِككُّمُ**﴾حتى لو ﴿ **كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾،

فقيل أن البروج: (الحصون التي في الأرض المبنية، لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثل الله لهم بها).

وقال قتادة: (في قصور محصنة).

وقال السدي: (المراد بالبروج بروج في السماء الدنيا مبنية).

وحكى هذا القول مكي عن مالك وأنه قال:(ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ**﴾البروج١ و ﴿**جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً**﴾الفرقان٦١ و﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً**﴾الحجر١٦).

فحتى لو كانت هذه البروج ﴿**مُشَيَّدَةٍ**﴾، فسيدركهم الموت و﴿**مُشَيَّدَةٍ**﴾ بمعنى مطوّلة ومسوّرة ومحمية .

في لسان العرب:(بناءٌ مَشِيدٌ: معمول بالشّيد.وكل ما أُحْكِمَ من البناءِ، فقد شُيِّدَ.وتشْييدُ البناء: إِحكامُه ورَفْعُه. والمَشِيدُ المبني بالشِّيد. وقال سبحانه: في بروج مُشيَّدة؛ قال الفراء: يشدّد ما كان في جمع مثل قولك مررت بثياب مُصَبَّغة وكباش مُذَبَّحة، فجاز التشديد لأن الفعل متفرق في جمع، فإِذا أفردت الواحد من ذلك، فإِن كان الفعل يتردّدُ في الواحد ويكثر جاز فيه التشديد والتخفيف، مثل قولك مررت برجل مُشَجَّج وبثوب مُخَرَّق، وجاز التشديد لأن الفعل قد تردَّد فيه وكَثر).

وفي الصحاح في اللغة:(لشيدُ، بالكسر: كلُّ شيء طَلَيْتَ به الحائِطَ من جصٍ أو مِلاطٍ؛ وبالفتح المصدر. تقول: شادَهُ يَشيدُهُ شَيْداً: جَصَّصَهُ.والمَشيدُ المعمول بالشِيدِ.والمُشَيَّدُ، بالتشديد: المُطَوَّلُ. وقال الكسائي: المَشيدُ للواحد من قوله تعالى: ﴿**وقصرٍ مَشيدٍ**﴾، والمُشَيَّد للجمع، من قوله:﴿**في بروجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾)[87]

وفي معجم مقاييس اللغة:(الشين والياء والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على رفعِ الشّيء. يقال شِدْتُ القَصر أَشِيدُهُ شَيْداً.وهو قصرٌ مَشِيدٌ، أي معمولٌ بالشّيد.وسمِّي شِيداً لأنَّ به يُرفَعُ البناء. يقال قَصرٌ مَشِيدٌ أي مُطوّل).

وفي القاموس المحيط:(شادَ الحائِطَ يَشِيدُهُ: طَلاهُ بالشِّيدِ، وهو: ما طُلِيَ به حائِطٌ من جِصّ ونَحْوِهِ).

[87] لمؤلفه إسماعيل بن حماد الجوهري.

وثمة حكاية ذكرها ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد: (أنه ذكر أن امرأة فيمن كان قبلنا أخذها الطَّلَقُ، فأمرت أجيرها أن يأتيها بنار، فخرج، فإذا هو برجل واقف على الباب، فقال: ما ولدت المرأة؟ فقال: جارية، فقال: أما إنها ستزني بمائة رجل، ثم يتزوجها أجيرها، ويكون موتها بالعنكبوت. قال: فكَرَّ راجعا، فبعج الجارية بسكين في بطنها، فشقه، ثم ذهب هاربا، وظن أنها قد ماتت، فخاطت أمها بطنها، فبرئت وشبت وترعرعت، ونشأت أحسن امرأة ببلدتها فذهب ذاك الأجير ما ذهب، ودخل البحور فاقتنى أموالا جزيلة، ثم رجع إلى بلده وأراد التزويج، فقال لعجوز: أريد أن أتزوج بأحسن امرأة بهذه البلدة. فقالت له: ليس هنا أحسن من فلانة. فقال: اخطبيها علي. فذهبت إليها فأجابت، فدخل بها فأعجبته إعجابا شديدًا، فسألته عن أمره ومن أين مقدمه ؟ فأخبرها خبره، وما كان من أمره في هربه. فقالت: أنا هي. وأرته مكان السكين، فتحقق ذلك فقال: لئن كنت إياها فلقد أخبرتني باثنتين لا بد منهما، إحداهما: أنك قد زنيت بمائة رجل. فقالت: لقد كان شيء من ذلك، ولكن لا أدري ما عددهم؟ فقال: هم مائة. والثانية: أنك تموتين بالعنكبوت. فاتخذ لها قصرا منيعا شاهقا، ليحرزها من ذلك، فبينا هم يوما إذا بالعنكبوت في السقف، فأراها إياها، فقالت: أهذه التي تحذرها علي، والله لا يقتلها إلا أنا، فأنزلوها من السقف فعمدت إليها فوطئتا بإبهام رجلها فقتلتها، فطار من سمها شيء فوقع بين ظفرها ولحمها، فاسودت رجلها وكان في ذلك أجلها).

ومما يُروى عن خالد بن الوليد حينما أدرك بأنه سيموت وهو على فراشه أنه جعل يقول : (لقد شهدت كذا وكذا موقفا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء) .

﴿٧٩﴾

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾

وهذا لايخالف الآية السابقة ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فتلك وردت ضمن سياق التفرقة بين الله ورسوله بالنسبة للبعض، فبيّن الله ضمن ذات السياق بأن ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي ما تقولون أنه ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فهو ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾، وما تقولون أنه من عند الرسول، فهو كذلك

﴿مِن عِندِ اللّهِ﴾ وقد ورد ذلك هنا ضمن سياق مختلف ، وسيكون البيان في الآية التالية، فتكون هذه الآية متوسطة للآيتين

روى عبد الوهاب ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس وأبي وابن مسعود:(﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾وأنا كتبتها عليك).

وروي عن قتادة: (﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، عقوبة، يا بن آدم بذنبك. قال: وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "لا يصيب رجلا خدْش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عِرْق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر".

﴿٨٠﴾

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾

إن طاعة الرسول، هي من طاعة الله بكونه يتحدّث برسالة الله التي يحملها للناس، فالطاعة تكون لكلام الله الذي يقوله الرسول. ﴿وَمَن تَوَلَّى﴾ عن الطاعة ونكرها، فلا عليك، سوى بلاغ الرسالة، فإن شاؤوا حفظوا أنفسهم، أو شاؤوا لم يحفظوها فقد أرسلناك مبلغاً وليس ﴿حَفِيظاً﴾

يقول النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشأن:" من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه ".

﴿٨١﴾

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾

يبيّن الله تعالى حالة الازدواجية التي يعيشها المنافقون، عندما يقولون شيئاً، و﴿يُبَيِّتُونَ﴾نقيضه، يُظهر الله تعالى رسوله على حقيقة ازدواجية المنافقين الذين يُظهرون الطاعة في حضور النبي صلى الله عليه وسلم،﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾لم يقل خرجوا، رغم أنها تعني خرجوا، و﴿بَرَزُوا﴾هنا إضافة إلى الخروج، فهي تشير إلى الخروج الذي يُبرز

الازدواجيـة، فهو لـيس خروجاً عاديا مـن عنـد رسول الله، بـل هـو خـروج إزدواجي، ﴿ فَإِذَا بَـرَزُواْمِنْ عِنـدِكَ﴾يـا محمّـد أبـرزوا الحقيقـة الـتي هـم عليهـا، فهـم مـع بـروزهم ﴿مِـنْ عِندِكَ﴾يبرزونها فيما بينهم، ويتداولونها و﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي يخططون ليلاً لِما سيقومون به مـن تحريـف لكلامـك الـذي قلتـه لهـم، فالـذي يبيـت، يمضـي الليـل حتـى الصباح، ودون ذلك الوقت لايكون قد بات مهما أمضى من وقت سواه، وهنـا فـإن تغـيير مـا قالـه الرسول لهم، هو الذي يُبيّت في بيوتهم حتى يُشيعوه في الناس، يقول الله لرسوله: ﴿وَاللّهُ يَكْتُـبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ليكون شاهداً عليهم إذا نكروه، ثـم يقـول لرسـوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾تجنـبهم، ولاتصدّق ما يقولوه نفاقاً في طاعتك، والإعراض هنا كلمة سلمية، تعـني بـأن يكتفـي بتجنـبهم، وهذا يعني بألاّ يذكر حتى أسماءهم منعـاً للشهير بهـم، فالـدعوة هنـا بعـد أن بـيّن لـه الحـق، أن يـدعهم وشـأنهم وأن يـ :﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللّـهِ﴾يعـرض عـنهم متـوكلاً﴿عَلَى اللّـهِ وَكَفَـى بِاللّـهِ وَكِيلاً﴾توكّلك على الله يكفيك.

﴿٨٢﴾

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾

أن يتدبّر الإنسان شأنه، أي يستنبط ما الذي سيؤول إليـه، والإنسـان معـني بتـدبّر أمـره منعـاً للشتات، وهنا يُعنى الإنسان بتدبّر القرآن، أي يقرأه بتأمّل وتفكّر وتمعّن، حتى ينتهي إلى قناعة أنـه لـيس ﴿مِنْ عِنـدِ غَيْـرِ اللّـهِ﴾وإلاّ لوجـد ﴿فِيـهِ اخْتِلاَفـاً ﴾تناقضـاً ﴿كَثِيراً﴾بمـا لايخفـى، ولناقض بعضه بعضاً ، ولذلك بقي القرآن الكريم هـو الكتـاب الوحيـد الـذي بلـغ مرتبـة الكمـال المطلق، وليس لأي كتاب سواه أن يبلغ هذه المرتبة، فكل كتاب بشري به نقص، ليبقـى كتـاب الله متميزاً ومتفـرّداً بكماليتـه المطلقـة. فالتـدبّر في قـراءة القـرآن هـو الـذي يـؤتي ثمـاره إلى قارئـه ومتلقيه، وعندذاك حتى لو وجد القـارئ شـيئاً مخالفـاً، لأعـاد ذلـك إلى إشـكال في سـلامة التلقـي لديه، وليس إلى القـرآن، ولعلـه مـن خـلال تعـدد القـراءات، يبلـغ هـذه الحقيقـة، أو عنـدما يجـد الجواب في آية أخرى، ذلك أن القرآن متـداخل مع بعضه البعض، ولايستقيم دائماً أن يتم اجتزاء

آية وبناء حكم من خلالها بشكل منفصل عن كامل القرآن، فإن وُجد خلاف، فهو خلاف حول القرآن من خلال الناس، وليس خلاف في صلب النص القرآني. وقول الله ﴿**لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً**﴾ أي لايوجد فيه اختلاف مطلقاً مهما كبر، أو صغر، وكان لابدّ من الاختلاف الكثير وفق كل الأحوال فيما لو كان ﴿**مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ**﴾.

المعنى هو لب المقصد القرآني الذي يكمن خلف مبنى الكلمة التي هي غلاف لِما تعني، والتدبّر في هذا المقام هو عملية فض الغلاف عن لب الكلمة لبلوغ المعنى، هذا المعنى الذي تستخرج منه التدبّرالذي يُصلح لك شأنك، وهكذا تراك مرتقياً في قراءة القرآن لأنك تتلقى من كل قراءة معنى جديداً، تستخرج منه تدبّراً يُصلح لك شأناً جديداً من شؤون حياتك، وعلى قدر ما يجعلك ذلك مواظباًعلى قراءة القرآن، يقف قارئ القرآن غير الفاض عن اللّب غلافه دون ذلك وهو يغدو قليل القراءة لأنه وقف أمام مبنى القرآن، دون أن يلج باطنه. فقال لك: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾ أفلا يقرأونه ويتلقونه بشكل جيّد حتى يعلموا أنه من عند الله.

قال الإمام أحمد:(حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال:لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لي به حُمر النَّعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حَجْرَة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُغْضَبًا حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: "مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالِمِه ").

﴿٨٣﴾

﴿**وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾

يتحدّث الله تعالى لرسوله عن سلبيات التسرّع في إشاعة قول يُقال، قبل التحقق منه، أو قبل ثبات هذا الواقع بشكل بائن، وعلى هذا النحو تتسع مدارك الرسول المعرفية، والله تبارك وتعالى

يُطلعـه علـى كـل هـذه التفاصـيل، والـدقائق، والمعـارف، والعلـوم، والبيّنـات، وأنمـاط، النـاس، ونزعاتهم، وميولاتهم، ولعل كل ذلك يُزيده تواضعاً، واستيعاباً، ونضجاً، وخبرة، وتقارباً من الله.

على هذا النحو، يُعدّ الله عز وجل رسوله ، كي يكون ناطقاً عنه، ويجعل من طاعته، طاعة له سبحانه وتعالى، إنه كلمة الله على الأرض، ولأنه رجل من عامة الناس، فهو وإن أصاب في كل ما يأتيه من الله، إلاّ أن ذلك قد لايكون في بعض ما لم يرده من الله، كما الأمر بالنسبة لسائر الناس، وهو بذلك يحقق انتماءه إلى الناس، وكونه رسول، نرى بأن الله تبارك وتعالى، يعاتبه أحياناً، أو يصوّب له حديثه. وهذا يبيّن بأن سنته صلى الله عليه وسلم هي خالصة من الله جل جلاله، فلو جاءت كلمة، أو جاء تصرّف بشري منه كونه بشر، صوّبه الله تعالى له، لأن ذلك محسوب على الله الذي أمر بطاعته كونها طاعة الله. عن العرباض بن سارية أنه حضر رسول الله صلى الله وسلم يخطب الناس وهو يقول: "أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر".

في هذه الآية تتبيّن خبرة النبي صلى الله عليه وسلم في علاج ما يُشاع في الناس، وبعد وفاته، يكون ردّ هذه الاشاعة إلى أولي الأمر، ولعلهم من أهل العلم، والنضج، ورجاحة العقل، والنبوغ الفكري، فهؤلاء حتى الحكّام والقادة يرجعون إليهم في شؤونهم. إنهم أهل الاختصاص في حلّ المعضلات الاجتماعية، ووضع علاجات سليمة لها.

يقول مسلم في مقدمة صحيحه :(حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن حفص، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كفى بالمرء كذبا أن يُحدّث بكل ما سمع "). وفي سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بئس مَطِيَّة الرجل زَعَمُوا عليه " .

وفي الصحيح: " من حَدَّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبَيْن " . ومما يُذكر عن عمر بن الخطاب ، حين بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلَّق نساءه، فجاءه من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما عند مسلم : (فقلت: أطلقتهن؟ فقال: "لا " فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه. ونزلت هذه الآية:﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ**

أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر).

إن لكل مجتمع مرجعياته، كما أن لكل عائلة مرجعيتها، هؤلاء الذين قدّرهم الله تعالى على استنباط الحقائق: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ هؤلاء أصحاب النظرات الثاقبة، والملاحظات الدقيقة، لعلموه، واستنبطوه، وهذه الآية هي تكملة للآية السابقة التي دعت إلى تدبّر القرآن، هذا التدبّر الذي تجنى منه ثمرة الاستنباط.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾بمعنى فجميعكم اتبعتم الشيطان، ولم يبق سوى القليل منكم الذي لم يتبع الشيطان، ولكن الله فضّل الله ورحمته جنبت المؤمنين التبعية للشيطان سواء في إذاعة هذه الأنباء، أو غير ذلك.

﴿٨٤﴾

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾

يأمر الله رسوله ألاّ يقف مكتوف اليدَين تجاه الذين يريدون النيل سواء من رسالة الله، أو من شخص رسوله، أو من المؤمنين الذين يؤمنون بهذه الرسالة، فالقتال هنا بمثابة عدم السماح لأهل الكفر كي يعتدوا على المؤمنين، أو مقدساتهم، أي ألاّ يسمحوا لهم أن ينتهكوا حرماتهم وأعراضهم وأموالهم ويذعنوا ساكتين، بل عليهم أن يدافعوا عن دينهم وعن حرماتهم ويهبوا إلى قتال الطغاة، وهنا يكون الأمر لشخص الرسول، كونه رأس المسلمين، وقد تبيّن شرط القتال وفق أحكام وشروط: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ ليس في سبيل مال، أو جاه، أو قبيلة، بل ﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ بمعنى دفاعاً عن المؤمنين الذين يواجهون تدخلات تعسفية في حقهم بسبب إيمانهم واتباعهم ﴿سَبِيلِ اللّهِ﴾فالقتال هنا يكون لرفع الجور الذي يقع على المؤمنين، أي هو قتال من أجل انتهاء حالة القتل التي يتعرض لها المؤمنون، ووضع حدّ لهذه الانتهاكات، وتوقيف القتل، بمعنى هو قتال من أجل حلول حالة اللاقتال، لأن عدم قتالهم يعني رضوخهم لاستمرار حالة القتال التي يتعرضون لها. إذن القتال هنا هو حالة دفاع، وقد قال الله في الآية ٧٦:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾فإذا أجاز هؤلاء قتال

المؤمنين في سبيل الطاغوت، فعلى المؤمنين أن يُقاوموا هذا القتال بالقتال كي يضعوا حداً له، ولذلك قال الله في الآية ٧٥﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ** ﴾لقد أمر الله رسوله بهذا القتال كي يكون أسوة للمؤمنين من بعده في مؤازرة المؤمنين إذا تعرضوا لتنكيل، أو ظلم، أو اعتداء من قبل أهل الطغيان والكفر، **لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ** روي (أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيانَ بعد حربِ أُحدٍ موسِمَ بدرٍ الصغرى في ذي القَعدةِ فلما بلغ الميعادَ دعا الناسَ إلى الخروج فكرِهه بعضُهم فنزلت فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سبعين راكباً ووافوا الموعِدَ وألقى الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعبَ فرجعوا من مرِّ الظَّهرانِ) فهي مسؤوليتك تجاه نفسك، وعليك أن تجاهد بنفسك حتى لو تخلى عنك الجميع، وبقيت لوحدك ثم أمره أن يـ ﴿**حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ يحضهم، ويعزز لديهم عقيدة المقاومة

يستجيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمر الله قائلاً :"والله لا قاتلنهم حتى تنفرد سالفتي". ويستجيب أبو بكر لتحريض النبي له: (ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي). لقد أسس هذا الجهاد في سبيل الله لقوة إسلامية فعّالة، وقد تمخض عن ذلك وجود كل هذه الدول الاسلامية التي يُحسب لها حِساباً في موازين دول الأرض، فقد اشترط النفير العام، والقتال بوجود خطر على المسلمين، ودون ذلك يبقى المسلمون على علاقة تواصل وتعاون مع الناس جميعاً، ينفعونهم، وينتفعون بهم من خلال تبادل المصالح المشتركة، والاستعانة بخبرات بعضهم البعض، إذ لايجب شنّ حرب على أناس آمنين في ديارهم لمجرّد أنهم ليسوا مؤمنين، كون ذلك لايكون قتالاً في سبيل الله:

﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾ الكهف ٢٩

﴿**وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾آل عمران٢٠

﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾الرعد٤٠

﴿**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾يونس٩٩

فإن كنت لاتتدخّل في شأن علاقتهم مع الله، فكذلك عليك أن تمنعهم من التدخل في شأن علاقتك مع الله، وتعدّ المؤمنين وتحرّضهم على هذه القاعدة،فبنتيجة المقاومة: ﴿**عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْوَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً**﴾

﴿٨٥﴾

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾

فإن ذهبتَ في شفاعة شخص لدى شخص آخر، أو لدى جهة، يجعل الله تعالى لك نصيباً من هذه الشفاعة، فيؤجرك على مسعاك الحسن وقد مشيت في شأن حسن، وشفعت شفاعة حسنة أصلحت أمراً، أو أعادت حقاً إلى صاحبه، أو رفعت ظلماً عن مظلوم، أو فكّت كربة عن مكروب، أو فرّجت همّاً عن مهموم، ونظير ذلك، فإن الذي يستغل مقدرته في إلحاق الأذى بالناس، وإيقاع الظلم عليهم، فيمشي في سبيل الجور، و ﴿يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً ﴾فإنه يلقى كفلاً﴿ مِّنْهَا﴾لأنه تسبب في سوء وقع على إنسان من خلال تشفعه السيّء، لقد وردت صفة الشفاعة بحق هذين الشخصين النقيضين، بيد أن الموصوف متناقض، فبيّن شفيع الخير، عن شفيع الشر، فالشفيع في هذا المقام هو كالوسيط الذي يذهب للتوسط من أجل منفعة شخص، إلى جانب الوسيط الذي يذهب من أجل إلحاق الأذى بشخص، فكلاهما وسيط، بيد أن الأول وسيط نفع، والثاني وسيط ضر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس.

وقيل: الشفاعة الحسنة هي حُسنُ القول في الناس ينال به الثوابَ والخير، والسيئة هي: الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر.

عن أبي بردة، أخبرني جدي أبو بردة، عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجهه، فقال: " اشفعُوا لتؤجروا ليقضي الله على لسان نبيه ما شاء ").

﴿وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾وحيث أن الحديث هو عن النفع والضر، يبيّن الله في خاتمة الآية بأنه هو المقيت، ولعل الكلمة أتت من القوت، أي يرزق الناس بما يقتاتون منه، فكل شيء يقتات من الله مهما كان لون أو شكل هذا القوت.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾

التحية هي السلام بالقول، فعندما يلقي شخص عليك السلام، وتتجاوب مع سلامه باحتفاء، يشعر بمدى تقديرك له، وعندما تردّ عليه ببرود، يشعر ببرودك معه، وعندما لاترد، يستاء منك، وربما يتردد من تكرار إلقاء السلام عليك، فهنا يمكن للتحية أن تعزز وترسخ العلاقات الإنسانية، وهي عنوان لهذه العلاقات، فيمكنك أن ترى قوة العلاقة، أو ضعفها بين شخصين من خلال تبادل السلام بينهما، أو قطع السلام بينهما، ولذلك عندما يتم التصالح بين شخصين، أول ما يُقال لهما: سلّما على بعضكما البعض. وعلى الأغلب في هذه الحال يكون السلام حميمياً، بالمصافحة، ثم بالاحتضان، والقبلات، فالسلام هو مفتتح اللقاء، ومفتتح الكلام، وهو إشارة بأن العلاقة السوية قائمة بين شخصين يلقيان السلام على بعضهما البعض، وكلما كانت العلاقة قوية، اتسعت وسائل السلام، وكلما كانت ضعيفة اقتصرت على إيماءة صغيرة، أو انعدمت. يقول الله ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ وذلك حتى تبقى العلاقات الإنسانية متواصلة، أو تعود من خلال الاجابة على التحية بعد انقطاعها.

عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا تـدْخُلُوا الجنَّـةَ حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوّا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتمُوه تحاببتم؟ أفشُوا السلام بينكم " .

وعن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإسلام خير؟ قال: " أنْ تطعمَ الطعامَ وتقرأ السلامَ على منْ عرفتَ ومَنْ لم تعرف ".

لذلك عندما يُبادرك شخص بالتحية، فعليك أن تجيبه ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ وإن لم تفعل لسبب ما، وأنك غير قادر على الاحتفاء به نظراً لخلاف بينكما، فليس لك أن ترفض ردّ السلام، بل تردّ بما أمرك الله، وفي ذلك حكمة، لأنك مع تكرار الرد، وعندما يحدث أن تقع عليك مبادرة السلام، فتسلّم عليه، كما سلّم عليك، وهنا قد يستجيب بالأحسن، وعلى هذا النحو، قد تعود العلاقة الطيبة بينكما، ويزول ذاك الخلاف، أو يحدث صلح بشأنه، وكل ذلك يكون السلام - وفق تلك المراحل- قد أسس وهيأ له.

أخرج أحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه. قال السيوطي بسند حسن عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

السلام عليك يا رسول الله، فقال: "وعليك ورحمة الله" ، ثم أتى آخر، فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال: "وعليك ورحمة الله وبركاته"، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال له: "وعليك"، فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي أتاك فلان وفلان فسلما عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت علي؟ فقال: "إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فرددناها عليك".

وأخرج البخاري في الأدب المفرد، عن أبي هريرة: أن رجلاً مرّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في مجلس، فقال: سلام عليكم، فقال: "عشر حسنات"، فمرّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال: "عشرون حسنة"، فمرّ رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: "ثلاثون حسنة".

أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: (من سلم عليك من خلق الله، فاردد عليه، وإن كان يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، ذلك بأن الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية).

وفي ذلك يُخبرك الله بأنه ﴿كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾.

﴿٨٧﴾

﴿اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾

يبيّن الله بأنه يهدي الناس إلى سبل الصلاح، لذلك نرى بأن القرآن هو كتاب الحياة بامتياز، حيث تتغلغل فيه كل التفاصيل والدقائق التي تمس حياة الإنسان، وقد وقفنا مع كل تلك التفاصيل، ومع كل آية، نكتشف تفصيلاً جديداً يبيّنه لنا الله، ويعلّمنا إياه، حتى نمتلئ بالخبرة، والحكمة، والنضج، ويشرق كل عضو فينا بإشراقة الإيمان. هذه الآية توقفنا بعد كل تلك الآيات التي حملت كل تلك المعارف كي نتدبّر أكثر، حتى نستعد لتذوّق عسل المعاني الإلهية من خلال ما سينعم الله علينا من فتوحات معرفية وإيمانية جديدة: يا عبادي ﴿اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ متفرّد بألوهيته، ولا أحد بوسعه أن يبعدكم عنه، أو يبعده عنكم، وهذا بذاته يحقق استقرارا إيمانياً للناس. ثم أنه ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾حتى يرى المرء ما فعل بما علّمه

الله، في يوم ﴿**لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾، وهل هناك ﴿**مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً**﴾والله تعالى يُصدّق سواء شاء الإنسان، أم أبى، فإن لم يُصدّق الله في الدنيا، سيصدّق الله ﴿**يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾يوم﴿**لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ ،عندما يواجَه بأعماله.

﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً**﴾ وهو يقول ﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾

بعد هذه الوقفة الاستدراكية التأملية، يستمرّ كلام الله جل جلاله في التوجه لكل ما يمس مقوّمات حياة الإنسان، حتى تكاد تغطيها جميعاً، وهي تزيده غِنى.

الباب الخامــس عشــــر
آفــة النفاق

﴿٨٨﴾

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾

تتعرّض الآية هنا للنفاق، وما يمكن للمنافقين أن يفعلوه إذا سرى نفاقهم على المسلمين، يُنبّه الله تعالى هنا المسلمين من أذى المنافقين، حيث يمكن لهم أن يتسببوا في حالة شقاق بينهم، لكون المنافق هو إنسان غامض مزودج، يكون بوجهين نقيضين، ولعله يمتلك مقدرة على إقناع البعض بازدواجيته على أنها حقيقة، فهو يُمثل حالة الإيمان، ويسعى بكل ما أوتي من حيَل كي يقنع المؤمنين بأنه مؤمن، وهو في جوهره خلاف ذلك، بيد أنه يريد تحقيق مآرب منهم، فيخاطب الله المؤمنين :﴿**فَمَا لَكُمْ**﴾تحولتم ﴿**فِي الْمُنَافِقِينَ**﴾إلى﴿**فِئَتَيْنِ**﴾فقد استطاع المنافقون أن يحوّلوا المسلمين إلى فئتين في أخذ الموقف منهم، وذلك عندما أظهروا أنهم مع المسلمين، وأظهرت بعض مواقفهم أنهم خلاف ذلك . فأقبل بعض المسلمين على اتخاذ الموقف منهم، وتردد البعض في ذلك. فجاءت الآية لتبيّن حقيقة نفاقهم، وقد وصفهم الله بـ ﴿**الْمُنَافِقِينَ**﴾ثم قال بأنه:﴿ **أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ**﴾أركس الشيء، أي ردّه، فقد أركس الله المنافقين﴿**بِمَا كَسَبُواْ**﴾ ردّهم إلى حقيقة كفرهم جراء نفاقهم.

يُروى بما أخرج البخاري، ومسلم، من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فأنزل الله: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ**﴾ الآية كلها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث الفضة".

ثم يقول للمؤمنين:﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ ﴾فهؤلاء قد أضلهم الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾للهداية.

﴿٨٩﴾

﴿وَدُواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾

لقد أرادوا بنفاقهم أن تصبحوا في ملّة كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاء﴾في الكفر، أي تستوون فيه، ﴿فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء﴾لأن ولايتهم لكم ستقودكم إلى أن تصبحوا ﴿سَوَاء﴾ في الكفر﴿حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾كون المؤمن الحق يهاجر﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾لكن المنافقلايقدم على ذلك لأن لا أرضية للإيمان لديه كي ينطلق منها للهجرة﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾عن الهجرة في ﴿سَبِيلِ اللّهِ﴾فذلك يُظهر نفاقهم، عندئذ:﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾حتى لايتسببوا في شقاق صفوفكم ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً ﴾ الولي في مقاييس اللغة: (الواو واللام والياء: أصلٌ صحيح يدلُّ على قرب. من ذلك الوَلْيُ: القرْب. يقال: تباعَدَ بعد وَلْي، أي قُرْبٍ.وجلَسَ ممّا يَلِيني، أي يُقارِبُني.). ثم أقال: ﴿وَلاَ نَصِيراً﴾لاتولّوهم على أنفسكم، ولا تستنصروهم. في القاموس المحيط: (نَصَرَهُ منه: نَجَّاهُ وخَلَّصَهُ، وهو ناصِرٌ ونَصَرٌ، كصُرَدٍ، من نُصَّارٍ وأنْصارٍ ونُصُرٍ، كصَحْبٍ.والنَّصيرُ: الناصِرُ.ورجلٌ نُصُرٌ، وقومٌ نُصُرٌ، أو النُّصْرَةُ: حُسْنُ المَعونَةِ.والاسْتِنْصارُ: اسْتِمْدادُ النَّصْرِ، والسُّؤالُ.). فهؤلاء يُضمرون لكم شِقاقاً.

﴿٩٠﴾

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾

وقد استثنى الله من ذلك المنافقين الذين يلجؤون كما لو أنهم دخلاء إلى أناس﴿**بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ**﴾بعدم القتال، فلا تدعوا المنافقين يتسببوا لكم في خرق هذا العهد الذي تعاهدتم به مع القوم بموجب ﴿**مِّيثَاقٌ**﴾أمان عقدتموه﴿**بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم**﴾. والميثاق في مقاييس اللغة :(الواو والثاء والقاف كلمةٌ تدلُّ على عَقْدٍ وإحكام.

ووثَقْت الشّيءَ: أحكَمْته. والمِيثاق العَهدُ المُحكَم .وهو ثِقَةٌ،وقد وَثِقْتُ به .وفي الصحاح : (وثِقْتُ بفلان أثِقُ، ثقةً إذا ائتمنته.والميثاقُ العهدُ، صارت الواو ياءً لانكسار ما قبلها.والجمع المَواثيقُ على الأصل، والمَياثِقُ والمَياثيقُ أيضاً).قال عكرمة: (نزلت في هلال بن عويمر وسراقة بن جعشم وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد).

﴿**أَوْ**﴾ لعلهم لجأوا إليكم دخلاء، ولايريدون العودة إلى قومهم كونهم يأبون قتالكم، فقد وقفوا في الوسط بينكم وبين قومهم، فهؤلاء كذلك استثناهم الله بـ ﴿**إِلاَّ**﴾ ممّن ﴿**فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ**﴾ لأن هؤلاء جاؤوا على وضوح، ووضوحهم ليس من شأنه أن يُحدث شقاقا في صف المسلمين، فقد ﴿**حَصِرَتْ**﴾ضاقت﴿**صُدُورُهُمْ**﴾ عن قتالكم، فباتوا يكرهون قتالكم. في لسان العرب : (حَصِرَ صدرُه: ضاق.والحَصَرُ: ضيق الصدر.وإذا ضاق المرء عن أمر قيل: حَصِرَ صدر المرء عن أهله يَحْصَرُ حَصَراً). وفي الصحاح : (حَصَرَهُ يَحْصُرُهُ حَصْراً: ضيَّق عليه وأحاط به).

كذلك، فإنهم لايريدون أن يدخلوا في صفكم ضد قومهم، فقد ضاقت﴿ **صُدُورُهُمْأَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ**﴾ من هنا يتبيّن بأن التصدّي الذي يُرخّص به الله ليس نحو شخصية الشخص بذاته، بل نحو الأذى الذي يريده لغيره، ولو اقتصر أذاه على نفسه، فهو يمتلك حرية ما يشاء تجاه نفسه، لكنه لايمتلك حرية الاعتداء على حريات الناس في معتقداتهم، فهنا يرخّص الله بعدم السماح لهؤلاء من هذا التجاوز، أي عدم الاستسلام والرضوخ لِمشيئتهم في توسعة وتعميم رقعة الكفر بالقوة، فرخّص الله تعالى بإعداد قوة مقابلة لقوتهم في هذه الحال. ومن ذلك نجم الأمر بعدم التعرّض للفئة المستثناة كونها تكتفي بأذى نفسها، فهؤلاء، دعوهم وشأنهم. ثم يبيّن للمؤمنين: ﴿**وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ**﴾ولكن الله لم يشأ أن يسلطهم ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾، ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ** ﴾تجنّبوكم، وكفوا أذى نفاقهم عنكم﴿**فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾في قتلهم أو أذيتهم.

﴿٩١﴾

﴿ستجدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾

يذكر الله تعالى صنفاً آخر من المنافقين، فإن كان أولئك لجأوا عن حقيقة إلى ديار الإسلام طلباً للأمن، رغم أنهم لايُبدون الإيمان، فهذه الفئة التي وصفها الله بالـ ﴿آخَرِينَ﴾ والآخر هو المخالف الذي لايكون على ما يكون عليه الأول، وإلاّ لكان مثله، ولما تحوّل إلى آخر، فهؤلاء خلاف أولئك، يأتون إلى ديار المسلمين لمصالح مختلفة، مثل التجارة، أوغير ذلك، حتى يأخذوا منكم الأمان، لهم ولقومهم.ويُروى أنها نزلت في أسد وغطفان، فعندما دخلوا المدينة، أسلموا، وعندما عادوا إلى ديارهم، أظهروا الكفر. فقال الله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ عادوا إليها ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْوَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾

﴿٩٢﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

لايجوز لمؤمن أن يقتل مؤمناً، إلاّ إذا وقع ذلك دون قصد منه، فيكون قد تسبب في قتل هذا المؤمن خارجاً عن إرادته. فإذا حدث ذلك، دون عمد، يسعى المتسبب إلى التخفيف عن أهل المقتول، فيبيّن الله سبل ذلك، فهذا من شأنه أن يرفع حالة العداوة بين القاتل غير العامد، وبين أهل المقتول، فهو يقول لهم: بيني وبينكم الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

يقول الإمام مالك عن رجلين جرّ أحدهما الآخر حتى سقطا، وماتا: (على عاقلة الذي جبذة الدية).

وقال الحكم وابن شبرمة: (إن سقط رجل على رجل من فوق بيت فمات أحدهما، قالا: يضمن الحي منهما). وقال الشافعي في رجلين يصدم أحدهما الآخر فماتا، قال: (دية المصدوم على عاقلة الصادم، ودية الصادم هدر).

وقال في الفارسَين إذا اصطدما فماتا: (على كل واحد منهما نصف دية صاحبه، لأن كل واحد منهما مات من فعل نفسه وفعل صاحبه).

وقال مالك والأوزاعي والحسن بن حي وأبو حنيفة وأصحابه في الفارسين يصطدمان فيموتان: (على كل واحد منهما دية الآخر على عاقلته). قال ابن خويز منداد: (وكذلك عندنا السفينتان تصطدمان إذا لم يكن النوتي صرف السفينة ولا الفارس صرف الفرس).

يُروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يُظهر إسلامَه لأهله فخرج هاربًا إلى المدينة، وتحصّن في أطمٍ من آطامها، فجزعت أمه لذلك جزعًا شديدًا وقالت لابنيها الحارث وأبي جهل بن هشام وهما أخواه لأمه: والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى تأتوني به، فخرجا في طلبه، وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة، فأتوا عياشًا وهو في الأطم، قالا له: انزل فإن أمك لم يؤوها سقفُ بيت بعدك، وقد حلفت ألا تأكل طعامًا ولا تشرب شرابًا حتى ترجع إليها (ولك عهد الله) علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك، فلما ذكروا له جزع أمه وأوثقوا له بالله نزل إليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه بنسعةٍ، فجلده كل واحد منهم مائة جلدة، ثم قدموا به على أمه فلما أتاها قالت: والله لا أحلّكَ من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثقًا مطروحًا في الشمس ما شاء الله، فأعطاهم الذي أرادوا فأتاه الحارث بن زيد فقال: يا عياش أهذا الذي كنت عليه فوالله لئن كان هدى لقد تركت الهدى، ولئن كانت ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقالته، وقال: والله لا ألقاك خاليًا أبدا إلا قتلتك، ثم إن عياشًا أسلم بعد ذلك وهاجر ثم أسلم الحارث بن زيد بعده وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرًا يومئذ ولم يشعر بإسلامه، فبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقي الحارثَ فقتله، فقال الناس: ويحك أي شيء صنعت؟ إنه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله قد كان من أمري وأمر الحارث ما

قد علمت، وإني لم أشعر بإسلامه حتى قتلته، فنـزل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلا خَطَأً﴾.

﴿٩٣﴾

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾

فإن أجاز المرء لنفسه قتل مؤمن عن قصد، وعن سبق إصرار وتخطيط، فيكون قد تجاوز على هذه الحرمة العظيمة، وهذا الانتهاك الانساني العظيم بحق الإنسان. فجزاء هذا المنتهك الخلود في ﴿جَهَنَّمُ﴾فكما أنه حرم هذه النفس البريئة أن تعيش في الدنيا، فإن جريمته تؤدّي به إلى خلوده في النار ﴿وَ﴾ قد عرّض نفسه لـ ﴿غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ﴾فأصبح من﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ﴾الفاتحة٧ ﴿وَ﴾ كذلك عرّض نفسه بأن﴿لَعَنَهُ﴾ الله فأصبح ملعوناً بلعنة الله ﴿وَأَعَدَّ ﴾الله﴿ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾

﴿٩٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

بموجب الاجازة التي أجازها الله تعالى للمؤمنين للدفاع عن أنفسهم والمستضعفين وعن دينهم، عليهم أن يتحققوا من شخصية الإنسان المعتدي، فلعله يعيش مع المعتدين، أو يكون معهم، بيد أنه لايكون معتدياً، ولايقرّ باعتدائهم على المؤمنين، فإن مكّن الله المؤمنين منهم، عليهم أن يميزوا المعتدي الذي يحارب المؤمنين بكل ما أوتي من ملكات، وبين أناس لايؤيدونه في اعتدائه، وهذا وله امتداده في كل زمان ومكان، فلعل أناساً من قرية اعتدت على أناس قرية أخرى، فإن مكّن الله القرية التي تعرضت للإعتداء بالردّ، فعليها ألاّ تبطش في الانتقام، بل تتبيّن وتتحقق: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: (نـزلت هذه الآية في رجل مـن بـني مرة بن عوف يقال له مرداس بن نهيك، وكان من أهل فـدك وكـان مسلمًا لم يُسلم مـن قومـه غيره، فسمعوا بسريةٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم، وكان على السرية رجل يقالُ لـه غالب بن فُضالة الليثي، فهربُوا وأقام الرجل لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيـل خـاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه إلى عـاقُول مـن الجبـل، وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقت الخيـلُ سمعهـم يكبرون، فلمّا سمـع التكبير عـرف أنهـم مـن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فكبرّ ونـزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فتغشاه أسامة بـن زيـد فقتلـه واستاق غنمـه ثـم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مـن ذلـك وجدًا شـديدًا، وكان قـد سـبقهم قبـل ذلك الخبر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قتلتموه إرادةَ ما مَعَه " ؟ ثـم قـرأ هـذه الآيـة على أسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله استغفر لي، فقال فكيف بـلا إلـه إلا الله؟ قالها رسـول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليـه وسلم يعيـدها حتى وَددْتُ أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفرَ لي بعـد ثلاث مرات، وقال: " اعتقْ رقبةً " .

وروى أبو ظبيان عن أسامة رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله إنّما قال خوفًا مـن السلاح، قال: "أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفًا أم لا ")

الباب السادس عشـر
العاملون والقاعدون

﴿٩٥﴾

﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾.

في هذا الباب يبيّن الله مدى مسؤولية الانسان تجاه ما آتاه الله تعالى من طاقات، وإمكانات في مختلف المجالات، وكيف أن عمره يُصبح مبارَكاً إذا جدّ، وأعطى، وأنتج، وكافح، كيف أنه يكتشف لذة الحياة من خلال التفاعل مع إيقاعها، إنه إنسان ممتلئ بالحيوية، والنشاط، لايعرف التقاعس سبيلاً إليه، وكل يوم عن يوم يزيد في رصيده من الانتاج، والعمل، والصلاح، والنفع.

إن الله يعطي لكل ذي حق حقه،﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾التوبة١٠٥

وهذه هي مسؤولية الإنسان تجاه جل مراحل حياته، وجل تقلبات هذه الحياة، فما الذي فعلته وأنت في ذروة لياقة الشباب، كم كلمة طيبة أنطقتها على لسانك، كم موقف حق وقفته، كم كربة فرّجتها عن الناس، كم أذى أزحته عن الطريق، كم مرة كظمت غيظك، كم مرة سترت عورات الناس، كم مرة عفوت، كم مرة ابتسمت في وجوه الناس، كم لقمة حلال قدّمتها لنفسك، ولعيالك، كم أنفقت من مالك في سبيل الله، كم صلح حققته بين الناس، كم أقدمت بنفسك للوقوف موقف حق.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمن كالغيث، أينما وقع نفع" فهل يستوي من ترجح موازينه بالخير، مع﴿الْقَاعِدِينَ﴾ فقد: ﴿فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾.

قال البخاري: (حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كَيْسان، عن ابن شهاب، حدثني سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مَروان بن الحكم في المسجد، قال:

فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عَلَيّ: ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ . فجاءه ابن أم مكتوم، وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى- فأنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفخِذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترَض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾). فالكلام هنا عن القادر على العمل، بيد أنه يتكاسل، ويتخاذل، فالقاعد هو الذي يجعل من نفسه مشلولاً، وهو غير مشلول، يجعل من نفسه عاطلاً عن العمل، وهو قادر عليه، فعندما ينهض العامل المكافح صباحاً، ليعمل، يلبث العاطل دون عمل، ولذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى العمل ، حتى يغتني عمر الإنسان بأشكال وألوان العبادات . رأت عائشة رضي الله عنها رجلاً كاد يموت تخافتا فقالت :(ما لهذا ؟ قيل : من القراءة والعبادة . فقالت :كان عمر سيد القراءة ، وكان أعبد لله منه ، فكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجع) .

ورأى عمر بن الخطاب رجلاً مطأطأ رأسه ، فقال له : (ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض ، ولا تمت علينا ديننا، أماتك الله) . فكما أنك قدّمت حصيلة من العمل الصالح في حياتك، فإنك تجد عند الله ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ يخصك الله به دون ﴿الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿٩٦﴾

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

تلك مكرمات، من الله للإنسان، كذلك يغفر الله الذنوب، فلا يؤجرك على جهادك فحسب، بل يغفر لك ذنبك، ولايغفر لك ذنبك فحسب، بل يُدخلك رحمته في درجات يشاءها الله لك، فأنت لم تترك عمرك يمضي هباءً، وكسلاً، وهدراً، وقعوداً، بل ملأته بصالحات المواقف، والأعمال، أغنيته، واغتنيت به. فترى الله يكرمك بـ ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال: "من آمن باللّه ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان. فإن حقا على اللّه أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل اللّه أو جلس في أرضه التي ولد فيها". قالوا: يا رسول اللّه، أفلا نخبر الناس بذلك؟

قال: "إن في الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين في سبيله. كل درجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس. فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن. ومنه تفجر أنهار الجنة".

﴿٩٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾

يتبيّن لنا هنا بأن القاعد إنما هو ظالم لنفسه، لكونه حرمها من تلك المكرمات والمنازل التي فضل بها الله العامل عليه، وكان يمكن له أن يحظى بهذا التفضيل الإلهي، بيد أنه تقاعس، وتكاسل، ولبث قاعداً، ثم أنه يريد الدفاع عن نفسه، حتى يحظى بما يحظى به العامل الذي يقف على حصيلة غنية من الجهد، والعطاء، والنشاط: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ** ﴾ما هي حصيلة أعمالكم. يقولون:﴿ **كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ فتلك هي ذريعة يتذرعون بها، يقول لهم الملائكة: ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا**﴾ فإن كنت مستضعفاً في بقعة أرض، ولاتجد فيها مجالاً للعمل، أو يتم التضييق عليك فيها، هل اقتصرت أرض الله الواسعة على تلك البقعة من الأرض:﴿**فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً**﴾

﴿٩٨﴾

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾

باستثناء ﴿**الْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾الذين لاطاقة لديهملمواجهة مشقات الهجرة، وهنا قد يرضخ المرء لواقع الأمر بسبب عجزه ، ثم أن البعض قد يكون قادراً على الهجرة، ولكن يتم منعه من ذلك، وفي زماننا يُقال بمنع بعض الأشخاص من السفر، وعدم منحهم جوازات تجيز خروجهم من هذه البقعة التي ضاقت عليهم من الأرض، فهؤلاء استثناهم الله بـ ﴿**إِلاَّ**﴾ لكونهم﴿**لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً**﴾ وكان ذلك يحدث عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى

المدينة، ثم بدأ الكفار يضيّقون على المسلمين، ويمنعونهم من الهجرة، وإن أرادوا الهجرة سرّاً، ترصدوا لهم في الطرقات، ثم صادروا أموالهم وممتلكاتهم. فهم في عجز عن إيجاد وسيلة، أو طريقة تمكّنهم من الخروج من أرض الضيق، إلى أرض الفرج، فهم بمثابة الرهائن، وقد غدوا تحت الإقامة الجبرية، و﴿لاَ يَستَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾

﴿٩٩﴾

﴿فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾

الفئة المستثنية بـ ﴿إِلاَّ﴾: ﴿عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ تقصيرهم﴿وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾فقد جاءت﴿عَسَى﴾مشيرة إلى العفو ﴿عَنْهُمْ﴾، فيسأل أهل الاستثناء الله العفو والمغفرة عن تقصيرهم.

﴿١٠٠﴾

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

إن تركك للمكان الذي لاتجد فيه مجالاً للكفاح، والجدّ، والنشاط، هو الخطوة الأولى نحو مكان آخر فيه سعة، وعندما تهاجر﴿فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ تجد ﴿فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾بمعنى ستكتشف بأن أرض الله تغتني بأماكن تناسبك، وتتسع ما يمكنك القيام به من صلاح العمل، فإن ضاقت في موضع، اتسعت في موضع آخر، فعليك ألاّ تستسلم وكأن الأرض لاموضع فيها سوى تلك البقعة التي ضاقت بك.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (﴿ مُرَاغَمًا﴾ أي: مُتحوَّلا يتحول إليه)، وقال مجاهد: (متزحزحًا عما يكره) ثم بيّن لك الله بأن الخير يكمن في الوجهين من الهجرة، سواء بلغ الانسان الموضع الذي يريد، أو مات في الطريق قبل أن يبلغه.

رُوي أنه لَمّا نزلت هذه الآية :(سمعها رجل من بني ليث شيخ كبير مريض يقال له جُنْدُع بن ضَمْرة، فقال: والله ما أبيت الليلة بمكة، أخرجوني، فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فأدركه الموت، فصفقَ يمينه على شماله ثم قال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك

على ما بايعك عليه رسولك، فمات فبلغ خبرُه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لو وَافى المدينة لكان أتم وأوْفى أجرًا، وضحك المشركون وقالوا: ما أدرك هذا ما طلب، فأنـزل الله: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾).

كل هذا حتى يرفع الله عن الانسان اليأس والاستسلام والخنوع في واقع رديء، فعليك أن تنهض، وتنفض عن نفسك غبار التقاعس، فإن في النهوض بركة.

﴿١٠١﴾

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾

فإن توكل الانسان على الله، ومضى في طريق الهجرة، يرخّص الله له تقصير﴿الصَّلاَةِ﴾ من أربع ركعات إلى ركعتين في صلاة الظهر، والعصر، والعشاء، لأن الصلاة قد تستغرق بكم وقتاً يستغله الكفار للهجوم عليكم وأنتم تصلّون، فالتقصير يكون للحذر، ولدفع الأذى عنهم، فلعل الكفار، يترصدّونهم عندما خرجوا في الهجرة، فينتظروا أن يقيموا الصلاة، حتى يقعوا عليهم.

﴿١٠٢﴾

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوَاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾

يوجه الله رسوله بأنه عندما يكون في حالة حرب مع الكفار، ويحين وقت الصلاة، عليه أن يحتاط من غدر الكفار، وقد بيّن الله كيفية الحيطة والحذر بأن يبقى البعض في حراسة الساجدين من ورائهم.

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم :(أن المشركين لمّا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى الظهر يُصلون جماعة ندموا أن لو كانوا كبُّوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، يعني صلاة العصر، فإذا قاموا فيها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عز وجل يقول: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ** ﴾ فعلّمه صلاة الخوف).

﴿١٠٣﴾

﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً**﴾

تقديم الشكر لله تعالى في جميع الأحوال، سواء في السلم، أو في الحرب، سواء تكون قائماً، أو قاعداً، أو مستكيناً على جنب، ثم أنه عند الطمأنينة في زوال أسباب التقصير ، تعود الصلاة إلى طبيعتها.

عن ابن عباس: (لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ، غيرَ الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿**فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم**﴾، بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسرِّ والعلانية، وعلى كل حالٍ).

﴿١٠٤﴾

﴿**وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾

الوهن من الضعف، ومَن يهِن، يُصبح هيّناً أمام عدوه، فيستهينه، فيأمر الله المؤمنين ألاّ يـ﴿**هِنُوا**﴾في مواجهة الكفار، والمرابطة على ذلك، فإن لقيتم ألماً في التصدّي لهم،﴿**فَإِنَّهُمْ**﴾كذلك﴿**يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ**﴾في ردعكم لهم، ولكم عند الله ما ليس لهم، فرغم أنكم تستوون في تحمّل المشقة، إلاّ أنكم تظفرون بما لايظفرون، لأنكم ﴿**تَرْجُونَ مِنَ اللّهِ**

﴿بتصـديكم لهـم﴾ ﴿مَـا لاَ يَرْجُـونَ﴾ في ملاقـاة ردعكـم لهـم. ﴿وَكَـانَ اللّـهُ عَلِيمـاً ﴾بكـم وبهم﴿ حَكِيماً﴾ بوضع كل شيء في موضعه الملائم.

الباب السابـع عشـر

التبيان

﴿١٠٥﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾

يوجه الله تعالى رسوله في هذا الباب إلى التحقق، والتأكد من حقيقة ما يُقال له قبل أن يصدر الحكم، فلعل ما يقال له، هو مجانب للصواب، والله هنا يتخذ من واقعة جرت مع الرسول مثلاً، ويُنزل الآية تلو الآية وفق ما يستجدّ من هذه الواقعة، ومفاد هذه الواقعة أن رجلاً يُدعى طعمة بن أبيرق يقوم بسرقة درع لأحد الأنصار يُدعى قتادة بنِ النعمانِ ، فعلم هذا المسروق أن طعمة هو الذي سرق درعه، فجاء إلى النبي يخبره: (يا رسول الله أن طعمة بن أبيرق سرق درعي) فطلبه الرسول، عندئذ، رمى بالدرع إلى بيت رجل يهودي يُدعى (زيد بن السمين) وقال لبعض قومه: (إني قد غيَّبْتُ الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده) عندذاك حضر هؤلاء إلى النبي وأخبروه أن صاحبهم بريء، وأن زيد بن السمين هو السارق، قالوا:(يا نبيّ الله، إن صاحبنا بريء، وإن سارق الدرع فلان، وقد أحطْنا بذلك علمًا، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إلا يعصمه الله بك يهلك) ومما يُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استجاب لهم وبرّأ صاحبهم بناءً على ما سمع، ثم عذره أمام الناس. عندئذ أنزل الله هذه الآية، يُخبر فيها رسوله بأن يأخذ الأحكام مما يُريه له في التنزيل، وبدون ذلك قد يميل للدفاع عن خائن، فيُخاصم عنه إنساناً بريئاً، لأن الخائن لعله أجاد وسيلة الاقناع، وأن البريء لعله، لايجيد مقدرة للإقناع ببراءته. فقد﴿**أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾يا محمّد﴿ **بِالْحَقِّ**﴾ فهو كتاب حق بعمومه ، وإن اتبعته لاتخرج عن الحق، لكن إن اتبعت أقوالهم وحججهم، قد تخرج عن الحق فتصبح﴿**لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً**﴾ فنحن ما نزال في مراحل نزول القرآن، ونرى كيف أن الله يعلّم رسوله، آية بعد آية، وحدثاً إثر حدث، وموقفاً تلو موقف، والرسول يتلقى كل هذه التعاليم، ويتفاعل معها ويبلغ الناس بما ينزل الله إليه. كيف يكون المرء خصيماً للخائن ؟ أي

عندما ينجح هذا الخائن أن يجعل منه خصماً لخصمه، فينجح طعمة بن أبيرق أن يجعل محمداً صلى الله عليه وسلم خصماً لرجل بريء هو اليهودي زيد بن السمين من خلال الحكم عليه بناءً على ما سمع من قوم طعمة الذين استطاعوا أن يقنعوه بما قالوا افتراءً على المظلوم. فقال جل جلاله :﴿وَلاَ تَكُن﴾يا محمّد﴿لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾ أي لاتدعهم يجعلوك خصيماً لهم يستخصمون بك الأبرياء، ويستخصمونهم عليك، ذلك أن البريء عندما يرى حكما غير عادل من رسول الله بحقه، قد يُصاب بصدمة، ثم لننظر إلى البريء وهو يهودي ، وكيف أن الله أظهر براءته أمام رسوله، وأمام الناس أجمعين، وكيف أنه أدان الأنصاري. وهذا يجري في الناس على مدار الزمن، فكل شخص غير مسلم هو مشروع كي يُصبح مسلماً، ولذلك على المسلم أن يبيّن له بأن لدى الاسلام ما هو أكثر عدلاً، وأكثر صواباً، وأكثر نفعاً، وأكثر أمناً، لأن الانسان لايترك شيئاً كي يدخل إلى ما هو دونه، بل يترك شيئاً، كي يذهب إلى ما هو أرفع منه مقاماً، فكيف لليهودي أن يؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم عادل، وهو نفسه يرى بأنه ظلمه، لأنه لم يكن سارقاً، ثم أن السارق نفسه، وإن كان أنصارياً، وقد استطاع أن يُمرّق افتراءه على رسول الله، كيف له أن يؤمن بعداته، وهو يرى بأنه تلقى هذا الافتراء، دون أن يعلم بأنه افتراء، ثم ما الذي ضمن للأنصاري نفسه، أن ذلك لن ينقلب عليه أيضاً، أو على أي مسلم آخر، وأن الرسول سيحكم عليه استناداً إلى بعض الأدلة الواهية التي ستقدّم إليه. من هنا، فإن كل شخص مسلم، هو ممثل للإسلام في عين الآخر غير المسلم، فهو يقدّم إليه الإسلام من خلال أفعاله التي يستمدّها من القرآن، ثم من خلال القرآن الذي يقدّمه له كي يقرأه، حتى تجلو له الحقيقة. فلم يقبل الله ما وقع بحق هذا اليهودي، وفي الآية التالية سنرى بأنه يخاطب رسوله، بعد أن يبيّن له حقيقة ما أقدم عليه طعمة بن أبيرق:

﴿١٠٦﴾

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

فيستجيب النبي صلى الله عليه وسلم، يغدو أسوة في الاستغفار، ويأتسي به المسلمون في دوام الاستغفار لله سبحانه وتعالى، وهو أكثرهم علماً بأن الله غفور رحيم. إن الناس يطلعون على كل هذه التفاصيل في جوهر هذه العلاقة بين الله، وبين رسوله، وهذا من شأنه أن يضعهم في قلب

الوقائع التي جرت، والتي نزلت آيات التنزيل العزيز بشأنها، وهي وقائع متكررة في كل زمان ومكان، ذلك أن التنزيل هو مفتوح لكل زمان ومكان، فإن رأينا حدثاً، نعود إلى تنزيل القرآن فيه، لأنه لم ينزل على شخصية الشخص المُنزل فيه، بل على الصنيعة التي صنعها، هذه الصنيعة التي يصنعها شخص الآن، فيكون التنزيل في ذات الصنيعة، ولكن باختلاف الأشخاص، واختلاف الزمان والمكان، فلو خص الحكم المنزل ذات الشخص، لكان مفعول الحكم انتهى بموت الشخص، بيد أن الحكم على الفعل الذي ينتقل من إنسان إلى آخر، سواء أكان هذا الفعل سلبياً، أم كان إيجابياً، وعلى ذلك فإن الشخص الذي يأتي هذا الفعل، يخضع للحكم الذي هو على الفعل الذي فعله، فأصبح مثله مثل الشخص الأول الذي فعله، وقد نزلت في حقه الآية، فإذن، هي نزلت في حقك، وبناء عليه، فستخضع للعقاب، أو للثواب، أو لِما يشاء الله تعالى.

فإن قلت كلمة، فاعلم بأن الله أنزل فيك قرآناً، ولكن من خلال شخص آخر قالها قبلك، وإن فعلت فعلاً، فاعلم بأن الله أنزل فيك قرآناً ، ولكن من خلال شخص سبقك في هذه الفعل، إن وقفتَ موقفاً، فاعلم بأن الله قد أنزل فيك قرآناً من خلال شخص وقفه قبلك، وهو ليس أفضل منك، كما أنك لستَ أفضل منه. يخاطب الله الناس كافة في كل زمان ومكان:﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾الحجرات١٣ فإن اتبعت أمراً إلهياً بشأن العلاقة بينك وبين زوجك، فاعلم بأن هذه الآية التي حملت الأمر، قد نزلت بشأنك، ولم تقتصر على الشخص الذي نزلت فيه، فها أنت أمام ذات الحدث الذي نزلت هذه الآية بشأنه، لو كنتَ أنت مكان ذاك الشخص في ذاك الزمان، وكان هو مكانك في هذا الزمان، لما اختلف الأمر باختلاف الشخصين، ما دام الحدث هو ذاته. وهكذا اعلم بأن القرآن هو دائم النزول في الناس، وأن ما من شخص، إلاّ ونزل شيء من القرآن بحقه، ما من شخص إلاّ والله جل جلاله يخاطبه في كتابه العزيز. لذلك فإن القرآن هو كتاب الناس جميعاً، ينتفع به الناس جميعاً، وقد أصبح محمد صلى الله عليه وسلم بعد كل ذاك العلم الذي علّمه الله:﴿**سِرَاجاً مُّنِيراً**﴾ الأحزاب٤٦

﴿١٠٧﴾

﴿**وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**﴾

يختان نفسه، بمعنى يخون نفسه، وهو الذي قذف البريء بالسرقة، فقد خوّن البريء، وفي الواقع هو الخائن، فيمكن قياس ذلك على مواقف الناس، لأن الذي يؤازر شخصاً دون أن يتحقق من موقفه، لعله يكون بذلك يؤازر خائناً دون أن يعلم، ومن حيثيات الواقعة أن اليهودي دافع عن نفسه أمام رسول الله، وأخبره بحقيقة ما جرى وهو يقول: (والله ما سرقتها يا أبا القاسم، ولكن طرحت عليّ)

فنكر ذلك قوم السارق وقالوا للنبي:(يا رسول الله، إن هذا اليهودي الخبيث يكفر بالله وبما جئت به).

وإن كان اليهودي وحيداً، وهم كُثر، فقد وقف الله مع حق اليهودي، ورجّح كفة الحق على كفة الباطل، فأمر رسوله:﴿**وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ**﴾ أي ﴿**وَ**﴾ لاتدافع عن طعمة بن أبَيرق ، فهوخوّان لأنه خان الأمانة، وأثيم، لأنه اتهم بها اليهودي .

﴿١٠٨﴾

﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً**﴾

يستطيعون أن يخفوا خيانتهم عن الناس، لكنهم لايستطيعون إخفاءها عن الله الذي ﴿**هُوَ مَعَهُمْ**﴾ أي لايستطيعون التواري عنه، فـ ﴿**هُوَ**﴾ يراهم ﴿**وَلاَ يَسْتَخْفُونَ**﴾منه ﴿**إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ**﴾ فإن الله يحيط بما يحيكونه في سكون الليل.

﴿١٠٩﴾

﴿**هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**﴾

فقد دافعتم عنهم أمام الناس الذين لايعلمون الحقيقة، فمَن يُدافع عنهم أمام الله الذي﴿**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**﴾طه٧ فإن لم يكن الناس معهم، فإن الله كان معهم، وقد شهدهم ﴿**إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ**﴾المخالف للحق. ﴿**أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**﴾الوكيل هو مَن يتوكل بالدفاع عن الشخص، ويُحاميه، فـ ﴿**مَّن**﴾يتولى التوكل عن طُعْمة بن أُبَيْرق، ومَن يحذون حذوه، ليحاميهم يوم القيامة، فالذي يُحامي، عليه أن يُحامي عن الحق، وتبيّن الآية بأن

المظلوم، يتولى الله تعالى الدفاع عنه، وقد رأينا كيف أن دفاع الله عن زيد بن السمين ، رجّح كفته على كفة طعمة بن أبيرق، وكل الذين حاموه. وكما أن الأمر في الدنيا، فسيكون في الآخرة، يوم لايجد المتحامون، مَن يُحاميهم في باطلهم.

﴿١١٠﴾

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

ويبدو لنا من الحديث بأننا ما نزال مع طعمة بن أبيرق، وأن الله جل جلاله، لم ينه كلامه مع رسوله بشأنه، فلو فعل طعمة ما فعل، ثم ندم على فعله، وأصلح شأنه، واستغفر ﴿ **اللّهَ** ﴾لو جد﴿**اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾وقد بدأت الآية بـ ﴿**وَمَن**﴾ وهذا يجعل من الحالة الخاصة، مقياساً عاماً ﴿**وَمَن** ﴾من الناس كافة ﴿**يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ بيد أن طعمة الذي عمل ﴿**سُوءاً**﴾وظلم ﴿**نَفْسَهُ**﴾ في هذه الآيات، تمادى في خيانته، فلم يكتف بالسرقة، ولم يكتف أنه رمى إنساناً بريئاً وهو اليهودي، بل كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويبدو أنه مع كل مرحلة من مراحل تماديه في الخيانة، تنزل آية لتبيّن للنبي الحق، وبذلك فإن الله جل ثناؤه، يُظهرلرسوله حقيقة طعمة.

﴿١١١﴾

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾

ثم ﴿**وَمَن**﴾ من الناس كافة يرتكب﴿**إِثْماً**﴾ ، فهو يعتدي على نفسه، كذلك الأمر موجه إلى طعمة، ومنه يتم التعميم، حيث أظهر الله الحقيقة، وانقلب الإثم عليه، وعلى ذلك نرى كيف أن الله جل جلاله، يُصحح المسار لرسوله حتى يبقى الدين مستقياً لاالتواء فيه قيد شعرة، لأن ذلك كله يمهّد لِما سيقوله الله تعالى له في حجة الوداع: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾المائدة ٣ فـ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾البقرة ٢٥٦وتصحّحَ المسار.

﴿١١٢﴾

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾

ما يـزال الله تبـارك وتعـالى يتحـدّث لرسـوله في شـأن طعمـة بـن أبـيرق، ويبـيّن لـه بأنـه رمـى اليهودي بالسرقة، وقام بكل ما قام بـه ممـا لاأحـد يعلمـه سـوى الله، وقـد أظهـر الله ذلـك للنـاس كافة في كل زمان ومكان، لأن الأمـر سـيعنيهم، وفي ذلـك تنبيـه لِمـن سـيحذو حـذو طعمـة، بأنـه سيلقى ما لقيه، وينتهي إلى ما انتهى إليه، سواء في الـدنيا، أو الآخـرة، كـذلك فهـو تنبيـه للنـاس، ولأولي الأمر بأن يتحققوا ممـا يُقـال:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾الحجرات٦

﴿١١٣﴾

﴿**وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾

ما يزال الله تعالى يُخبر رسوله عمّا كان طعمة وصحبه يريدون أن يفعلوه بـه﴿**لَوْلاَ**﴾ أن أطلعـه الله علـى تلـك التفاصيل الـتي كـانوا يبيّتونها بحقـه لـيلاً، فهـذا بـ ﴿**فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ**﴾ يا محمّد ﴿**وَلَوْلاَ** ذلك لأوشكت ﴿**طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ**﴾عن الحق ﴿**وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ**﴾ عن الحق.

﴿١١٤﴾

﴿**لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾

يبيّن الله بأن كثيراً من أحاديث الناس و مناجاتهم ﴿لاَّ خَيْرَ﴾فيه، وأمّا المتبقي من الكلام والنجوى الذي فيه خير، فهو الذي ينتج ﴿بِصَدَقَةٍ﴾، أو يتكل بـ ﴿مَعْرُوفٍ﴾، أو ينبثق بـ ﴿إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾

قال الإمام أحمد:(حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرة عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام والصدقة؟ " قالوا: بلى. قال: " إصلاح ذات البين :قال: "وفساد ذات البين هي الحالقة " .

ويقول صلى الله عليه وسلم: "إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة".

﴿وَمَن ﴾من الناس كافة﴿يَفْعَلْ﴾صدقة ، أوْ معروفاً، أوْ إصلاحاً ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾وهو يبتغي ﴿مَرْضَاتِ اللّهِ﴾من﴿ذَلِكَ﴾﴿فَسَوْفَ ﴾بـ﴿نُؤْتِيهِ﴾الله ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾

﴿١١٥﴾

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾

فهذا هو طعمة بن أبيرق، وقد تم بيان حقيقته في قرآن مُنزل، فلمّا علم أن أمره انكشف، هرب دون أن يندم على ذنبه، أو يستغفر الله، ويسأله التوبة، وكان بمكن له أن يفعل ذلك، بيد أنه واجه الخطأ بخطأ أكبر منه، إذ كفر بعد أن أنعم الله عليه بنعمة الاسلام، وذهب مكة، ونزل عند الحجاج بن علاط السلمي، وهناك أراد أن يسرقه، فأخذ ينقب بيته، وبدأت تصدر إلى الحجاج خشخشة، وقعقعة جلود كانت في بيته، ويُروى أن حجراً سقط على طعمة في أثناء ذلك فلَحِج ، وفي الصباح أخرجوه من مكة ، وعندما خرج رأى ركباً من بهراء من قضاعة، فجاء إليهم مستنجداً بقوله: (ابن سبيل مُنقَطَعٌ به) فأخذوه في ركبهم، وعندما خيّم الليل، أقدم على سرقتهم، وفرّ هارباً، بيد أنهم كشفوا أمره، ولحقوه حتى أمسكوا به، ثم أخذوا يرمونه بالحجارة حتى لقي حتفه.

فقد هداه الله إلى الاسلام، و﴿بَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ بيد أنه شاقق ﴿الرَّسُولَ﴾ فولاّه الله تعالى في الدنيا ﴿مَا تَوَلَّى﴾ثم في الآخرة: يُـ﴿صْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

الباب الثامـن عشـر
متاهـة الأمانـي

﴿١١٦﴾

﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾

يبيّن الله تعالى بأنه يغفر لمن يشاء من الناس كل ذنب يذنبونه، باستثناء أن يشركوا به، فإنه لايغفر للإنسان ذلك، لأن الانسان عندما يشرك بالله، يكون ﴿قَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ خرج من دين الله، وأصبح عنه﴿بَعِيداً﴾كون الشرك يُبعد عن دين الله أقصى ما يمكن له أن يبعد، فهو قد أوغل في ظلم نفسه، وأضلّها ﴿ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ فبدون توحيد الله، مهما عمل الانسان من حسنات، فإنها لاتنفعه، ومهما أراد الشافعون أن يشفعوا له، أو يُسأل الله له المغفرة مِن قبل الصالحين، أو يُتصدّق عنه، فإن لاشيء ينفعه من ذلك، فقد ﴿ ضَلَّ ﴾المشرك بشركه عن الهدى، و﴿للّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ و﴿مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فإنه﴿يَغْفِرُ﴾﴿لِمَن يَشَاءُ﴾.

أخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن عديّ بسند صحيح، عن ابن عمر قال: (كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ وقال: "إنيّ ادّخرت دعوتي، وشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا).

﴿١١٧﴾

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً﴾

الله الذي يملك أن يفعل ما يشاء، وهو القوي، والقادر على كل شيء، ولاشيء بوسعه ألاّ يخضع لمشيئته، فهؤلاء﴿**يَدْعُونَ**﴾ يسألون﴿**مِن دُونِهِ**﴾﴿**إِنَاثاً**﴾ والأنثى هنا صفة على تجسّم بلا روح، أي على جماد، وكان المشركون يُلبسون أصنامهم وأوثانهم ثياباً نسائية، وكان يُقال لصنم كل قبيلة: أنثىَ بني فلان. وهم بذلك يستجيبون للشيطان الذي يوجههم إلى ذلك، فعلى العموم، مهما تبدّلت أشكال وألوان الشرك عبر الأزمنة، والأمكنة، فإنهم يعجزون أن يكونون شركاء لله، لأنهم يعجزون أن يفعلوا ما يفعله الله، فحتى لو ادّعى إنسان ما الألوهية، فإنه يعجز أن يقدّم سواء لنفسه، أو للناس ما يقدّمه الله، وأن مرجع قوة كل هؤلاء عبر التاريخ الإنساني، إنما هو الشيطان الـ ﴿**مَّرِيد**﴾الذي خضع للعنة الله عليه عند ما مرد على أمر ربه.

﴿١١٨﴾

﴿**لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً**﴾

فقد حلّت عليه لعنة الله لأنه استكبر على أمره، فقال كردّ على اللعنة: ﴿**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً**﴾ أي ما يمكنني أن أتخذهم جنوداً لي، وأجعلهم يخضعون لأمري ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً:﴿ **لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾الحجر ٤٠، ٤١ فالذي يتبع الشيطان، يُصبح من نصيبه، أي يكون الشيطان قد أصابه.

﴿١١٩﴾

﴿ **وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً**﴾

ثم﴿قَالَ﴾﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ عن الوسائل التي يتبعها من أجل أن يتخذ له من الناس ﴿نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾

فهو سيسعى ما بجهده إلى إضلال الناس عن صراط الله المستقيم، وأنه سيسعى ليـ ﴿مَنِّيَنَّهُمْ﴾ تعبّر الكلمة عن الأمنية الغير قابلة للتحقق، فهو سيـ ﴿مَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي يغويهم حتى يجعلهم يعقدوا أمنيات على ما لايمكن له أن يتحقق، مثل قولهم، فيبلغوا مرحلة يقولوا فيها:﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ يقول الله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾البقرة١١١

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً★ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾الكهف ١٠٣، ١٠٤ فهو في أقصى ما يمكن أن يقدّمه لهم نتيجة شركهم بالله، أن يجعلهم في وهم كبير. ثم يأ ﴿مُرَنَّهُمْ﴾وهذا يُشير بأنهم يخضعون لأمر الشيطان ويطيعونه ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ يشقق ﴿آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ثم﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ كل هذه هي مظاهر شيطانية، يعززها الشيطان في نفوس مريديه، وهي مظاهر مستمرة، فنرى البعض يغيّر من خلق الله، ويرتكب ما يأمره الشيطان، فترى الذكر يتزيا بزي الأنثى، والأنثى تتزيا بزي الذكر، ثم نرى هذه المظاهر التي تسعى إلى تغيير الطبيعة التي خلق الله الإنسان عليها، وقد خلق الله سبحانه وتعالى كل شيء في الإنسان ملائماً، ومتوافقاً مع شخصيته ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾الروم ٣٠، ولذلك فإن أي مسعى للتغيير من شأنه أن يعكس سلباً على طبيعة سوية الإنسان . ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كل مولود يولد على الفِطْرَة، فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرَانه، ويُمَجِّسَانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل يَحُسّون فيها من جدعاء " وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل: إني خلقتُ عبادي حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتَالَتْهُم عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم " .

فالذي يترك صراط الله المستقيم و﴿يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً﴾ فإنه سيُمنى بخسارة فادحة.

﴿١٢٠﴾

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾

الوعود الغير قابلة للتحقق، والأماني الخاوية التي لاجدوى منها ، وهم يغترّون بما يغريهم به الشيطان، ولايملك الشيطان غير ذلك، فهذا الغرور يجعلهم مغرورين، وأن يكون المرء مغروراً يعني أنه يعتقد بأشياء لاوجود لها، فالإغراء هو عملية استدراج بوسائل مختلفة إلى أمر لاأساس له من الحقيقة، فيُصبح المُغرربه مغروراً حتى يخال بأنه يقف على حقيقة، فقال ﴿**وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ وذلك هو وعد الشيطان الحقيقي لهم، فهم سيكتشفون بأنه غرّهم، ولكن بعد فوات الأوان، ولذلك فإن الله يُخبرهم الحقيقة الآن، وقبل أن يفوت الأوان.

﴿١٢١﴾

﴿أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً﴾

فإن لبثوا على ما هم عليه من تبعيتهم للشيطان رغم بيان الله الجلي لهم واتخذوه ﴿**وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ**﴾يكون منتهاهم﴿**جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ**﴾ سبيلاً للفرار منها .

يُخبرهم الله بأن الشيطان عندذاك، وبعد أن يفوت الأوان سيقول لهم:﴿**إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ**﴾ إبراهيم٢٢

﴿١٢٢﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً﴾

أمّا الذين لم يتبعوا الشيطان، وتجنبوا مفاسده، وآمنوا بوحدانية الله، ﴿**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ سيجدون عند الله ما وعدهم به ﴿**سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**﴾ فوعد الله هو حق، ولابدّ لوعد وعده الله إلاّ ويتحقق ذلك أن: ﴿**وَعْدَ اللّهِ حَقّاً**﴾ كما أن وعد الشيطان باطلاً، فمهما أغراهم الشيطان وزيُن لهم أعمالهم، فهو محض إغراء، وفي أفضل الأحوال

فإن المُغتر، يصبح مغروراً، وسيواجه بما كان مغروراً به، كما أن المؤمن سينعم بتحقيق وعد الله تعالى له ولا أحد ﴿أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾.

﴿١٢٣﴾

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾

فإن دخول الاسلام وحده لايكفي، لأن ذلك يكون بمثابة الحصول على محصول لم تقم بزرعه، فالاسلام هو عمل، والعمل لايستوي مع الأماني الواهية، فلا يجوز أن تقول بأنني مسلم، ولمجرّد أنني مسلم لن أدخل النار، فما الذي انتهيت منه، وجاهدتَ نفسك كي تنتهي منه حتى يُجنّبك الله النار، ثم ما الذي قدّمته من أعمال صالحة توّجتَ بها إيمانك، حتى يُدخلك الله الجنّة، فذلك لايكون بالأماني سواء بالنسبة للمسلمين، أو لليهود، والنصارى. وقد نزلت هذه الآية في الجدال الذي وقع بين بعض المسلمين وبعض أهل الكتاب، حيث رأى كل طرف بأنه على طريق الجنة، وأن الآخر على طريق النار، وفي ذلك أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى قال: (التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى، فقال اليهود للمسلمين: نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى مثل ذلك، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم؛ ونبينا صلى الله عليه وسلم بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾).

فالأماني تبقى في دائرة الأماني، أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن موقوفًا "ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل" وأخرج البخاري في تاريخه عن أنس مرفوعًا "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب فأما علم القلب فالعلم النافع وعلم اللسان حجة على بني آدم".

ثم قال بصفة عامة: ﴿مَن﴾ مِن المسلمين، أو من أهل الكتاب، أو من دونهم ﴿يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ﴾يقابَل ﴿بِهِ﴾وليس بوسع أحد أن يقف حائلاً بينه وبين أن يُقابَل به ﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ بيد أنه يجد الله ولياً ونصيراً له، فهو القادر على المغفرة، وهو سبحانه وتعالى يشمل بعفوه ومغفرته مَن يشاء. وقد جعلت الآية بعض الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا جزى الله كل مسيء، فمّن لم يفعل سوءاً، فالأمر هنا شمل الناس جميعاً دون استثناء . يقول الإمام أحمد:(حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا إسماعيل، عن أبي بكر بن أبي زهير قال:أخْبِرْتُ أن أبا بكر قال: يا رسول الله، كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾فكُل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " غَفَر اللَّهُ لكَ يا أبا بكر، ألستَ تمْرضُ؟ ألستَ تتصَب؟ ألست تحْزَن؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ " قال:بلى. قال: " فهو ما تجْزَوْنَ به ").

وقد سألته السيدة عائشة أيضاً عن هذه الآية، قال ابن أبي حاتم: (حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن بشير، حدثنا هُشَيْم، عن أبي عامر، عن ابن أبي مُلَيْكة، عن عائشة قالت:قلت:يا رسول الله، إني لأعلم أشد آية في القرآن. فقال: " ما هي يا عائشة "؟ قلت:﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقال: " هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النَكْبَة يَنْكُبها ").

وفي ذلك قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقالت:ما سألني عن هذه الآية أحد منذ سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " يا عائشة، هذه مبايعة الله للعبد، مما يصيبه من الحمى والنَكْبَة والشوكة، حتى البضاعة فيضعها في كُمّه فيفزع لها، فيجدها في جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التِبْرُ الأحمر من الكِير " .

وقال الإمام أحمد:حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَن ليُكَفّرها عنه " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن يزيد بن أبي حبيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الصداع والمليلة بالمرء المسلم حتى يدعه مثل الفضة البيضاء".

وروى أحمد، عن سفيان بن عيينة، ومسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به ورواه ابن مَردُويه من حديث روح ومعتمر كلاهما، عن إبراهيم بن يزيد عن عبد الله بن إبراهيم، سمعت أبا هريرة يقول:(لما نزلت هذه الآية: ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول الله، ما أبقت هذه الآية من شيء. قال: " أما والذي نفسي بيده إنّها لكما نزلت، ولكن أبشروا وقاربوا وسَدِّدوا؛ فإنه لا يصيب أحدًا منكم في الدنيا إلا كفَّر الله بها خطيئته، حتى الشوكة يُشَاكها أحدكم في قدمه ").

﴿١٢٤﴾

﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾

استئناف لـ ﴿**مَن**﴾في الآية السابقة فهناك ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾ ثم استؤنفت الـ ﴿**مَن**﴾ الثانية بـ ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ**﴾ كذلك لم يقتصر الكلام على أحد دون غيره فـ ﴿**مَن**﴾ مِن عامة الناس، ذكورهم وإناثهم، وفي أي زمان ومكان ﴿**يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ**﴾﴿**وَهُوَ مُؤْمِنٌفَأُوْلَـئِكَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾ العمل الصالح المنبثق من قاعدة الإيمان بوحدانية الله تعالى، هو الذي يؤهل ذكور الناس وإناثهم جميعاً، وعلى مختلف مِللهم ونِحَلِهم دخول الجنة ﴿**وَمَن**﴾ - مَن هذه العمومية غير المستثناة- يتحقق فيه ذلك، يعده الله بـ دخول ﴿**الْجَنَّةَ**﴾، وهذا بيان للناس بـ﴿**أَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾آل عمران١٧١ ولايصيب أحداً في عدالة الله مثقال نقير من ظلم.

﴿١٢٥﴾

﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾

فلا يوجد البتة ﴿**مَنْ**﴾ يكون ﴿**أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله**﴾اتخذ من الله وجهة له، فقد أسلم وجهه لِمالِك المُلك متجهاًإليه قلباً وقالباً﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾بتسليم وجهه لله ، إذا يُفعّل فيه تسليم وجهه لله طاقات الإحسان، فقد يكون مسلما وجهه لله، بيد أنه يكون مسيئاً لنفسه

وللناس، ويكون سيّء المعشر، فلم يفعّل تسليم وجهه لله فيه طاقات الإحسان، فيكون إيمانه قولاً بلا فعل، وبالتالي يكون ممن يعتقدون دخولهم الجنة بالأماني، فنصيب الشيطان لايقتصر على ملة دون أخرى، بل يشمل الناس جميعاً سواء أكانوا مسلمين، أو أهل الكتاب، أو غير ذلك. وبالمقابل، فإن الخطاب مفتوح لعموم الناس دون أن يقتصر على قوم، فالتبعية هنا تكون لدين الله الذي هو الاسلام، واتباع ﴿**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾الذي لم يكن﴿**يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً**﴾آل عمران٦٧ وقد أوحى الله لرسوله أن يتبع ملة إبراهيم بقوله ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾النحل١٢٣

فإبراهيم عليه السلام هو الذي اتخذه الله﴿**خَلِيلاً**﴾ وهو إمام الناس:﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾ البقرة ١٢٤

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: (كان إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان، وكان منزله على ظهر الطّريق يضيّف من مرَّ به من الناس، فأصاب الناسَ سَنَةٌ فحُشروا إلى باب إبراهيم عليه السلام يطلبون الطعامَ وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي له بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم عليه السلام إنما يريده لنفسه احتملنا ذلك له، فقد دخل علينا ما دخل على الناس من الشدة، فرجع رُسل إبراهيم عليه السلام، فمرُّوا ببطحاء فقالوا: إنا لو حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة، فإنّا نستحي أن نمرّ بهم وإبلنا فارغة، فملؤوا تلك الغرائر سهلة، ثم أتوا إبراهيم فأعلموه وسارة نائمة، فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه، فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار، فقالت: سبحان الله ما جاء الغلمان؟ قالوا: بلى، قالت: فما جاءوا بشيء؟ قالوا: بلى، فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي أجود دقيق حُواري يكون، فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناسَ فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام، فقال: يا سارة من أين هذا؟ قالت: من عند خليلك المصري، فقال: هذا من عند خليلك الله، قال: فيومئذٍ اتخذه الله خليلا).

﴿١٢٦﴾

﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً**﴾

إن الـذي يـدعوكم إلى صـراطه المسـتقيم، هـو الله الـذي يملـك ﴿مَـا فِـي السَّمَاوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ﴾وهو قادر على التصرّف بملكه، وقادر على فعل ما يشاء جلّت قدرته. ولا شيء يمكن لـه أن يخرج عن إحاطة الله به، وكل شيء يخضع لحيطه، وطوع أمره.

الباب التاسـع عشـر

العقاب والاستيعاب

﴿١٢٧﴾

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾

بعد أن مررنا بكل تلك التفرّعات التي اغتنت بها سورة النساء، وهي تقدّم لنا جوانب الحياة السوية، والحياة غير السوية بالنسبة للناس ذكوراً وإناثاً، نستأنف التوغل في بنية عالم النساء، وما تبقى من مزايا نسائية يُطلعنا الله عليها.

يبدأ هذا الاستئناف بالاستفتاء في شأن النساء، أن تستفتي شخصاً يعني أنك تسأله أن يرى لك مخرجاً في شأن تبتغيه، ففلان يُفتي، يعني أنه يُقدّم لِمَن يستفتيه فتوى تجيز له التصرّف بموجبها، ويتحمّل المفتي مسؤولية فتواه شرعاً وقانوناً. وقد استفتى البعض رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن ما للناس، وما عليهن عند الزواج. يُخبر الله رسوله أن يقول لهم بأن ﴿**اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ**﴾ والله يفتي في النساء على مختلف مستوياتهن، وعلى ما يظهر أن البعض كان بأن البعض كان يريد أن يحرم اليتيمة من حقوقها سواء المالية، أو العينية، سواء بزواجه منها وهو غير راغب فيها، ولكن حتى يحتفظ بها وبما تملك من مال، أو أنه يرغب بالزواج من يتيمة بصداق ناقص نظراً لأنها يتيمة، فبيّن الله تلك الحقوق، كذلك شمل الأمر ﴿**الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ**﴾حيث كانوا يورثون الأكابر، ولايورثون الأصاغر.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جبير قال: (كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ أن يقوم في المال ويعمل فيه ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا، فلما نزلت المواريث في سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا: أيرث الصغير الذي لا يقوم في المال والمرأة التي هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل؟! فرجوا أن يأتي في ذلك حدث من السماء فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتي حدث قالوا لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بدّ، ثم قالوا: سلوا فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية).

﴿١٢٨﴾

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

فإن كانت المرأة تنشز أحياناً على زوجها كما تبيّن لنا سابقاً، ووجه الله الرجل إلى علاج نشوزها، فإن الرجل أيضاً قد يجنح شطر نشوز، وهنا يوجه الله إلى كيفية معالجة المرأة نشوز زوجها، فإن تغالظ عليها زوجها، وتثاقل في الاستجابة لمطالبها، وأعرض عن الحديث معها، وأصبح يستفزّها في كل كبيرة وصغيرة، فيكون العلاج هنا مختلفاً اختلاف الرجل عن المرأة، فهنا توجه المرأة إلى الليونة، والتخفيف، فتعتبر نفسها بأنها في حالة اختبار، وهي بذلك تعطي رسالة لزوجها بأنها تستوعبه في جميع أحواله، وهي تقف إلى جانبه وتسانده، وتخفف عنه، فهناك كان العقاب، وهنا كان الاستيعاب، وقد أدّى العقاب هناك إلى الاستيعاب، وادّى الاستيعاب هنا إلى العقاب. فالرجل قد عاقب المرأة بموجب ما رخّص له الله، كما مر معنا في الآية ٣٤، والآن فإن المرأة تعاقب الرجل بوصفة الاستيعاب، وكما أنه يعاقبها من خلال قوة خشونة الرجولة التي يمتلكها، فإنها تعاقبه من خلال قوة نعومة الأنوثة التي تمتلكها. ومع الأيام، والصبر، والاستيعاب، سيسري مفعول هذه الوصفة الإلهية، وسيشعر الرجل بإثم، ويعود إلى صوابه، وقد يُحسن معاملتها أكثر مما كان، فإذن، النتيجة هي واحدة سواء في العقاب، أو في الاستيعاب، وقد أتت أكلها، واستوت على صلاح أمرهما، فهناك أحسّت المرأة برجولة زوجها، وقوامته عليها، وطبيعة المرأة تريد الرجل القوي المتلئ رجولة، والممارس لقوامته على المرأة، وهنا شمّ الرجل مسك النعومة، ورأى لطافة الاستيعاب، وطبيعة الرجولة تميل إلى المرأة المستوعبة،

المتحمّلة، المهذّبة بعبق نعومة الأنوثة ﴿**فَلاَ جُنَاْحَ**﴾على الزوجين﴿**أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا**﴾ما أفسده سوء الفهم، وسوء الفهم هذا هو مقدّمة للنشوز، فإن النشوز في كلا الحالين لم يقع، فنحن أمام خوف من وقوعه قبل أن يقع، فهناك قال: ﴿**وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ**﴾ وهنا قال:﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً**﴾فهذا كله تجنباً لوقوع حالة النشوز الذي بدأت بوادره في الظهور، مما أدى إلى الخوف من وقوعه، والخطاب موجه لكليهما كي يتجاوزا سوء الفهم الذي نشب بينهما، ولايجوز أن تتجنب المرأة معالجة بوادر نشوز زوجها، لأن ذلك من شأنه أن يؤدّي إلى التصعيد، ثم إلى وقوع حالة النشوز، حيث سيشعر الرجل بأنها تتجاهله، ولاتوليه أهمية، وكأنه لايعنيها بشيء، فحتى تبقى العلاقة الزوجية في حيميتها، عليها أن تتبع هذه الوصفة الربانية بما ملّكها الله من قدرات، وهذا من شأنه أن يجعل الرجل يشعر بقيمة امرأة مهذّبة كهذه رغم تماديه عليها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (جلست إحدى عشرة امرأة، فتعاهدْنَ وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جَملٍ غَثّ، على رأس جبل وعر، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فينتقل.

قالت الثانية: زوجي لا أثير خبره، إني أخاف أن لا أذَرَهُ، إن أذكره أذكرْ عُجَره وبُجَره.

قالت الثالثة: زوجي العَشَنَق، إن أنْطِقْ أُطلَّق، وإن أسكت أُعَلَّق.

قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تهامة، لا حرّ ولا قرّ، ولا مخافة ولا سآمة.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهِدَ، وإن خرج أسَدَ، ولا يسأل عما عَهِدَ.

قالت السادسة: زوجي إن أكل لَف، وإن شَرِبَ اشْتفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولجُ الكفَّ لِيَعلمَ البَثَّ.

قالت السابعة: زوجي عَياياءُ - أو غياياءُ- طباقاء، كلُ داءٍ له داء، شَجَّكِ أو فلَّكِ، أو جمع كُلاً لَكِ.

قالت الثامنة: زوجي المسُ مسُ أرنب، والريح ريح زَرْنَبْ.

قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العماد، طويل النّجاد، عظيمُ الرِّماد، قريبُ البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجي مالكٌ، وما مالِك؟ مالكٌ خير من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المِزْهَر أيقنَّ أنهنَّ هَوالك.

قالت الحادية عشرة : زوجي أبـو زَرْع، ومـا أبـو زَرْعٍ؟ أنـاسَ مـن حُلـيِّ أُذُنَـيَّ، ومـلأ مـن شَـحْمٍ عَضُـديَّ، وبَجَّحَـني فبَجَحْتُ إلـيَّ نفسـي، وجـدني في أهـل غُنيمـةٍ بِشَـقٍ، فجعلـني في أهـل صَـهيلٍ وأطيطٍ، ودائِسٍ ومُنَقّ، فعنده أقولُ فلا أُقبَّحُ، وأرقدُ فأتصبّحُ، وأشـربُ فـأتقمَّحُ، أم أبـي زرع فمـا أمُّ أبـي زرع؟: عُكومُهـا رَدَاحٌ، وبيتهـا فسَـاح، ابـن أبـي زرع فمـا ابـن أبـي زرع؟: مضـجعه كمسـلِّ شَطْبةٍ، وتشْبعُهُ ذِراع الجَفرَةِ، بنت أبي زرع: فما بنت أبـي زرع؟ طَـوع أبيهـا وطَـوع أمهـا، ومـلءُ كسائها، وغَيظُ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟: لا تبثُّ حديثنا تبثيثـاً، ولا تنقُـثُ ميرتنا تنقيثاً، ولا تملأُ بيتنا تعشيشاً.

قالت خرج أبو زرع والأوطاب تمْخَضُ، فلقي امرأةً معها ولدان لها كالفهدين، يلعبـان مـن تحـت خَصْرها برمَّانتين، فطلَّقني ونكحها، فنكحْتُ بعده رجلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَـرياً، وأخـذ خَطِيَّـاً، وأراح عليَّ نَعَماً ثرِياً، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجاً، وقال: كلي أم زرع ، وميري أهلك، فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بَلَغ أصغر آنية أبي زرع)[٣١]

ثـم أن ﴿يُصلِحَا﴾ تعـني أن يتعاونـا في الإصـلاح، والرجـل هنـا أيضـاً هـو معـني بالاسـتجابة لاسـتيعاب زوجتـه لـه، وألاّ يتمـادى في التصـعيد دون وجـه حـق، فهـي قـد هيـأت لـه أسـباب الاستجابة ، ووفرت له عوامل الهدوء، وخففت عليه من متطلباتها ﴿وَالصُّلْحُ ﴾ فيـه﴿ خَيْرٌ﴾ أكثـر مـن التصـعيد الـذي قـد يـؤدّي إلى الفـراق، فعليهمـا التغلـب علـى﴿الشُّحَّ﴾الـذي أُحْضِرَتِ الأَنفُسُ﴾فـألا تكون المـرأة شـحيحة في تنازلهـا عـن بعـض حقوقهـا علـى زوجهـا خـلال مرحلـة

[٣١] الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل برقم (٤٨٩٣)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة – رضي الله عنهم – باب ذكر حديث أم زرع برقم (٢٤٤٨)، وأخرجه النسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء باب شكر المرأة لزوجها برقم (٩١٣٨)، وأخرجه ابـن حبـان برقم (٧١٠٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢٦٥)(٥/٣٥٤).

وأما شراح الحديث فقد قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – في الفتحوقد شرح حديث أم زرع إسماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري، روينا ذلـك في جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ من روايته عنه، وأبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلم لا يحفظ عـددهم، وتعقب عليه فيه مواضع، وأبو سعيد الضرير النيسابوري، وأبو محمد بن قتيبة كل منهما في تأليف مفرد،والخطابي في شرح البخاري، وثابت بن قاسم، وشرحه أيضا الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر بن الأنباري، ثم إسحاق الكاذي في جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقـوب بـن السكيت وعن أبي عبيدة وعن غيرهما، ثم أبو القاسم عبد الحكيم بن حبان المصري، ثـم الزمخشـري في الفـائق، ثـم القاضـي عيـاض وهـو أجمعهـا وأوسعهاوأخذ منه غالب الشراح بعده، وقد لخصت جميع ما ذكروه.

وحكى عياض، ثم النووي، قول الخطيب في المبهمات: "لا أعلم أحداً سمى النسوة المذكورات في حديث أم زرع إلا من الطريـق الـذي أذكـره وهـو غريب جداً، ثم ساقه من طريق الزبير بن بكار،قال ابن حجر: قلت: وقد ساقه أيضاً أبو القاسم عبد الحكيم المذكور من الطريق المرسلة، فإنه ساقه من طريق الزبير بن بكار بسنده ثم ساقه من الطريق المرسلة،وقال النووي: وفيه أن الثانية اسمها عمرة بنت عمرو، واسم الثالثة حبى بنت نعب، والرابعـة مهدد بنت أبي مرزمة، والخامسة كبشة، والسادسة هند، والسابعة حبى بنت علقمة، والثامنة بنـت أوس بـن عبـد، والعاشـرة كبشـة بنـت الأرقـم، والحادية عشر أم زرع بنت أكهل بن ساعد .

الاضـطراب هـذه سـواء في الفـراش، أو في الاسـتلطاف، أو في الانفـاق، أو في بعـض العلاقـات الاجتماعية، كما أن الرجل عليه ألاّ يكون شحيحاًفي الاستجابة لمرونة زوجته معه، فإن أحسنتم واتقيتم الله، اعلموا بأن ﴿اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

﴿١٢٩﴾

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

العدل هو التساوي، فإن وقفتَ إزاء امرأتين متساويتين بالنسبة لمشاعرك نحوهما، فيمكنك أن تستغني عن إحداهن، لأنها لاتمتلك شيئاً تفتقده الأخرى، ولا تتميّز بميزة عن الأخرى، فما دام الرجل يتزوّج بامرأة ثانية ، فهو يرى فيها ما لا يراه في زوجته الأولى، وهي تحرّك فيه ما لا تحرّكه الأولى، وبالتالي فهو يميل إليها بما لا يميل إلى الأولى، وهذا هو دافع زواجه منها، كونها تحقق له ما لا تحققه زوجته الأولى، ويجد لديها يفتقده لدى زوجته الأولى، فلا يوجد زواج للزواج فحسب، بل الزواج هو صفحة حياة جديدة في حياة الرجل، وعندما يجنح الرجل إلى فكرة زوجة ثانية، فإنه يفتح صفحة جديدة في حياته، ليستمتع بها، ويقطف ثماراً جديدة من شجرة هذا الزواج، هذه الثمار التي لا تثمرها شجرة زواجه الأول، فهو إذن، يُناشد في هذه المرأة التي تزوّجها آفاق حياة جديدة. فإذا كان الأمر كذلك، ووقع هذا الزواج: ﴿لَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ﴾في مشاعركم﴿بَيْنَ النِّسَاء﴾مهما﴿حَرَصْتُمْ﴾ على العدل لأن العدل إن تحقق في كل شيء، حتى في ميلكم ومشاعركم نحوهما، ما كان للزواج الثاني أن يكون، فلا بأس، وقد أجاز الله لك ذلك، لكن على ألاّ﴿تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ﴾وألاّ يؤدّي اللاعدل إلى الإفراط، فإن لم تملك ما تعدل به مثل الحب، وبعض المشاعر، فعليك أن تعدل فيما تملك مثل حسن التعامل، وإعطاء الحقوق، والكلم الطيب، اعدلوا فيما تستطيعون أن تعدلوا به وتمتلكون زمام أن تعدلوا به، فإنكم وإن لم تستطيعوا إلاّ أن تميلوا شيئاً، فتستطيعون ألاّ﴿تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ﴾وهذا نوع من التعويض للزوجة الأولى، فإن لم يستطع أن يعطيها شيئاً لا يملكه، عوضها بأن أزاد لها فيما يملك، ولعله بذلك يسترضيها، ويُجبر في خاطرها، فعليه ألاّ يـ ﴿ذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فتكون زوجة، وبذات الوقت ليست زوجة، لأن زوجة أخرى قد جاءت وحلّت مكانها، وبقيت هي في

الهامش مذروة من بيتها وزوجها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ بين الزواج واللازواج لأن زوجها قد هجرها تماماً، ولاتكاد تراه، أو تحصّل منه حقاً من حقوقها الزوجية، فهي لبثتْ بين بين ليست مطلّقة كي تتصرف على أنها مُطلّقة، وهي بحكم غير المتزوّجة لأن زوجها لايقوم بأي واجب زوجي تجاهها، وقد سلاها تماماً، فإن الله لايجيز للرجل أن يستمرّ في تسبب هذه المعاناة لزوجته، فإن بدر منه شيء كهذا لوقت ما بحق زوجته الأولى، فعليه أن يُصلح في شأنه معها و أن يكف عن ميله﴿كُلَّ الْمَيْلِ ﴾إلى زوجته الثانية ، وعن زوجته الأولى، ويعود إلى جادة الصواب، ويتقي الله﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

﴿١٣٠﴾

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾

لكن لعلهما يبلغان مرحلة لم تعد فيها الحياة الزوجية ممكنة بينهما، سواء في حالة الآية السابقة عند زواج الرجل، أو في حالة الآية التي سبقتها عند بوادر النشوز من الرجل، فلم تنفع مع الرجل كل ما قدّمته المرأة له وهي تمتص احتقانه، وتستوعب ما يبدر منه في اعتدائه عليها حتى تحافظ على حياتها الزوجية، فلعلّه يمرّ بأزمة ما، وسيعود إلى رشده، بيد أنه يزداد حدّة في تعامله معها، وتماديه عليها بدرجة يمسي فيها كائناً لايُمكن احتماله بأي حال من الأحوال، فيكون قد طغى، وخرج عن المقاييس والقيم الإنسانية معها، ثم أن الحياة بينهما لم تعد تطاق، فإن الله لايضيّق على أحد، ولايفرض أحداً على أحد، وقبل أن يُفسدا كل هذه العلاقة الزوجية بينهما، فيمكن أن **يَتَفَرَّقَا** بمعروف، كما تزوّجا بمعروف، فلهما أن يفترقا أمام دون أن يفرض عليهما أحد أن يبقيا معاً، كما تزوجا، ولم يفرض عليهما أحد أن يتزوجا. وفي ذلك يجدا عند الله سعة يجعل بها كل واحد مستغنياً عن الآخر، ويعيش في غنى عن الآخر، فالله يغنيهما **مِّن سَعَتِهِ** هذه هي مقوّمات الحرية التي شاءها الله فضلاً منه للإنسان، وأراد الله أن يستمتع الإنسان بممارسة هذه الحرية الشخصية.

الباب العشـــرون
مالك السموات والأرض

﴿١٣١﴾

﴿وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾

يبيّن الله للإنسان بأن كل ما في السماء والأرض، إنما هو ملك لله، وهو يتصرّف بما يشاء، وفقما يشاء، فهو تصرّف المالك المطلق بملكه المطلق، ثم أن وصية الله للإنسان، سابقاً ولا حقاً وحتى يظفر برضى ومكرمات الله، عليه أن يتقيه، وإن تجنّب الانسان تقوى الله، وجنح إلى الكفر، فإنه لايضر الله شيئاً، بل يضر نفسه لأنه يحرمها من رضى ومكرمات الله الذي بيده زمام الأمور كلها. وفي الحديث القدسي :"يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، ولو قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئا "

ثم قال: ﴿**وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً**﴾ سواء اتقيتم، أم لم تتقوا، ومن معالم غناه أن جميع خلقه دون استثناء يفتقرون إليه في حوائجهم، ولا أحد سواه يُغنيهم﴿**حَمِيداً**﴾ الحميد هو الذي له الحمد، فلله الحمد، المحمود على كل ما قدّر. يقول الزجاج:(الْغَنِيّ وَهُوَ الْغَنِيّ والمستغني عَن الْخلق بقدرته وَعز سُلْطَانه والخلق فُقَرَاء إِلَى تطوله وإحسانه كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء**﴾ محمد ٣٨، الحميد هُوَ فعيل فِي معنى مفعول وَالله تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُود بِكُل لِسَان وعَلى

كـل حَـال كَمَـا يُقَـال فِـي الـدُّعَاء الْحَمـد لله الَّـذِي لَـا يحمـد علـى الْـأَحْوَال كلـهَا سـواهُ).

﴿١٣٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾

مع هاتين الآيتين يذكر الله ثلاث مرات بأن له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾وهذه تذكرة للإنسان كي يتمعّن، ويفقه مقدرة الله على فعل كل شيء، وأن لاشيء على الاطلاق يخرج عن ملكية الله له، وبذلك، فهو جلّت قدرته ﴿كَفَى﴾به ﴿وَكِيلاً﴾

﴿١٣٣﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾

﴿وَ﴾ بناءً على ما له ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ومقدرته على التصرّف بما يملك، فهو ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾من الوجود﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ولايضره ذلك بشيء لأنه قادر أن﴿يَأْتِ بِآخَرِينَ﴾سواء أكانوا من أبناء آدم، أو خلقاً آخر يخلقهم الله، ويملّكهم الأرض بدلاً عنكم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾فهو قادرعلى ذلك ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ★وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾إبراهيم١٩، ٢٠ .

﴿١٣٤﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾

﴿وَ﴾ لأن ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فإن ثوابه لايقتصر على الدنيا فحسب، وليعلم الذي يريد ثواب الدنيا بأن ﴿عِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، فهو يثيبه في الدنيا من المنافع، ولكن لأنه أراد ثواب الدنيا فحسب، فإن الله لايثيبه في الآخرة، ولعلها للنفعيين الدنيويين الذين يبتغون منافع الدنيا فحسب، وليعلم هؤلاء كما أن ﴿عِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾فإن عنده كذلك ﴿ثَوَابُ﴾﴿ الآخِرَةِ﴾واللهسميع بما يقول الناس، بصير بما

يعملون:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ★ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هود ١٥، ١٦ وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ الشورى٢٠ .

﴿١٣٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

يأمر الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أن يقوموا بالعدل، وعندما يقدّم أحد شهادة، فتكون شهادته ﴿لِلَّهِ﴾ لا لأي دوافع وغايات، فعند ذاك تكون الشهادة عادلة، لأنك عندما تشهد﴿لِلَّهِ﴾فستقول الحق، فحتى تنطق الحق ، يأمرك الله أن تكون شهادتك ﴿لِلَّهِ﴾فحسب ولو كانت على نفسك، أو على أبوَيك، أو على أقربيك، فحتى لو جلب قول الحق بعض الضر سواء عليك، أو عليهم، فإن ما ينجم من ضر جراء العدل، هو خير مما ينجم من نفع جراء اللاعدل في سبيل اتباع الهوى. ثم وإن كان الذي عليه الحق غنياً، فلا يجعلك ذلك مائلاً إليه دون حق، طمعاً في غناه، أوكان فقيراً كذلك، فلايجعلك ذلك مائلاً إلى ترجيح كفته دون حق، شفقة بفقره ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ وهذا ليس شأنك، وما هو شأنك، أن تشهد ﴿لِلَّهِ﴾ بالحق الذي تعلمه دون أن تخفي شيئاً لأحد، أو تزيد شيئاً على أحد﴿وَإِن تَلْوُوا ﴾تتثاقل أو تميل إلى اعوجاج فيما تملك من شهادة ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾تمتنع عن أدائها، فاعلم بأنك وإن ضمرت ما ضمرت عن الناس﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ بعملك﴿خَبِيراً﴾.

﴿١٣٦﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾

كذلك يأمر﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ أن ينالوا كمال الإيمان، وألاّ يكون إيمانهم ناقصاً، وأن تؤمن بالله إيماناً كاملاً، ذلك يعني أن تؤمن بتبعات إيمانك بالله، هذه التبعات التي بيّنها لك، فإن كفر شخص برسل من رسل الله، أو بما بيّنه في أركان الإيمان، فلا يكون على إيمان كامل، فقال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ليكن إيمانكم كاملاً و﴿آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ولعل المعنى أن الذي يكفر بركن، يكون قد كفر بالكل، لأن الركن هو جزء لايتجزأ من تفرعات الأصل، فالإيمان هو منهج متكامل، ومتداخل مع نسيج بعضه البعض، وأي اجتزاء من ركن من أركانه، يؤدّي إلى خلل في الكل، فكان التحذير الإلهي:﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾و لم يؤمن بها جميعاً﴿فَقَدْ ﴾بعد بضلاله عن الهدى﴿ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾

الباب الواحد والعشرون

ظلمة التذبذب

﴿١٣٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾

فلعل الإنسان يؤمن، ثم يكفر، ثم يندم على كفره، ويتوب إلى الله، ويثبت في الإيمان، ويصلح من شأن نفسه، ويسلك في حياته سلوك الصالحين، ويندم على ما بدر منه من كفر، فإن الله غفور رحيم، ويغفر لمن يشاء، فلم يقف الله عند تكرار الإيمان، والكفر﴿آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْثُمَّ آمَنُواْ ﴾بل وبعد إيمانهم، كذلك ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ﴾لم يعودوا إلى الإيمان ويزدادوا إيماناً، بل هذه المرةثبتوا بأن﴿ ازْدَادُواْ كُفْراً﴾ فقد انتهوا إلى الكفر وزادوا في كفرهم عمّا كانوا عليه، فرجحن كفة الكفر في موازينهم على كفة الإيمان، ورجح الفساد فيهم على الصلاح، فهؤلاء هم﴿الَّذِينَ﴾﴿لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ذلك أنهم ازدادوا كفراً بعد أن أنعم عليهم الله بنعمة الإيمان.

﴿١٣٨﴾

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾

بشارة الإنسان للإنسان تختلف عن بشارة الله للإنسان، كون بشارة الإنسان للإنسان لاتكون إلاّ لأمر قد وقع بالفعل، وما دون ذلك يكون من باب التكهّن، والظن، والاعتقاد، ولايأتي عليه معنى البشارة، فتبشّر شخصاً بأمر قد وقع بالفعل، وتزف إليه نبأ وقوعه، بيد أن بشارة الله لإنسان، تكون في شيء سيقع، والسبب أن الإنسان لايستطيع أن يُبشّر بشيء سيقع، لأنه قد لايقع، مهما تمتع وقوعه بدرجات عالية، في حين أن قول الله هو فعل، ولاشيء يمكنه أن يحول بينه وبين لاوقوعه، فمادام قد قال الله شيئاً، فهو واقع لامحالة، ولذلك يكون قول الله بشارة فعندما يقول: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾مريم٧ فذلك يعني بأنه سيحدث، ولا يمكن له ألاّ يحدث بأي حال من الأحوال، فقد تولى الله تعالى حتى تسميته، كما الأمر بالنسبة لقوله: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ آل عمران ٤٥ .

يلقى المنافق جرّاء إظهار الإسلام نفاقاً، وهو في حقيقته كافر، العذاب الأليم، يقول الله لرسوله: يا محمّد بشّرهم بأنهم سيلقون ﴿**عَذَاباً أَلِيماً**﴾ وفي ذلك تحذير لهم كي يقوا أنفسهم من العذاب الأليم ولايكونوا مُبَشَّرين به، بل يؤمنوا ويصلحوا ويجعلوا من أنفسهم مُبَشَّرين بالأجر الكبير ﴿**وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾الإسراء٩، فبشرهم يامحمّد حتى يتجنبوا أن يكونوا مُبَشَّرين بالعذاب الأليم، ويكونوا مُبشَرين بالأجر العظيم.

﴿١٣٩﴾

﴿**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً**﴾

ثم يقول الله لرسوله أن يُخبر المنافقين بأنهم لن يجدوا عند الكافرين ﴿**الْعِزَّةَ**﴾نتيجة اتخاذهم لهم﴿**أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ لأنهم يفتقدون إليها، وليس بوسعهم أن يعطوا شيئاً يفتقدونه، لأن: ﴿**الْعِزَّةَ لِلّهِ**﴾وقد حسم أمرها ودرجاتها﴿**جَمِيعاً**﴾فلا أحد يمكنه أن يعز أحداً لاقليلاً، ولاكثيراً، ذلك أن ﴿**الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً**﴾ يعز مَن يشاء، ويُذل مَن يشاء.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾

أمركم الله ألاّ تخوضوا مع الخائضين في كفرهم بآيات الله والاستهزاء بها، وألاّ تقاعدونهم في المقاعد حتى ينصرفوا - بانصرافكم عنهم -﴿فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وإن قاعدتموهم، و وخضتم معهم في خوضهم، فذلك يعني بأنكم تكونوا محرّضين لهم كي يستمرّوا في كفرهم واستهزائهم بـ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ولعل ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾لاتكون مقتصرة على القرآن فحسب، بل إلى آياته في الانسان، والحيوان، والطبيعة، وسائر خلقه سبحانه. ﴿إِنَّكُمْ﴾عندذاك في حال قعودكم ﴿مَعَهُمْ﴾ تكونون﴿إِذاً مِّثْلُهُمْ﴾ فلم يعد بينكم وبينهم خلاف، فأصبحتم منهم وبالتالي يأتي عليكم ما يأتي عليهم من العقاب، والله جامعكم ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾

﴿١٤١﴾

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾

هؤلاء الذين يتتبعونكم، ساعة بساعة **فإن** وجدوا خيراً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾أصابكم ﴿قَالُوا﴾لكم بأنهم كانوا ﴿مَّعَكُمْ﴾ حتى يصبحوا شركاء في الخير الذي فتحه الله عليكم، ونظير ذلك **إن** رأوا عند الـ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ نصيباً من الخير، طلبوا أن يشاركوهم فيه وهم يقولون لهم﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إن الله هو الذي يظهر الحقائق، وعلى هذه الحقائق يكون حكمه ﴿بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾واعلموا أن الله يحمي المؤمنين﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾.

﴿١٤٣﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾

﴿إِنَّ﴾سرى نفاق المنافقين على الناس، وتمكّنوا من مخادعتهم بالإيمان، فإنهم يقفون دون خداع الله، لأن الله يعلم بنزوعات نفاقهم، وبالتالي فإن نفاقهم يكون مردوداً عليهم، فيكون الله ﴿خَادِعُهُمْ﴾بأن يجعلهم يتلقون نفاقهم، فيكنوا - والحال هذه - بنفاقهم مع الله قد نافقوا أنفسهم، عندما ظنّوا أن نفاقهم سيروج على الله كما راج على الناس، ومن ذلك أنهم يوم القيامة، يُعطون نوراً كما يُعطى المؤمنون كي يمشوا به، فيمضون بنورهم مع المؤمنين حتى إذا انتهوا إلى الصراط، عندذاك يُطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، وعندما يستكمل المؤمنون، ﴿ **يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ★ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ** ﴾الحديد١٣،١٤وهذه هي الحقيقة التي يُواجّهون بها، فقد كانوا مع المؤمنين ظاهراً، لكنهم لم يكونوا معهم باطناً، ولذلك يجعلهم الله حتى في الآخرة يمضون مع المؤمنين، لكن عندما يبلغ المؤمنون ما وعدهم الله من النعيم، يبقى المنافقون دونهم لأنهم لم يكونوا مؤمنين سوى بالظاهر، فها قد رُدّ خِداعهم عليهم، فقد اعتقدوا بأنهم خادعوا الله أيضاً عندما أُعطوا نوراً كنور المؤمنين، ومضوا معهم ظاهراً كما كانوا يمضون في الدنيا، بيد أن نورهم أُطفئ دون المؤمنين.

يذكر الله بأنهم عندما يحين وقت الصلاة، يتكاسلون في القيام إليها، وما ذلك إلاّ لأنهم يريدون أن يُظاهروا المؤمنين بأنهم مثلهم يُصلّون، وهذا متناقض مع عدم يقينهم بالصلاة، فهم ﴿ **لاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ولذلك يكون منهم التكاسل.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾

جعل المنافقون أنفسهم في حالة من التذبذب، يتذبذبون بين أن يكونوا مع ﴿هَؤُلاء﴾وأن يكونوا مع ﴿هَؤُلاء﴾ ثم أنهم ﴿لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء﴾ فلاموقف لهم وهم يعيشون في الضلال﴿وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ مخرجاً.

﴿١٤٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾

المؤمنون هم أولى أن يتولى بعضهم بعضاً، ويراعي بعضهم مصالح بعض، ويأمر الله المؤمنين بألاّ يـ ﴿تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الكافر يمضي بالمؤمن إلى الضلال، وليس إلى الهدى، لأن فالإنسان يعطي ما لديه، وليس ما يفقد، فليس بوسعهم أن يمضوا بالمؤمنين إلى الهدى لأنهم ليسوا على هدى، بل يمضوا بالمؤمنين إلى الضلال لأنهم على ضلال. في حين أن المؤمن يمضي بالمؤمنين وبغيرهم إلى الهدى، لأنه على هدى. فإذا فعلتم ذلك، فقد جعلتم ﴿لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾وهذا من باب الوعيد في حال وقوع الأمر.

﴿١٤٥﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾

ذلك عندما يمضي المؤمنون إلى درجات الجنة، فإن ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ يمضون إلى﴿الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ فقد أعدّ الله لهم ذاك ﴿الدَّرْكِ﴾ ليكونوا فيه، ولن يكون بوسع أحد أن يكون﴿لَهُمْ نَصِيراً﴾، وهذا بيان من الله بأن النار دركات، كما أن الجنة درجات. فكما أن المؤمنين يرتقون في درجات الجنة، فإن الكفّار ينحدرون في دركات النار، ويكون المنافقون في أسفل دركاتها.

﴿١٤٦﴾

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾

يستثني الله ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ﴾ وازدادوا إيماناً، ولم يبقوا ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء﴾ وقد ﴿تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ﴾، فهؤلاء استثناهم الله بعفوه ومغفرته رغم كل ما بدر منهم ذلك أنهم انتهوا إلى المحجة البيضاء، وقد جعلهم الله ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾الذين سوف يؤتهم الله﴿أَجْراً عَظِيماً﴾.

﴿١٤٧﴾

﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾

يريد الله أن تتعرضوا لعفوه، لا أن تتعرضوا لعقابه، يريدكم أن تكونوا على صلاح، لا أن تكونوا على فساد، يريد أن تشكروه على نِعَمه عليكم، لا أن تجحدوا هذه النِعم، ولذلك كل هذه الآيات التي تبيّن لكم ﴿الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة ٢٥٦ فإن اتبعتم الهدى، وشكرتم: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ وهو الغني عن عذابكم، فـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾التحريم٦ .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (في سورة النساء ثماني آيات لأمة محمد هي خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب: الأولى قول الحق: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والثانية هي قول الحق: ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾

والثالثة هي قول الحق: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفاً﴾﴿النساء: ٢٨﴾.
والرابعة هي قول الحق: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ والخامسة هي قول الحق: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾
والسادسة هي قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

والسابعة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾. ﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾).

ثم أن الله يشكر الإنسان على طاعته، فقال في ختام الآية: ﴿وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ فهذا شكر من الله للإنسان على استجابته، رغم أن هذه الاستجابة هي منفعة للإنسان في الدنيا والآخرة، وأن عدم الاستجابة مضرة له في الدنيا والآخرة، وبذلك فإن إرادة الله تكمن في هداية الإنسان، لا في ضلاله.

من جهة أخرى، فهذا بيان من الله بأنه لايعذب الإنسان إن شكر وآمن ، فـ ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ﴾﴿إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ أيها الناس، يشكركم الله على شكركم له، وإيمانكم به. وعلى هذا النحو يبلغ المرء مراتب من الطاعة، والشكر، والإيمان يشكره الله فيها.

يقول الزجاج:(وأصل الشُّكْر فِي الْكَلَام الظُّهُور وَمِنْه يُقَال شكِرت النبت وشكر الضَّرع إِذا امْتَلَأ وامتلاؤه ظُهُوره، وَيُقَال دَابَّة شكور وَهُوَ السَّرِيع السّمن فسرعة سمنه ظُهُور أثر صَاحبه عَلَيْهِفَكَأن الشُّكْر من الله تعَالَى هُوَ إِثَابته الشاكر على شكره فجعل ثَوَابه للشكر وقبوله للطاعة شكرا على طَرِيقَة الْمُقَابلَة).

الباب الثانـي والعشرون
وحــدة الإيمان

﴿١٤٨﴾

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾

أن تجهر بشيء، يعني أنك تعلنه، وقد جاء ﴿الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾ عاماً ليشمل كل ما مـن شأنه أن يُظهر عملاً سيئاً من سرّيته إلى العلانية. يمكن أن يكون ذلك مع نفسك، فهنا عليك ألاّ تجهر بالسوء الذي ارتكبته بحق نفسك، ويمكن أن يكون منك بحق شخص آخر، وهنا أيضاً عليك أن تخفي ما بدر منك من سوء بحق ذاك الشخص سواء أعلِم ذاك الشخص أم لم يعلم، فلا تجهر بأنك أسأت إلى ذاك الشخص، حتى لو كان مستحقاً لِما بدر منك تجاهه، مثل توبيخك له كونه أساء إليك، كما أنه يمكن أن يكون من خلال شخص أساء إلى نفسه، وقد اطلعتَ على ذلك، أو من خلال شخص أساء إليك، فهذا كله يمكن أن يتضمنه ﴿الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾ الذي لايحبه الله. روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لايستر عبدٌ عبداً في الدنيا ، إلاّ ستره الله يوم القيامة".

في معجم مقاييس اللغة:(الجيم والهاء والراء أصلٌ واحد، وهو إعلان الشَّيء وكَشْفُه وعُلُوّه. يقال جهَرْتُ بالكلام أعلنتُ به).

وفي لسان العرب:(الجَهْرَةُ: ما ظَهَر، ورآه جَهْرَةً: لم يكن بينهما سِترٌ؛ ورأيته جَهْرَةً وكلمته جَهْرَةً

يقال: جهَرْتُ الشيء إذا كشفته).

إن ارتكب شخص سوءاً، فعليه أن يستر نفسه فيه، لأن﴿الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ﴾ من شأنه أن يوسّع دائرة السوء في الناس، فإن جنح الإنسان إلى معصية، عليه أن يُبقيها بينه وبين نفسه، وأن

يتوب إلى ربه، فلعل الجهر بتلك المعصية تكون دافعاً لشخص آخر أن يرتكبها، لكن لو تعرّض شخص لوقوع ظلم بحقه مِن قبل شخص آخر، فعليه أن يجهر بما وقع عليه، حتى يردّ الظلم عن نفسه، ويردع الظالم عن ظلمه، لأن السكوت عن ﴿**الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ**﴾في هذه الحال يكون بمثابة قبول الظلم، ثم أنه يكون بمثابة التشجيع للظالم كي يزيد في ظلمه، وكذلك يظلم آخرين ما دام المظلوم يسكت عن ﴿**الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ**﴾، فقال الله جل ثناؤه مستثنياً﴿**إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾ ومادام أن الله ﴿**لاَّ يُحِبُّ**﴾ في الحالة الأولى، فنرى بأنه ﴿**يُحِبُّ**﴾في الحالة الثانية، ﴿**وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً**﴾يسمع أقوالكم﴿**عَلِيماً**﴾يعلم نواياكم. والله أعلم.

﴿١٤٩﴾

﴿**إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً**﴾

لكن هناك استثناءات من ﴿**الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ**﴾ بالنسبة للذي وقعت عليه مظلمة، فلعلّ المسيء يندم على فعله، ثم يتوسل إليه ألاّ يجهر به فيفضحه، وهو الآن يعترف بتجاوزه، ويستعدّ أن يُعيد إليه حقه، فهنا يوجّه الله تعالى بأن العفو خير من ﴿**الْجَهْرَ**﴾ لأن ﴿**الْجَهْرَ**﴾ في هذه الحالة قد يكون سبباً في مزيد من السوء بالنسبة للمسيء الذي أخطأ، وتاب عن ذلك وطلب من المُساء إليه أن يستره، فلعل الستر يكون له معيناً على كف الإساءة إلى الآخرين. فإن قمت بعمل خير سواء بالقول، أو بالعمل، سواء أبديته، أو أخفيته، أو عفوتَ ﴿**عَن سُوَءٍ**﴾ بعدم جهرك به،﴿**فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً**﴾ وهذا إشارة بأن الإنسان الذي يحتاج إلى عفو الله، عليه أن يتذكّر ذلك عندما يطلب الآخرون منه العفو عن سوء بدر منهم تجاهه، فذكر الله إسمَيه الحُسنيَين، وفيهما العفو مع القدرة على العقاب.

﴿١٥٠﴾

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾

الذين لايؤمنون بوحدانية الله، ولا برسله جميعاً، وهم بذلك: ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾يجعلوا تفرقة ﴿بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾فيؤمنوا﴿ببَعْضٍ﴾ من رسله، ولايؤمنوا﴿ببَعْضٍ﴾كما الأمر بالنسبة لبعض أهل الكتاب وهم بذلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ﴾الإيمان بالبعض، والكفر بالبعض﴿سَبِيلاً﴾طريقاً.

﴿١٥١﴾

﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾

يبيّن الله بأن سبيل ﴿أُوْلَـئِكَ﴾إنما هو سبيل الكفر ﴿حَقّاً﴾ ولا ينفعهم إيمانهم ببعض، لأن كفرهم بالبعض الآخر أتى على إيمانهم الذي يبتغون من خلاله تفرقة﴿بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾، فلا سبيل بين الكفر والإيمان، فإما إيمان، وإمّا كفر. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾. فهؤلاء أرادوا الإساءة إلى بعض رسل الله، حيث أنكروهم، ﴿وَ﴾ نظير ذلك، ﴿أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴾.

﴿١٥٢﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

ثم يبيّن الله الإيمان المتكامل، وأن الذي يتبعه يكون على الصراط المستقيم﴿أُوْلَـئِكَ﴾الذين آمنوا بوحدانية الله الذي لاشريك له، وآمنوا بجميع رسله، دون تفريق بينهم، كون جميعهم يشتركون بأنهم رسل الله إلى الناس لهدايتهم ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾يغفر لهم ذنوبهم برحمته.

﴿١٥٣﴾

﴿يَسأَلُكَ أَهلُ الكِتابِ أَن تنَزّلَ عَلَيهِمْ كِتاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾

هنا تفريق بين الذي يريد أن يؤمن، وبين مَن يتعنّت، فالذي يريد الإيمان، يجد السبيل إليه، أمّا الذي يتعنّت، فيبقى في تعنّته، وكلّما استجيب لمطلب له، فهو يطلب آمراً آخر، كونه في الأصل يتمادى في مطالبه، فاليهود هنا لايعجبهم كل الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولايريدون أن يؤمنوا بالقرآن، بل يسألوا الرسول أن يُنزّل ﴿عَلَيهِمْ كِتاباً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فإذن هم يريدون ﴿كِتاباً﴾ خاصاً بهم ، أن يتم توجيه الكتاب﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إليهم، وهذا ينافي خصوصية نزول القرآن الذي من خصائصه أنه ينزل آية، آية، وسنة بعد سنة، ولاينزل جملة واحدة كاملاً في وقت واحد كما الأمر بالنسبة للتوراة والإنجيل. يُخبر الله رسوله بأن اليهود ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ﴾ ولعل في ذلك تنبيه بأنه حتى لو أُستجيب لمطلبهم، سوف يتمادوا أكثر في تعنّتهم، فيقولوا: ﴿أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً﴾ كما قالوا لموسى، لأنه حمل إليهم﴿كِتاباً﴾ في جملة واحدة كما هم يطلبون منك الآن، ﴿فَقَالُواْ﴾ له﴿أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً﴾ نراه رأي العين، ﴿فَأَخَذَتهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ فبعد أن جاءهم كتاب الله يدعوهم إلى الحق، ورأوا معجزات موسى مثل العصا، واليد البيضاء، وفلق البحر﴿اتَّخَذُواْ العِجْلَ﴾يخبر الله بأن باب التوبة يبقى مفتوحاً: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾فقد استمرّ موسى في دعوته بالهداية.

﴿١٥٤﴾

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ البَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾

يبيّن الله لرسوله بأنه ييسر على الناس سبل التوبة، إن هدفوا اليها، وأنه في الوقت عينه قادر على جعلهم يؤمنون طوعاً أو كرهاً، وهنا يبيّن كيف أنه رفع﴿فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ الجبل فباتوا في خوف من رؤية المشهد مما جعلهم يسجدوا وهم يخافون أن يسقط الجبل عليهم ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف ١٧١

ثم دخلواأحد أبواب بيت المقدس﴿سُجَّداً﴾يسألون الله أن يحط عنهم ذنوبهم، ثم أمرهم الله ألاّ يعدوا ﴿فِي السَّبْتِ﴾ قيل: (أمر القوم أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت ولا يعرضوا لها، وأحل لهم ما وراء ذلك).

﴿١٥٥﴾

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾

﴿فَ﴾نتيجة كل ما بدر منهم مما ذكر الله، جاءهم العقاب ﴿بِمَا﴾ أي فبجزاء﴿نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ عندما﴿رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾،﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ﴾ إنكارهم لما أنزل الله من آيات ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ اعتداءهم بالقتل على الأنبياء دون أن يكون لهم حق في ذلك،﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وهو الشيء الذي يتم تغليفه، فلم يعد يدخله شيء آخر، وقد وقف المشركون مثل هذا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾فصلت٥

ولعل ذلك من الاستكبار، فهو اعتقاد بأنهم اكتفوا بما في قلوبهم، ثم غلّفوها، وبذلك يكون إنكارهم لآيات الله، فيأتي قول الله ﴿بَلْ ﴾الصواب﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ولعل القليل هو عبدالله بن سلام، وصحبه الذين لم يطبع الله على قلوبهم، وقد خرجوا من الكفر إلى الإسلام، و﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ يعني أن القليل منهم سيتسلسلون من بعضهم البعض وقد لبثت ﴿فَلاَ﴾ مفتوحة لأبناء كل زمان ومكان.

﴿١٥٦﴾

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾

إضافة إلى ﴿فَبِمَا﴾ فهم يخفون الحقيقة التي يعلمونها، ولذلك جاءت كلمة البهتان لتبيّن ما هم عليه، فالبهتان أن تتهم أحداً بتهمة وأنت تعلم بأنه براء منها، فقال﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ﴾ والكفر هنا يشير إلى الإخفاء، فأن تكفر أمراً، بمعنى أن تخفيه، فقد أخفوا حقيقة عفاف مريم التي يعلمونها، لأن مريم كانت معروفة بعفافها، وبالمقابل كالوا لها التهم بـ ﴿قَوْلِهِمْ﴾، فهو محض ﴿قَوْلِ ﴾﴿هِمْ﴾ يفتقد الأدلة المادية، إذن هو محاولة للإساءة إليها بالقول، وما ذلك إلاّ للنيل من ابنها عيسى عليه السلام.

﴿١٥٧﴾

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾

كذلك إضافة إلى ﴿فَبِمَا﴾ وهنا أيضاً يلبثون في دائرة القول المحض بأنهم قتلوا وصلبوا﴿الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾فيبيّن اللهالحقيقة، وهي أنهم قد ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾بأنهم قتلوه وصلبوه، يُخبر الله بأن اليهود ﴿مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾وهذا فقد بـ﴿قَوْلِ ﴾﴿هِمْ﴾وهذا تأكيد بنيتهم قتل الأنبياء، وأنهم سعوا إلى قتل عيسى عليه السلام، لكن ذلك لم يتحقق، كما تحقق بالنسبة لبعض الأنبياء الذين قتلوهم. ثم انظر إلى الغريب في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فالقول في ظاهره يحتمل إيمانهم بأن ﴿الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ، فإذن لِمَ قتلوه؟! لكن بالعودة إلى وصفهم عيسى بصفات غير لائقة مثل: (الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة) يبدو بأنهم استهزأوا بقولهم ذلك، بمعنى: لقد قتلناه رغم أنكم تقولون أنه ﴿الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾لكن هناك شخص مقتول، وهو الذي﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾كذلك هو الذي جعلهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾.

ثمة رواية للسدي يقول فيها: (إن اليهود حبسوا عيسى مع عشرة من الحواريين في بيت، فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه ويقتله، فألقى الله شبه عيسى عليه ورفع إلى السماء، فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى عليه السلام، ثم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ فذلك اختلافهم فيه).

﴿١٥٨﴾

﴿بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾

فلم يقتلوه، رغم أنهم أرادوا قتله، لكن الذي قتلتوه هو شخص آخر غير ﴿**المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ**﴾وقد ﴿**شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ بأنه هو، وقد رفعه الله إليه، وتبقى العزّة لله القادر على فعل ما يشاء ، بما يرى من حكمة ﴿**وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾

﴿١٥٩﴾

﴿وَإِن مِّنْ أَهلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيهِمْ شَهِيداً﴾

جاء ﴿**أَهلِ الكِتَابِ**﴾ شاملاً اليهود والنصارى، و﴿**إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ**﴾ تأكيد بأن الإيمان سيقع، والإيمان **بِهِ** بمعنى اليقين بحقيقة المسيح، وحقيقة ما جاء به، وحقيقة ما حصل معه، فهو إذن غير مقتول، وغير مصلوب، يحمل إنجيلاً خالياً من التحريف، فهو الإيمان الذي دعاهم به عيسى بما أمر الله، يُخبر الله تعالى بأن هذا الإيمان سيقع في قلوب ﴿**أَهلِ الكِتَابِ**﴾ جميعاً في كل زمان ومكان، ثم قال ﴿**قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾وهذا لايعني بأن ذلك سيتحقق بشرط عند وقوع الموت، بل قد يتحقق ذلك ليس لدى وقوع الموت، فيؤمن ﴿**مِّنْ أَهلِ الكِتَابِ**﴾ مَن هداه الله للإيمان، وعندئذ، فإن الحكم يختلف، فـ ﴿**إنّما يتقبّل الله من المتقين**﴾ المائدة ٢٧، لأنه قد اتقى وآمن باختيار، وليس عند وقوع كارثة، أو حادث، ورأى بأنه بات على وشك الموت، وفي تلك اللحظات الأخيرة، يؤمن، فلا ينفعه إيمانه، ويكون مثل الذين ذكرهم الله في الآية ١٨ ﴿**حَتَّى إِذَا حَضَرَ**

أحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ثم يذكر الله بأن عيسى عليه السلام ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾.

﴿١٦٠﴾

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾

فقد ظلم اليهود أنفسهم عندما كفروا، ومن نتائج ظلمهم لأنفسهم، أن الله حرمهم من طيبات الطعام كانت قد ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾وقد صدّواعن الحق﴿كَثِيراً﴾، ومن ذلك تحريف كتاب الله، وإنكار نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ الأنعام ١٤٦ .

﴿١٦١﴾

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾

لقد تجاوز ظلمهم لأنفسهم، إلى ظلم الناس أيضاً، عندما بدأوا يستغلون حاجاتهم، ويأخذون ﴿الرِّبَا﴾الذي نهاهم الله عنه، كذلك أنهم يتجاوزون على أكل﴿أَمْوَالَ النَّاسِ﴾دون حق، ومن ذلك ما كانوا يكتبونه بأيديهم ويأخذون عن ذلك الأموال من الناس وهم﴿يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾البقرة ٧٩

فمن يستمر في ظلمه لنفسه وظلمه للناس، ويكفر بآيات الله يكون قد عرّض نفسه لعذاب أليم، وفي ذلك توجّه إلى التوبة، وأن يقوا أنفسهم هذا العذاب الأليم الذي اعتده الله﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾

﴿١٦٢﴾

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾

أمّا الذين لايظلمون أنفسهم، ولايظلمون الناس، ويتجنبون ما نهاهم الله عنه، فمن اليهود مّن يرسخ **فِي الْعِلْمِ** ، وذلك يجعله يرسخ في الإيمان، ومنهم مّن يؤمن، جاء ﴿**الْمُؤْمِنُونَ**﴾معطوفاً على ﴿**الرَّاسِخُونَ** ﴾فهؤلاء يامحمّد ﴿**يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ ولايكون إيمانهم قولاً فقد، بل يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وكما أن الكافر يُجزى بما كفر وعمل بكفره ، ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾ فإن المؤمن يُثاب بما آمن، وعمل بإيمانه﴿ **أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً**﴾

﴿١٦٣﴾

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾

فكما وقع معك يا محمّد مما تلقاه من الكافرين بما ﴿**أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ فقد وقع مع الأنبياء من قبلك، فهؤلاء لايبتغون التوبة، بل عنادهم مستمرّ من جيل إلى جيل، وأي استجابة لهم لاتجعلهم يؤمنون ويكتفون، بل يعاندون ويتمادون أكثر، وقد ذكر الله نوحاً الذي بدأت معه مسيرة جديدة للحياة البشرية بعد الطوفان، وهو أول الرسل حيث ورد في حديث الشفاعة ، في الصحيح :" أنّ نوحاً عليه السلام أوّل الرسل ".

فكان ذلك إشارة إلى بدء حياة بشرية جديدة، وذكر أول رسول ، وآخر رسول معاً:﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ**﴾، فبينكما من الأنبياء والرسل الذين حملوا معجزاتهم، قد لاقوا من الكفار هذا العناد، وهذا الاستكبار، ﴿**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً**﴾الكتاب الذي أنزله الله على داود عليه السلام، وقد آتاه الله الحكمة، وفصل الخطاب، وسخّر له الجبال والطير يسبحن معه في العشي والإبكار .

كما أن الله أنعم عليه بصوت بالغ الحسن، وعندما يقرأ الزبور، تسبّح معه الجبال، ويغرّد معه الطير. يقرأ الزبور بسبعين صوتا، له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويُبكي ببكائه كل شيء، ويشفي بصوته الهموم والحموم .

وقد ألان له الله الحديد، فيكون بين يديه كما يشاء، يستجيب له كما تستجيب الطيور، وتستجيب الجبال[٣٢] .

﴿١٦٤﴾

﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾

وقد ذكر الله لرسوله ما وقع مع بعض الرسل الذين أرسلهم لهداية الناس، ولم يذكر له البعض، ﴿قَصَصْنَا﴾ما جرى مع﴿هُمْ﴾﴿عَلَيْكَ﴾﴿وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْ﴾ماجرى مع﴿هُمْ﴾﴿عَلَيْكَ﴾.

قال محمد بن الحسين الآجري: (حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الفِرْيابي إملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسَّاني، حدثنا أبي، عن جده عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده، فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة. قال: " الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل " .

قال: قلت: يا رسول الله، فأي الأعمال أفضل؟ قال: " إيمان بالله، وجهاد في سبيله " . قلت: يا رسول الله، فأي المؤمنين أفضل؟ قال: " أحسنهم خلقا " . قلت:يا رسول الله، فأي المسلمين أسلم؟ قال: " من سَلِمَ الناسُ من لسانه ويده " . قلت:يا رسول الله، فأي الهجرة أفضل؟ قال: " من هَجَر السيئات " . قلت:يا رسول الله، أيّ الصلاة أفضل؟ قال: "طول القنوت " . قلت: يا رسول الله، فأي الصيام أفضل؟ قال: " فرْضٌ مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة " .

قلت:يا رسول الله، فأي الجهاد أفضل؟ قال: " من عُقِر جَواده وأهرِيق دَمُه " .

قلت:يا رسول الله، فأيّ الرقاب أفضل؟ قال: " أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها " .

قلت:يا رسول الله فأيّ الصدقة أفضل؟ قال: " جَهْد من مُقِلٍّ، وسر إلى فقير " .

[٣٢] إمام الحكمة، رواية، عبد الباقي يوسف، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الكويت ٢٠١٠

قلت:يا رسول الله، فأيّ آية ما أنـزل عليك أعظم منها ؟ قال: " آية الكرسي " . ثم قال: "يا أبا ذر، وما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة ". قال:قلت:يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ".

قال:قلت:يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: " ثلاثمائة، وثلاثة عشر جمٌّ غَفيرٌ كثير طيب " .

قلت:فمن كان أولهم؟ قال: " آدم " .

قلت:أني مرسل؟ قال: " نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسَوَّاه قبيلا" ثم قال: "يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث، وخَنوخ - وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم- ونوح. وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونبيك يا أبا ذر. وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد ".

قال: قلت: يا رسول الله، كم كتابًا أنـزله الله؟ قال: " مائة كتاب وأربعة كتب، وأنـزل الله على شيث خمسين، صحيفة، وعلى خَنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنـزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف والإنجيل والزبور والفرقان " .

قال: قلت:يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟

قال: "كانت كلها: يا أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر. وكان فيها مثال: وعلى العاقل أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ضاغنا إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو مَرَمَّة لمعاش، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظًا للسانه، ومَنْ حَسِب كلامه من عمله قَلَّ كلامه إلا فيما يعنيه " . قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟

قال: " كانت عِبَرًا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالقَدَر ثم هو يَنْصب، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلُّبَهَا بأهلها ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم هو لا يعمل " قال: قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما في أيدي إبراهيم وموسى، وما أنـزل الله عليك؟ قال: "نعم، اقرأ يا أبا ذر:﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى★ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى★ بَلْ**

تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا★ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى★ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى★صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾الأعلى١٤- ١٩

قال: قلت يا رسول الله، فأوصني. قال: " أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس أمرك " .

قال: قلت يا رسول الله، زدْني. قال: " عليك بتلاوة القرآن، وذِكْر الله، فإنه ذكرٌ لك في السماء، ونورٌ لك في الأرض " .

قال: قلت:يا رسول الله، زدني. قال: " إياك وكثرة الضحك. فإنه يميت القلب، ويُذْهِبُ بنور الوجه " . قلت:زدني. قال: "عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي " . قلت:زدني. قال: " عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مَطْرَدَةٌ للشيطان وعون لك على أمر دينك " .

قلت:زدني. قال: " انظر إلى من هو تحتك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر لك ألا تزدري نعمة الله عليك " .

قلت: زدني. قال: " أحبب المساكين وجالسهم، فإنه أجْدرُ أن لا تزدري نعمة الله عليك " .
قلت:زدني. قال: " صل قرابتك وإن قطعوك " . قلت:زدني. قال: " قل الحق وإن كان مرا " .

قلت:زدني. قال: " لا تخف في الله لومة لائم " .

قلت:زدني. قال: " يَرُدَّك عن الناس ما تعرف عن نفسك، ولا تجدُ عليهم فيما تحب، وكفى بك عيبًا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك. أو تجد عليهم فيما تحب " .

ثم ضرب بيده صدري، فقال: " يا أبا ذر، لا عَقْل كالتدبير، ولا وَرَع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق ").

ثم أخبر الله رسوله بأنه خصّ ﴿**مُوسَى**﴾ دون غيره من الرسل بكلامه ﴿**وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً**﴾

فقد كلّمه ﴿**تَكْلِيماً**﴾ أي كلاماً لكلام، فقد كلّمه موسى أيضاً، فلم يكن كلاماً من الله عز وجل فقط، بل أذن لموسى عليه السلام أيضاً أن يُكلّمه، وقد عُرف موسى بأنه (كليم الرحمن) يبيّن الله تعالى بأنه كلّم موسى، وذلك يعني بأنه قد سمع كلام الله دون واسطة، وقد أرسل الله كلامه إليه: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾القصص ٣٠

﴿**يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾النمل٩

﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى★فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى★إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى★ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى★ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾طه ١٠- ١٤

﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾الأعراف١٤٣ .

﴿١٦٥﴾

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾

فهؤلاء حملوا إلى الناس أمر الله، وشرعه، وبشروا المؤمنين بالثواب، وأنذروا الكفار بالعقاب، ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾فلا أحد يقول بأنه لم يعلم، فقد بيّن الرسل قول الحق، والذي ينكر لاتكون له ﴿**عَلَى اللّهِ حُجَّة**﴾في إنكاره فلا حق يستند إليه في كفره ﴿**وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً**﴾بفعل مايشاء﴿**حَكِيماً**﴾بما يشرّع للناس.

﴿١٦٦﴾

﴿لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾

بعد أن ذكر الله لرسوله الرسل، وما قد وقع معهم من مجريات، يُخبره برسالته الخاتمة، وأنه قد أنزلها عليه، فإن كفر بها البعض،﴿**اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ**﴾يا محمّد﴿ **أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ المُنزَلهو علم خالص من الله للناس، فالقرآن الذي ﴿**أَنزَلَ إِلَيْكَ**﴾يا محمّد هو علم الله، والله يُعلمك ﴿**بِعِلْمِهِ**﴾ ما شاء أن يُعلِمك إياه، حتى تبلغ به الناس ، فإن القرآن﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن**

بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾فصلت٤٢، وفي ذلك بيان بأن القرآن كغيره من الكتب السماوية، حيث هي جميعاً من علم الله، كما أنهم جميعاً رسل الله، وليس بوسع أحد سواء من الرسل، أو من غيرهم أن يعلم شيئاً دون أن يأذن له الله تعالى ذكره بهذا العلم ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ** ﴾البقرة٢٥٥ .

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن بن سَهْل الجعفري وخَرَزٌ بن المبارك قالا حدثنا عمران بن عيينة، حدثنا عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السَّلمي القرآنَ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذتَ علم الله، فليس أحدٌ اليوم أفضلَ منك إلا بعمل، ثم يقرأ: ﴿ **أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾)

﴿١٦٧﴾

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾

بعد كل ما بيّنه الله بما أنزله إليك من آيات، فـ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾بهذه الآيات دون أن تكون لهم في ذلك ﴿**عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ**﴾﴿**وَ**﴾ كذلك ﴿**صَدُّواْ**﴾فعلوا ما بوسعهم كي يبعدوا الناس﴿**عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ هؤلاء بكفرهم وصدّهم ﴿**قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾ فقد ضلوا أنفسهم، وأضلوا غيرهم، حيث أصبحوا دعاة للضلال، وهم يقولون للناس: (ما نجد صفة محمد في كتابنا) ويدّعون بأن النبوّة مقتصرة في ولد هارون، ومن ذرية داود.

﴿١٦٨﴾

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً**﴾

يُخبر الله بأنه لايغفر لهؤلاء الذين حق فيهم القول بالكفر والظلم، وأنه عز وجل لا يهديهم طريق الجنّة ، كونهم كفروا بآيات الله، وظلموا أنفسهم، فقد اختار هؤلاء لأنفسهم طريق الضلال الذي يودي بهم إلى النار، وقد كفورا بأن أنكروا ما جاء به الرسول، وقد بيّنت الآيات بعض تصرّفاتهم مع الرسول ومع المسلمين، وهؤلاء لم تقتصر عليهم مرحلة زمنية محدّدة، أو

بقعة جغرافية، بل يظهرون في كل زمان ومكان، حيث يستهزئون بآيات الله، ويسعون إلى إضعاف المسلمين.

﴿١٦٩﴾

﴿ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً﴾

فالطريق الذي سلكوه، يودي بهم إلى ﴿جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾فليس بوسع أحد أن يقف حائلاً دون ذلك، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾بمعنى لاتعتقدوا أن ﴿ذَلِكَ﴾- اللا هداية إلى طريق الجنة، وتركهم على الطريق الذي سلكوه لأنفسهم، وخلودهم في جهنم - هو غير يسير على الله، بل اعلموا أن ﴿ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً﴾

﴿١٧٠﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾

فهذا الكلام كله إنما هو لعموم الناس، في كل زمان ومكان، وأن مَن يتعظ بعد أن يبلغه الحق ويسأل الله المغفرة، فإنه يجد الله غفوراً رحيما، فقال تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾دون استثناء أحد﴿قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾القرآن الذي يحمله إليكم﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾وفيه الهدي ﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ﴾لأن الإيمان بالحق هو خير﴿ لَّكُمْ﴾ من الكفر ﴿وَإِن تَكْفُرُوا ﴾بالحق الذي﴿جَاءكُمُ الرَّسُولُ﴾ به، ﴿فَ﴾اعلموا﴿إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾، فرأفة منه جل وعلا فقد دعا الإنسان إلى نور الإيمان ليخرجه من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمات نفسه إلى نور ربه، فبدون أن يمسه شيء من هذا النور الإلهي المبارك، وتتعمد روحه بمياه الإيمان النقية، يلبث هذا الكائن في معزل عن ربه، عرضة لنوازع الشر في كوامنه وفي كائنات أخرى مرئية وغير مرئية يعيش في محيطها وتعيش في محيطه فيوجه عز من قائل﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَّكُمْ ﴾لتنالوا خير الإيمان، ولا يلبث توجيه العزيز في محض الأمر ، لكنه وبواسع رحمته يظهر لهم أنوار الإيمان التي سوف تسطع على ظلماتهم واضطراب نفوسهم فتحقق في دواخلهم

الأمن والسكينة والنزوع إلى رحاب الفضيلة، وتشفيهم من أمراض روحية وبدنية وتمحو كل أثر من آثار ما اقترفوا من سيئات أعمال وإصلاح ذات البين .

قال البارئ المصور : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾محمد٢ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾الأنعام٨٢ ، كذلك فقد﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾الفتح٢٩ثم يُخبر المؤمنين:﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾الحديد١٢ تنمو بذرة الإيمان وتترعرع في تربة روح الإنسان بمياه الذكر، وبالإكثار من ممارسة سلوك إيماني ، وما أن سبّح الإنسان في محراب الذكر ، وذكر الله في كل عمل يعمله، وكل لفظ يلفظه حتى يجد الله﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ التغابن ١١

وقد استفاض خاتم النبيين - الذي أولاه ربه مهمة نشر وشرح كتاب الإيمان - في وضع نقاط كلمة الإيمان على حروفها في قلب المؤمن ، وهو في هذا بلغ مرتبة سيد الشراح ، والمشكاة التي يهتدي بها الشراح من بعده ، ومن شروحاته لكلمات ربه للناس وهو يبين تهيئة أسباب حلول نور الإيمان على قلب المؤمن :"ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار" متفق عليه.

والحكمة في هذا الموضع من محبة الله أنها تملأ قلب ومشاعر الإنسان بمحبة رسوله الذي يبادل الإنسان محبة أعلى مرتبة منه، ومن محبة الرسول تتوالد سلوكيات محبة الناس لا لغايات أو لمصالح دنيوية زائلة، بل تتوالد كما هي محبة خالصة في الله. فأي محبة حقيقة صادقة لا تحقق كينونتها إلا إذا سبقتها هذه المحبة الربانية الزكية، أما إذا كان فاقدا لهذه المحبة الإلهية الطاهرة ، فان بذرة المحبة تلبث ميتة لا يحركها ساكن من دون الله في عمق فؤاده.

إذا خلا قلب الإنسان من الإيمان، خلا من كل خصلة طيبة، وانطفأ فيه نور النزوع إلى كل أمر معروف، فكان الحب هو الواجهة الإنسانية الكبرى، والعنوان الأول للإنسان، لا يدخل الإيمان قلبا لا يسكنه حب الله، وحب رسول الله، وحب الناس أجمعين في مشاعر إنسانية أخوية عامة

تقرّب الإنسان من بعضه ضمن حميمية عائلية البشرية المشتركة التي تنظر إلى رب رحيم واحد رغم اختلاف الأنبياء، فيلبث المؤمن الحق يضيء حبا وتسامحا وتضحية حتى ليغدو شجرة حب تمشي على الأرض ، فكان شرح النبي جليا وهو يبين للناس بشيء من الحسم في هذه القضية الكبرى : "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ،و لا تؤمنوا حتى تحابوا " رواه أحمد ومسلم والترمذي. ثم يصف حال المؤمن في عناية ﴿**ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**﴾الرحمن٢٧ :"عجبا لأمر المؤمن أن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين ، إن أصابته سرّاء شكر وكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له " رواه أحمد ومسلم.

﴿١٧١﴾

﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً**﴾

ثم أن الله جل جلاله يخص هنا الحديث إلى ﴿**أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾وهو يناديهم إلى الحق الذي أتى به خاتم الأنبياء والرسل محمّد صلى الله عليه وسلم، وألاّ يغلوا في دينهم، والغلو هو تجاوز الحدود التي وضعها الدين، وذلك إلى ما هو غير مألوف بما لم يرد في الدين، فيبيّن لهم بأن ﴿**الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾ وأن ما يقولوه خلاف هذا الحق، إنما هو باطل، والانتهاء مما هم عليه من باطل هو خير لهم.

﴿١٧٢﴾

﴿**لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً**﴾

بمعنى ﴿**لَن**﴾ يمتنع ، فإن كان ﴿**الْمَسِيحُ**﴾يقول بأنه عبد﴿**لِّلّهِ**﴾، و﴿**الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ يقولون ذلك، فكيف تقولون بأنه ليس ﴿**عَبْداً لِّلّهِ**﴾، وقد ذكر الله تعالى﴿**الْمَسِيحُ**﴾، كذلك ذكر

الملائكة، وذكّر الناس بقربهم إلى الله، ﴿**الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾، فهم أيضاً لايستنكفون أن يكونوا عباداً ﴿**لِلّهِ**﴾، وقد حملوا عرش الرحمن على عظمته. فالمسيح هو صاحب الشأن، وهو الأدرى منكم بكونه عبد﴿**لِلّهِ**﴾لكن لماذا تم ذكر الملائكة بصفتهم المقرّبة، فلعل هذا يعني بانكم لو رأيتم بعض المعجزات الخارقة التي اتى بها المسيح، فإن الملائكة الذين يأتون بما هو أقوى، كذلك الذين يعلمون الحقائق أكثر مما يعلم الإنسان بمشيئة الله، ومما يُروى أن جبريل قلع مدائن قوم لوط بريشة واحدة من جناحه ، فهم لايستنكفون أن يكونوا عباداً لله.

وقد رد في الأثر:"أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك. ويقول بعضهم:سبحانك على عفوك بعد قدرتك".

ثم قال ﴿**وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ**﴾ فالذي يمتنع عن عبادة الله، ﴿**وَيَسْتَكْبِرْ**﴾بعد ما تبيّن الحق﴿**فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً**﴾

وعن سبب نزول الآية قيل:(أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تعيب صاحبنا قال: "ومن صاحبكم"؟ قالوا: عيسى، قال: "وأي شيء قلت"؟ قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله، قال: "إنه ليس بعار أن يكون عبد الله"، فنزلت هذه الآية)

قال الأزهري: (سمعت المنذري يقول: سمعت أبا العباس وقد سئل عن الاستنكاف فقال: هو من النكف، يقال ما عليه في هذا الأمر من نكف ولا كف، والنكف أن يقال له سوء، واستنكف إذا دفع ذلك السوء عنه)

﴿١٧٣﴾

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً**﴾

الذين يؤمنون بوحدانية الله، ويعملون الصالحات، فإنهم يلقون عند الله أجر ما عملوا تماماً بعد أن يجعل الله كل حسنة بعشر أمثالها كما وعد الله عباده المؤمنين من الثواب والجزاء، ﴿**وَ**﴾إضافة إلى ذلك﴿**يَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ**﴾بأن يجزل لهم العطاء بـ ﴿**فَضْلِهِ**﴾عليهم بما هو ليس أجر عملهم، بل هو زيادة من الله بما لم يكن يبلغوه بأعمالهم، ولكن زادهم الله ذلك فضلاً منه، وهذه الزيادة هي عطية الله لعباده هؤلاء في الجنّة التي فيها:" ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا

خطر على قلب بشر" . كما ينص الحديث. ثم بيّنت الآية الكريمة: ﴿**أَمَّا الَّذِينَ**﴾ امتنعوا عن الإيمان وصالحات الأعمال ﴿**وَاسْتَكْبَرُوا**﴾فإنهم يلقون جزاء ذلك العذاب الأليم، وليس بوسع أحد﴿**مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ أن يواليهم، أو ينصرهم.

﴿١٧٤﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً**﴾

فقد جاء برهان الإيمان بوحدانية الله الذي لاشريك له، إلى الناس، وهو خاتم أنبياء الله ورسله محمّد صلى الله عليه وسلم، حاملاً القرآن الذي ينير القلوب بالإيمان، ويصرف عنها ظلمات الكفر، والاستكبار، فهذا النور المبين مُنزل ﴿**إِلَيْكُمْ**﴾ كي تستنيروا به ﴿**يَا أَيُّهَا**﴾عموم﴿**النَّاسُ**﴾ بكل مللكم ونِحلكم .

﴿١٧٥﴾

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً**﴾

أمام بيان الله تعالى هذا، فإن الذين، صدّقوا البرهان ،و﴿**آمَنُوا بِاللَّهِ**﴾ مرسل البرهان، واستناروا بنور القرآن الذي حمله برهان الله للناس كافة، وتمسّكوا بإيمانهم دون أن يعرضوا أنفسهم للتفرقة، هؤلاء وعدهم الله بثلاث مكرمات منه، الأولى: ﴿**فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ**﴾ورحمة الله تنجي من النار، وتدخل الجنة، فمن رَحِمه الله كان من ذوي الحظ العظيم،﴿**وَفَضْلٍ**﴾ يعدهم الله بفضله عليهم، بأن يزيدهم أكثر مما يستحقون، فتلك هي زيادة الله التي يتفضل بها عليهم ﴿**وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً**﴾، فقد ﴿**آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ**﴾ فهداهم الله ﴿**إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً**﴾.

﴿١٧٦﴾

﴿ يَستفتونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ إِنِ امرُؤٌ هلَكَ لَيسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُختٌ فلَهَا نِصفُ مَا تركَ وَهوَ يَرِثهَا إِن لَمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فإِن كَانَتَا اثنَتَينِ فَلَهُمَا الثلُثَانِ مِمَّا تـرَكَ وَإِن كَـانُواْ إِخوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثلُ حَظِّ الأُنثيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تضِلُّواْ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

تنتهي سورة النساء بهذه الآية التي تدعو الناس رجالاً ونساءً للحفاظ على الحقوق المالية لبعضهم البعض، وألاّ يتجاوز أحد على حقوق أحد سواء من الرجال، أو النساء. في الآية الأخيرة يوجه الله جل ثناؤه الخطاب لرسوله كي يُخبر الناس بأن يفتيهم﴿**فِي الكَلاَلَةِ**﴾، ويبدو بأن الناس كانوا يستفتونه صلى الله عليه وسلم ﴿**فِي الكَلاَلَةِ**﴾رغم أنها ذُكرت في الآية ١٢ من هذه السورة وعُرفت بآية الشتاء، ثم عُرفت هذه الآية الأخيرة بآية الصيف، وثبت في الصحيح أنّ جابر بن عبد الله قال: (عادني رسول الله وأبُو بكر ماشيين في بني سَلِمة فوجداني مغمى عليّ فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبّ عليّ وَضوءه فأفقتُ وقلت : كيف أصنع في مالي فإنّما يرثني كلالة . فنزل قوله تعالى : ﴿**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة**﴾).

قال الإمام أحمد: (حدثنا إسماعيل، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن مَعْدان بن أبي طلحة قال:قال عمر بن الخطاب:ما سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن بأصْبُعِه في صدري وقال:" يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء ").

إن الله ﴿**يُبَيِّنُ**﴾ للناس حقوقهم المالية حتى لايضلوا بالتجاوز على حقوق بعضهم البعض، ثم تنتهي الآية والسورة معاً لتذكير الناس﴿**وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.